سلسلة المؤلفات العلمية
(٨)

إصداراتنا الرقمية
(١٠٥)

وَمَضات النُّور
في
طلب العلم المبرور

للأستاذ الدكتور
صلاح محمد أبو الحاج
عميد كلية الفقه الحنفي
بجامعة العلوم الإسلامية العالمية
عمان – الأردن

مركز أنوار العلماء للدراسات

ومضات النُّور..........

...في طلب العلم المبرور

الطبعة الرقمية الأولى
١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

إصدار
مركز أنوار العلماء للدراسات
التابع
لرابطة علماء الحنفية العالمية
World League of Hanafi Scholars

مركز أنوار العلماء للدراسات

جوال 00962781408764
البريد الإلكتروني anwar_center1995@yahoo.com

رمضان النُّور

في طلب العلم المبرور

للأستاذ الدكتور صلاح محمد أبو الحاج
عميد كلية الفقه الحنفي
بجامعة العلوم الإسلامية العالمية
الأردن، عمان

مركز أنوار العلماء للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

أحببت أن أقدِّمَ للطالب الرّاغب في تعلُّم العلوم الشرعية خلاصة نصح وإرشاد مجموعة من الشّيوخ الأفاضل ممَّن يعيشون في زماننا وبين أظهرنا، وكان لهم سبق قدمٍ في طلب هذه العلوم، وتجربة في تحصيلها رغم تغيّر الزّمان؛ لأكونً بذلك جمعت بين خلاصة تجربة أئمتنا السَّابقين كما ستأتيك في صفحات ومضات النّور، وبين عصارة نصائح أساتذتنا وإخوتنا المعاصرين كما في النّصائح والإرشادات العامّة لطالب العلم.

نصائح عامّة لطالب العلم

للشّيخ قاسم بن نعيم الحنفي

الحمد لله ربِّ العالمين، حَمْداً يُوافي نِعَمَهُ، ويُكافئ مَزيدَهُ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على المبعوثِ رحمةً للعالمين، سيّدِنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبِهِ أجمعين.

أما بعد:

فإنّ مما مَنَّن اللهُ به على هذه الأمة المرحومة أَنْ قام علماؤُها بتسجيل تأريخهم الإسلاميّ الحافلِ بالمكرُمات والمَفَاخر؛ ليبقى مَعِيناً يشربُ منه الباديَ والحاضر، ومَعْلماً يَهْتدي به كلُّ سائر.

وكانت تراجمُ علماءِ هذه الأُمة وصالحيها أَعدلَ شاهد، وأَصدقَ مُخْبر على ذلك، فقد حَوَتْ مآثِرَهُم الجليلة، وحَكَتْ أحوالَهم المُنيفة، وأَثارَهُم الشّريفة التي خَدَمتْ الإنسانية جمعاء.

ولما بدأ التدهورُ العلميُّ يسري في مدارس العلماء، وتراجعَ مستوى الطّلبة عمّا كان عليه سَلَفُهم الصالح من الحفظ وعلو الهمّة وحبِّ الشيوخِ والقيام بأداء حقوقهم، انتهض العلماء على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم الفقهية بجمع وتدوين آدابهم مع أساتذتهم، وحفظهم للأوقات، وكثرةِ

ذكرهم لله ﷻ، وحالِهم في الطَّلَب، وذلك لتشحيذِ الأَذهان، وإيقاظ الهِمَم، وإيقادِ البصائر، وإيثارِ الآخرةِ على الأُولى، والتأسّي بهديهم وسَمْتِهم، وكيف لا وفي قصصِهم عِبرة، وفي ذكرِهم تَتنزلُ الرحمة.

وقد اعتدنا في مَجالس شُيُوخنا أَنْ يَذكروا لنا طرفاً من عِطْر ذكرهم الفَوَّاح، والله يعلم ماذا كانت تَفْعلُ في نُفُوسنا من تأثيرٍ بليغٍ لا أُطيق بيانَهُ.

فعندما نسمعُ أو نقرأُ عن حفظهم للمطوَّلات، وكثرة تأليفهم نندهش من عُلُو همّتهم أو عن عبادتهم وتعظيمهم لشيوخهم نقول: ما هؤلاء بشراً، بل كأنهم ملائك كرامٌ، أو عن صبرهم في تحقيق المسائل، وتدقيقِ الدلائل، وقد يستغرقُ ذلك سنين طوالاً، نقول: ما يفتح اللهُ للناس من رحمة فلا ممسك لها.

أو عن قراءتهم ومُطالعتِهم التي كان فَلْياً للعبارات نقول: ذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء.

فهذا الإمام النووي عندما كان طالباً للعلم يدعوه شيخه الكمال الأَربلي ليأكل معه، فيقول: يا سيدي اعفني من ذلك، فإن لي عذراً شرعياً فتركه، وسأله بعض إخوانه: ما ذلك العذر؟ فقال: أخافُ أنْ تَسبقَ عينُ شيخي إلى لقمةٍ فآكلها وأنا لا أَشعُرُ.

وكان ﵁ إذا خَرَجَ للدرس ليقرأَ على شيخه يتصدّقُ عنه في الطريقِ بما يتيسّر ويقول: اللهم استر عنّي عيبَ مُعَلِّمي، حتى لا تقع عينيَّ على نقيصة.

ولَمَّا تخرَّج وجَلَسَ للتدريس كان يوصي طلبتَهُ أن لا يجيئوا دفعةً واحدةً خوفاً من كِبَرِ الحَلْقة، وإذا درَّس يجلس في عطفة المسجد، ويقول: إن النفس تستحلي رؤية الناس لها، وهي تدرس في صحنِ المسجد أو صدرِه.

فانظر وفقني الله وإياك إلى هذه النّفس الطّاهرة التي عرفت أن بركةَ العلم تُنال بحفظِ حرمةِ شيوخِهم والأدب معهم.

وهذا الإمام فخرُ الدّين الزَّيلعي رضي الله عنه كان يقول لطلبته: لا تقتصروا عليَّ في القراءة، فإني ما أجد نفسي إلا كواحد منكم، فإن وجدتم مَن له فضلٌ في العلوم فاقرؤوا عليه لتزدادوا به نفعاً وخيراً.

وكان الإمام الماورديُّ رضي الله عنه قد امتنعَ من إظهار كتبه في حياته، وعندما دَنَتْ وفاتُهُ قال لِمَنْ يثقُ به: الكتبُ التي في المكان الفلاني كلها من تصانيفي، وإنما لم أُظهرها لأن لم أجدْ نيةً صالحةً، فإذا عاينتُ الموتَ ووقعتُ في النَّزَع فاجعل يَدَك في يدي، فإنْ قَبَضتُ عليها وعصرتُها فاعلم أنه لم يُقْبَل منّي شيءٌ منها فاعْمِدْ إلى الكتب وأَلقها في دَجِلة، وإن بسطتُ يدي ولم أَقبض على يَدك فاعلم أنها قد قُبلَت وأَني ظَفِرتُ بما كنت أرجوه من النيّة.

وقد وقع هذا له وبارَكَ الله في تصانيفه ببركة نيّته، وحُسْن طويّتِهِ، وسلامةِ صدره من الأدواء الباطنية، وهكذا تكونُ الهمم، وهكذا تكون الرّجال.

ولله درُّ أبي الحسن الكرخي رضي الله عنه وهو يقول: أوصانا شيوخنا بطلب

العلم، وقالوا لنا: اطلبوه واجتهدوا فيه، وفلأَنْ يُذَمَّ لكم الزمانُ أحسنُ من أن يُذَمَّ بكم الزمان.

فاجتهد أيها الأخ الرّاغب في تحصيل العلم في أنْ تجدَ شيخاً عالماً عاملاً بعلمه تقيّاً نقيّاً، تقرأ عنده العلوم الشرعيّة، وتحفظَ الأدبَ معه، وأَداءَ حقوق المشيخة، وتجتهدَ في القراءةِ قبل الدّرسِ وبعده، وحفظِ المسائل والتمهُّل في فَهْم الدلائل، وتقييد الفوائد، مع الذِّكر الكثير والطهارة الدائمة، والعبادة والتذلل بين يدي الله ﷻ، فإنّ الطّريق وإنْ صَعُبَ لكن سَهْلٌ على مَنْ سَهَّلَ اللهُ عليه.

وكنت أطلُبُ الوصيةَ من شيخي علاّمة العراق المفتي، سيدي عبد الكريم المدرس ﷺ فيقول: ولدي إمَّا إخلاص وإمَّا إفلاس، عليك بتقوى الله واجتناب المحرَّمات، وصحبة الصالحين.

وختاماً انقل قصيدةً غرّاء يوصي فيها شيخ الإسلام تقي الدين السُّبكيُّ ولدَهُ الإمامَ بهاءَ الدين السُّبكي ﷺ كما في «الطبقات الكبرى» للتاج السُّبكي(١: ١٧٨):

وَخُذِ العُلُومَ بهمّةٍ وتفطّنٍ ... وقريحةٍ سمحاءَ ذات تَوَقُّدِ
واستنبطِ المكنونَ من أسرارها ... وابحث عن المعنى الأَسدِّ
وعليك أربابَ العلوم ولا ... فى ضَبْط ما يُلقونه بمُفَنِّد
وإذا أَتَتَكَ مقالةٌ قد خالفتْ ... نصَّ الكتاب أو الحديث المُسْنَد
فاقْفُ الكتابَ ولا تَمِلْ عنه ... متأدباً مع كلِّ حَبْر أَوحدِ
فَلُحُوم أهل العلم سُمَّت ... عليهمُ فاحفظ لسانَكَ وابْعُد

هذا وأرجو اللهَ جَلَّ جَلالُهُ أَنْ يكونَ كتاب أخي حضرة الشّيخ المفضال الدكتور صلاح أبو الحاج نافعاً في بابه، وآخذاً بيد طلاب العلم إلى ما كان عليه سلفنا الصالح من الجدّ والمثابرة وكثرة العبادة، وحضرتُهُ قد عوَّدنا في مؤلفاته الجمع والتحقيق المتين بقلمه السيّال، وفقنا الله وإيّاه لما يحبّه ويرضاه، ونفعنا بآداب شيوخنا، وجعلنا على خطاهم سائرين. آمين.

الخلاص في الإخلاص

للشّيخ قاسم بن نعيم الطائي

الحمدُ الله حقَّ حمده، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدنا مُحمَّدٍ الذي لا نبيَّ من بعده ، وعلى آلهِ وصحبهِ وجنده.

أما بعدُ: فهذه مواقفُ نافعة، ومراصدُ رائعة، أخذتُها من كُتب علمائنا المُحقِّقين، والمُربِّين المُتحقِّقين؛ لتبصير الطالبين في بيان آداب طلب العلم، وتنوير السّالكين في الإحتذاء بهدي سيِّد أُولي العزم، وتوضيح ما كان عليه سلفُ الأُمة، من الأُولياء والعلماء من أَهل السُّنة، ببيانٍ مُختصر، وتحقيقٍ مُحرَّر، وجعلتُها تذكرةً لي ولِمَنْ هو مثلي، واللهَ أسألُ أن ينفعنا به للعمل بالكتاب والسنة ، وله سبحانه الحمدُ والفضلُ والمنَّة.

يجبُ على العالِم والمتعلّم وسائر طالبي الحقّ الإخلاصُ العلم والعمل وسائر الأحوال حتى لا يبقى للشّوائب كالرّياء والكبر والعجب محلٌّ في العبد بل لا يبقى له شهودُ الاخلاص وإستحقاقُ الثواب عليه ، وإن خَطَرَ له طلبُ الثواب لزمهُ أن يشهد ذلك أنه من باب المنّة والفضل قال الله تعالى: {أَلاَ للهِّ الدِّينُ الْخَالِصُ}[الزمر:٣]، وقال تعالى: {فَادْعُوا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُون}[غافر:١٤].

والإخلاصُ جوهرُ الأعمال الظّاهرة والباطنة بل قَلبُها الحيُّ إن تمَّ تمَّتْ وقُبِلَتْ، وإن فَسد فَسدت ورُدّتْ، ولله درُّ أُستاذنا العلامة الشيخ عبد الكريم المُدرِّس حيث قال لي وأنا في مُقتبل العُمر: يا ولدي إما إخلاص وإما إفلاس.

والآثارُ كثيرةٌ في الحثِّ عليه، وبيان ر فضله وفضل المُخلصين والإهتمام به ولو قلّ العملُ، والوعيد من تركه ولو كَثُرَ العملُ، فقد روى ابن ماجه والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين مرفوعاً أنه ﷺ قال: «مَن فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وأقامَ الصلاة وآتى الزكاة فارقها واللهُ عنه راضٍ».

وروى البيهقي مرسلاً أن رجلاً قال: «يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: الاخلاص. قال فما اليقين ؟ قال: الصدق»، وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد: أن مُعاذ ابن جبل ﷺ قال: «يا رسول الله أَوصني، قال: أَخلص نيتَك يَكفِكَ العملُ القليلُ».

وروى البيهقي مرفوعاً: «طُوبى للمخلصين، أولئك مصابيحُ الهدى تَنجلي عنهم كلُّ فتنة عظماء».

وفي رواية لأبي داود وغيره بأسناد جيد مرفوعاً: «أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وأُبتغي به وجهه».

وروى الشيخان أنه ﷺ قال: «إنما الأعمال بالنية، وفي رواية بالنيات، وإنّما لكل أمرىء ما نوى فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته الى الله

ورسوله، ومَن كانت هجرته الىٰ دنيا يُصيبها أو أمرأة ينكحها، فهجرته الىٰ ما هاجر إليه».

وكان الحسن البصري ﷺ: كثيراً ما يُعاتبُ نفسه ويُوبِّخُها بقوله : تتكلَّمين بكلام الصالحين القانتين العابدين، وتفعلين فعلَ الفاسقين المنافقين المُرائين، والله ما هذه صفاتُ المخلصين»(١).

وكان الفُضيل بن عياض ﷺ يقول: «مادام العبدُ يستأنس بالناس فلا يَسلمُ من الرياء»(٢).

وكان أبو عبد الله الأنطاكي ﷺ يقول: «المُتزيِّنون ثلاثةٌ مُتزِّينٌ بالعلم، ومُتزِّينٌ بالعمل، ومُتزِّينٌ بترك التزين، فهو أَغمضُها وأَحبُّها الىٰ الشّيطان».

ويقول أيضاً: مَنْ طلبَ الإخلاص في أعماله الظّاهرة، وهو يُلاحظ الخلق بقلبه فقد رام المُحال؛ لأنَّ الإخلاص ماءُ القلب الذي به حياتُهُ، والرياءَ يُميتُهُ».

وكان عبد الله بن المبارك ﷺ يقول: «إن الرجل ليطوف بالكعبة وهو يُرائي أهلَ خُراسان ، فقيل له: وكيف ؟ قال : يحبُّ أن يقول فيه أهلُ خراسان إن فلاناً مُجاورٌ لمكة علىٰ طواف وسعي فهنيئاً له».

وكان الفضيل ﷺ يقول: «أدركنا النَّاس وهم يُراؤون بما يعملون، فصاروا الآن يُراؤون بما لا يعملون».

---

(١) نبيه المغترين ص٨.

(٢) نفس المصدر ص٨.

وكان يقول ﷺ: «العملُ لأجل الناس رياءٌ ، وتركُ العمل لأجل الناس شركٌ ، والإخلاصُ أن يُعافيَك اللهُ منهما».

قال الإمام الفقيه المحدِّث العارف بالله الشّيخ سيدي عبد الوهاب الشّعراني ﷺ في «تنبيه المغترين»[1]: «ترك العمل لأجل النّاس أن لا يحب أن يعمل إلا في محلّ يحمده النّاس فيه، فإن لم يجد مَن يحمده ترك العمل وكسل عنه»، اهـ .

وللإخلاص شرطٌ وموانعُ وقوادحُ ، وسأذكر لك بعضاً من كلٍّ منها ليتبصَّرَ مَن هو مثلي، ويستفيدَ العالم والمُتعلِّم .

أما شرطُهُ: فإتخاذُ شيخ عالم كامل عارف بالله خبير بطرق التربية ليعلمَ طالبُ الحقِّ طريقَ الوصول الى رُتبة الإخلاص، وههنا لا بدَّ من السلوك على أيدي كُمّل الأولياء من السَّادة الصُّوفية من أهل السّنة والجماعة لتحصيل الإخلاص؛ إذ ما لا يَتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ، وصرَّح بهذا المفسِّر الآلوسيُّ في كتابه «فيض الوارد» وجميعُ ما ورد في فضل العلم والعمل إنما هو في حقِّ المخلصين السالكين طريق الحقّ عز وجل كما نبَّه عليه العارف الشّعراني[2].

ولله درُّ سيدي أحمد الرفاعيّ وهو يقول في كتابه حال أهل الحقيقة[3]:

---

(١) ص١٠.

(٢) لواقح الانوار القدسية ص١٦.

(٣) ص١١٦.

وهو ـ أي الإخلاص ـ نورُ العارفين بالله؛ إذ الأعمالُ بغير الأخلاص كلُّها ظُلمةٌ، وبه تتنوَّرُ، ولذلك ارتفعت هِممُ العارفين في الأعمال الى الإخلاص: {أَلاَ للهَّ الدِّينُ الْخَالِصُ}[الزمر:٣].

وأما موانعُهُ: فأكلُ الحرام والشُّبهات، وقد قالوا: لا يصحُّ معها إخلاصٌ في عمل؛ لأنّه لا يخلُصُ إلا مَنْ دخلَ حضرةَ الإحسان، ولا يدخل حضرة الإحسان – التي يعبد فيها المخلص ربه كأنه يراه، فأن لم يكن يراه، فإنّ العبد يراه – إلا المُطهَّر من النَّجاسات الباطنة والظاهرة(١).

وكان الحسن البصري ﵁ يقول: قبيحٌ بالعالم أن يشبعَ في هذا الزمان من الحلال فكيف، بمن يشبعُ من الحرام .

ومنها: التّطاولُ على الغير بما تحفظهُ من كلام الناس وأقوالهم في العلم، فإن ذلك الذي تتطاولُ به ليس من عملك، ولا استنبطته(٢).

ومنها : أن تحبَّ ذكرَ الناس لك ، قال إبراهيم بن أدهم ﵁: «ما اتقى الله مَن أحبَّ أن يذكره النَّاس بخير ولا أخلص له»(٣).

ولّما ترك سفيان الثوري ﵁ التحديثَ قالوا له في ذلك فقال: «والله لو أعلم أن أحداً منهم يطلب العلم لله تعالى لذهبتُ الى منزله ، ولم أُتعبه»(٤).

---

(١) لواقح الانوار القدسية ص١١.

(٢) تنبيه المغترين ص٩.

(٣) نفس المصدر ص٩.

(٤) نفس المصدر ص١٠.

ومنها: حبُّ الدّنيا وشهواتها، وكان سفيان بن عيينة ﵁يقول: إذا رأيتُم طالبَ العلم كلما ازداد علماً كلما رَغِبَ في الدُّنيا وشهواتها، فلا تُعلِّموه، فإنكم تُعينونه على دخول النار بتعليمكم إياه»[1].

ومنها: عدمُ الورع في تناول الشبهات وعدمُ العمل بما علمه وتعلَّمه، قال الحسن البصري ﵁: ورعُ العلماء إنما هو في ترك تناول الشَّهوات، أمّا في المعاصي الظّاهرة فتراهم يتركونها خوفاً من أن تذهبَ عظمتُهم من قلوب النّاس[2].

وأما قوادحُهُ: فعدمُ العمل بالعلم قال الإمام الشافعي ﵁: قال لي الإمام مالكٌ ﵁: يامُحَمَّدُ اجعل عملَك دقيقاً وعلمَك ملحاً.

وكان منصورٌ المعتمرُ ﵁ يقول لعلماء زمانه: إنكم لستُم علماء، وإنما أنتم مُتلذِّذون بالعلم أحدُكم المسألةَ ويحكيها للناس، ولو أنكم عملتم بعلمكم لتجرّعتم المرارت والغصص، ولَحَثَّكم علمُكم على الورع حتى لا يجدَ أحدُكم رغيفاً يأكلُهُ[3].

وكان الإمام سفيان بن عيينة ﵁ يقول: كيف يكونُ حاملُ القرآن عاملاً به، وهو ينام الليل ويُفطر النّهار، ويتناولُ الحرام والشبهات، اهـ.

ويقول الإمام سفيان الثوري ﵁: «أُطلبوا العلمَ للعمل، فإنّ أكثرَ

(١) نفس المصدر ص١٢.

(٢) نفس المصدر ص١٣

(٣) نفس المصدر ص٩

الناس قد غلطوا في ذلك، فظنُّوا النجاة بعلمهم من غير عمل به، فأين الآياتُ والأخبارُ الواردةُ في تعذيب مَنْ لم يعملْ بعلمه»[١].

ومنها : اختلالُ النية في الطَّلب لا سيما عند انفتاح الدنيا على صاحبها، وكان أبو داود الطيالسي ﵁ يقول: «ينبغي للعالم إذا حرَّر كتابه أن يكون قصدُهُ بذلك نصرةَ الدين لا مدحُهُ بين الأقران لحُسن التأليف».

ومنها: إظهارُ عمله للناس كي يحصلَ على الحظوظ الدنيوية والمناصب الزائلة والمظاهر الخدَّاعة، وكان بشر الحافي ﵁ يقول: «لا ينبغي لأمثالنا أن يُظهِرَ من أعماله الصّالحة ذرةً فكيف بأعماله التي دخلها الرياءُ، فالأَولى بأمثالنا الكتمان»[٢]، إلا أن يكون في ذلك دعوةُ الناس الى الإقتداء والتخلُّق برسول الله ﷺ، وكان الإمام سفيان بن عيينة ﵁ يقول: «إذا رأيتُم طالبَ العلم كلّما إزداد علماً كلّما رغب في الدّنيا وشهواتها، فلا تُعلِّموه، فإنكم تُعينونه على دخول النّار بتعليمكم إياه».

ومنها: شهودُ إخلاصه في نفسه وهو يعتقد أنه من خاصَّة أهل الله، ومَنْ كان هذا حالهُ فهو فقيرُ الحال فارغُ القلب، قال الإمام العارف بالله سيدي الشّعراني: «قد أجمع الأشياخ على أن مَنْ شهد في نفسه الاخلاصَ احتاج إخلاصُهُ إلى إخلاص»[٣]، وسببُ هذا المرض الغرورُ، بل الاغترارُ

---

(١) نفس المصدر ص٩

(٢) نفس المصدر ص١٣.

(٣) لطائف المنن ص٣١.

بمن يَخدعُهُ بالمدح الكاذب، ويُخيِّلُ إليه أنّه من المخلصين، وهو في الحقيقة فارغُ اليدين.

منها: تثاقلُهُ من الاشتغال بالعلم ، وعلامتُهُ إنصرافُهُ في الغالب الىٰ مجالس الطعام والمُسامرة والإشتغال بذكر الناس بالسوء بدعوىٰ التحذير الكاذب والنّصح الفاسد، بل الإنشغال بالسفر لغرض المتعة وترك المستفيدين منه بلا راعٍ لهم ولا داعٍ، وهذا من أهمّ أسباب ضياع العلم والمدارس وتربية الأهل والطّلاب يقول الامام سيدي الشعراني ﵁ سمعتُ سيدي علياً الخواصَّ ﵁ يقول: «من علامة الإخلاص في العلم أن لا يَثقُلَ عليه الاشتغالُ به عند طلوع روحه، ومتىٰ سُئل عن مسألة وهو محتضرٌ، فقال: إليك عني دلَّ علىٰ عدم إخلاصه، فلا فرقَ عند المخلص بين قول مَن يقول له: قل استغفر الله أو سبحان الله، وبين مَن يقول له: علِّمني فروض الوضوء، علىٰ حدٍّ سواء، وهذا الخلق قلَّ مَن يتخلَّقُ به من طلبة العلم، بل غالبهم يرىٰ النّاس كلّهم هالكين إلا هو فقط، فإنه أمرهم بمعروف بنفسٍ فربَّما قابلت نفسه الأنفس، فوقعت الإبائة، فلم يحصل بذلك ثمرة»(١).

فتحصَّلَ من هذا كله أنّ الإخلاصَ شرطُ صحة الأعمال بل روحُها، نُعانيه اليوم من الرُّكود العلمي تارةً ، ومن إنزلاقِ أهل العلم في مَهاوي الإنحراف الفكري أو الخلقي وعدم الإستماع إلىٰ النّصح والتّذكير تارةً أُخرىٰ سببُهُ عدمُ الإخلاص في طلب الحق سبحانه، وكان سلف علمائنا يُفتِّشون أعمالهم

---

(١) لطائف المنن ص٣٧.

الظّاهرة والباطنة خشيةَ تسلُّل شوائب الرّياء والعجب والكبر وغيره؛ لذا كانت الأمةُ بخير وقوة ومنعة حتى أرست قواعد الحضارة والمدنية، وفي هذا القدر كفاية ههنا لأمثالي وأستغفر الله من كلّ ما يكره الله قولاً وفعلاً وخاطراً وسامعاً وناظرةً ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

منارات إرشادية في مسيرة طالب العلم

للشّيخ محمد عوّامة

مقدِّماً بين يدي ذلك سؤال الله ﷻ التّوفيق والسّداد، فأقول:

الإخلاص لله عزَّ وجل:

١ ـ إنّ اللَّبِنَة الأولى لكل عمل في ميزان الإسلام: الإقدام على العمل مع استحضار **الإخلاص لله ﷻ**، ولا ريب أنّ هذا الإخلاص سيكون مع عمل موافق للشريعة، ولن يستحضر العامل الإخلاص لله مع عمل مخالف لشريعة الله.

والإخلاص في طلب العلم: أن يلاحظَ الطالب رضاء الله في طلبه، لا لدنيا، ولا لجاه، ولا لوراثة لأبيه وجده من قبله، ولا لأيّ ملحظٍ سوى ذلك، **وإخلاص العبد لله في أموره: هو سرُّ نجاحه وفلاحه في الدنيا والآخرة.**

ومما يذكره أئمتنا المحدِّثون في كتبهم في الحض على الإخلاص في طلب الحديث الشريف: قول الإمام حمّاد بن سلمة رضي الله عنه: «مَن طلب الحديث لغير الله مُكِر به»، ولما كان علم الحديث هو العلمَ السائد آنذاك خصَّه حماد بن

سلمة بالذكر، ومعلوم بداهة أن طلب علم التفسير ـ مثلاً ـ ليس دون علم الحديث في الشرف والمكانة في الدين، وكذلك سائر علوم الإسلام، فإن طلب أيّ علم منها من غير إخلاص لله تعالىٰ في طلبه سبب لمكر الله ﷻ بصاحبه، {فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ} [الأعراف: ٩٩].

وقال غيره: «من طلب هذا العلم لله سَعِد وشَرُف في الدنيا والآخرة، ومن لم يطلبه لله خسر الدنيا والآخرة». [فتح المغيث ٢: ٣١٢].

شرف العلم الذي يحصله طالبه وشرف المكانة التي يتبوأها:

٢ ـ وثاني أمر يتوجَّب علىٰ طالب العلم أن يعلمه هو: **شرف العلم الذي هو بصدد تحصيله، وشرفُ المكانة التي يتبوأها**، ليؤدي حق الله تعالىٰ في أمرين اثنين:

أولهما: يعطي العلم حقَّه فيبذل كل نفيس ورخيص ليحصل علىٰ أكبر قدر من هذا العلم الشريف الذي اختاره الله تعالىٰ له من بين الملايين من الأمة المحمدية، وليصون هذا العلم العزيز العظيم فلا يمتهنه، وإذا لم يعرف الطّالب قيمة العلم، وشرف مكانته فإنه لن يقوم بهذين الحقَّين عليه.

إنّ علىٰ طالب العلم أن يفخرَ بفضل الله عليه، ولا يرىٰ نفسَه ضعيفاً، ويرىٰ زميله في الدراسة الابتدائية ـ مثلاً ـ وقد صار طبيباً، والآخر مهندساً، والثالث رجل أعمال، وبقي هو طالب علم، إمام مسجد، خطيب جمعة!!عليه أن يدرك فضل الله عليه: أن أمره ونهيه وتحليله وتحريمه، من أمر الله العظيم ونهيه، من تحليل الله وتحريمه، يقول بقول الله، ويقول الله بقوله،

فأيُّ شرف أعظم من هذا الشرف! إنه في إمامة المسجد الوسيطُ بين العباد وربهم سبحانه وتعالى، صلاتُهم بصلاته، وصلتُهم بالله بِصِلته، هذه هي المكانةُ المرموقة الحقَّة لطالب العلم إذا عَرَفَ حَقَّ الله وحَقَّ العلم.

إن الحديث عن شرف العلم وفضيلته، وشرف طالب العلم وفضله يستوعب أمسيات وأمسيات، ولكنّي أقتصر على التنبيه إلى معنى واحد فقط، يكون عنواناً ـ إن شاء الله ـ على ما وراءه.

إنّ الله تعالى أنار للنّاس عامةً الطريق إلى الإيمان به، والعمل بشرعه، في كتابه الكريم، ولما كان لا بدّ لهذا الكتاب الكريم من مبلغ وشارح له: أرسل رسوله محمداً ﷺ مبلغاً وداعياً وشارحاً، ولكن محمداً ﷺ ممن تنطبق عليه ـ من هذه الناحية ـ ما ينطبق على البشر جميعهم: الحياة ثم الموت، فكان لا بدّ لسيدنا رسول الله ﷺ من خلفاء عنه ووراثاً له، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يكونوا هم العلماء، وعبَّر ﷺ عن هذا المعنى بقوله الكريم: "إنّ العلماء ورثة الأنبياء"، وليس فوق هذه الرتبة إلا رتبة معها أو تسبقها، تلك هي رتبة الخلافة عن الله عز وجل في تبليغ شرعه إلى الناس، فكان هذا الخليفةُ هو طالبَ العلم اليوم، وعالِمَ الغد، ومفتيَ المستقبل.

وقد قال الإمام ابن القيم كلاماً نفيساً أنقله بطوله من مقدمة كتابه «إعلام الموقعين» قال ﷺ: «ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلّغ، والصدق فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق، فيكون عالماً بما يبلّغ، صادقاً فيه، ويكون ـ مع ذلك ـ حسن الطريقة، مرضيّ السيرة، عدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في

مدخله ومخرجه وأحواله، وإذا كان منصبُ التوقيع عن الملوك بالمحلّ الذي لا يُنكر فضله، ولا يُجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السّنيَّات، فكيف بمنصب التّوقيع عن رب الأرض والسموات؟!.

فحقيق بمن أُقيم في هذا المنصب أن يُعِدَّ له عُدّته، وأن يتأهب له أُهبته، وأن يعلم قدر المقام الذي أُقيم فيه، ولا يكونَ في صدره حرج من قول الحق والصّدع به، فإنّ الله ناصره وهاديه، وكيف وهو المنصب الذي تولاه بنفسه ربّ الأرباب فقال ﷻ: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} [النساء: ١٢٧]، وكفى بما تولاه الله تعالى بنفسه شرفاً وجلالة إذ يقول في كتابه: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ} [النساء: ١٧٦]، ولْيعلمِ المفتي عمن ينوب في فتواه، وليوقنْ أنّه مسئول غداً، وموقوف بين يدي الله.

وأوّل مَن قام بهذا المنصب الشّريف سيّد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النّبيين عبد الله ورسوله وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده». انتهى كلامه.

وهذه المرتبة العظيمة التي لا مرتبة تعدلها ينبغي لصاحبها أن يتصف بأعظم الصفات الكاملة، وقد أشار رحمه الله إلى بعضها.

وأعود إلى مطلع هذه المنارة الإرشادية الثانية التي ابتدأت الحديث عنها:إنّ هذه المرتبة تستحق من طالبها أن يبذل للوصول إلى أدنى مراتبها أعلى وأغلى ما عنده، إنها مرتبةُ الوراثةُ لرسول الله، إنها حقاً أشرف المراتب

وأعلىٰ المقامات.

وإذا كان طالب اليوم، وعالم الغد، ومفتي المستقبل يملك التوقيع عن الله ملك الملوك وجبار الأرض والسموات، فما هو مدىٰ الرفعة التي رفعه الله إليها؟! وإلىٰ أيّ مدىٰ يتوجَّب عليه أن يصون هذا الشرف الرفيع، ويحافظ عليه بروحه ودمه!!.

إنّه حقاً يجب علىٰ طالب العلم أن يعرف شرف العلم الذي يطلبه، وشرف المكانة التي بوأه الله إياها.

وأيضاً: إنّ العلم عظيم وشريف، فمن أعطاه حقه من التعظيم والتّكريم، كرَّمه العلم ورفعه، ومن قصّر في حقه فإنه هو المُهان لا العلم، العلم يبقىٰ عظيماً بتعظيم الله له؛ لأن العلم الذي نحن بصدد الحديث عنه متمثل بكتاب الله وسنة رسوله، والله عز وجل أجلُّ من أن يترك كتابه وسنة رسوله عبثاً للمفسدين في الأرض.

الازدياد من تحصيل العلم والحرص على الفائدة:

٣ ـ المَعْلَم الإرشادي الثالث: هو نابع وتابع للذي قبله. فالذي قبله: أن يبذل طالب العلم أنفس ما لديه في تحصيل العلم، وإن من معالم هذا البذل ومؤشراته الداله علىٰ صدق هذا الطالب في طلبه: **هو أن يزداد يوماً بعد يوم حباً لتحصيل العلم، وحرصاً على الفائدة**، ومحاسبةً لنفسه دقيقة، علىٰ كل دقيقة زمنية تمرّ به ماذا استفاد فيها وحصّل:

أليس من الخسران أن ليالياً ... تمرّ بلا نفع وتحسب من عمري!

وللسّلف ـ بل لصبيان السّلف ـ عجائب. قال الإمام السخاوي ٢: ٣١٣ ـ من «فتح المغيث»: «ومن أبلغ ما يحكىٰ عن السلف في ذلك قول سلمة بن شبيب: كنا عند يزيد بن هارون، فازدحم الناس عليه، فوقع صبيّ تحت أَقدام الرِّجال، فقال يزيد: اتقوا الله وانظروا ما حال الصبي؟! فنظروا فإذا هو قد خرجت حدقتاه وهو يقول: يا أبا خالد زدنا، فقال يزيد: إنا لله وإنا إليه راجعون، قد نزل بهذا الغلام ما نزل وهو يطلب الزيادة؟!».

وحَضَر الشّريف التلمساني ـ وهو في أول طلبه العلم ـ درس أستاذه أبي زيد بن الإمام، وعَرَض الأستاذ للحديث عن الجنة ونعيمها فسأل التلميذ أُستاذه: هل يُقرأ في الجنة العلم؟ فأجابه الأستاذ أبو زيد بجواب عام: نعم، فيها ما تشتهيه الأنفس وتَلَذُّ الأعين. يعني: إن اشتهيت قراءة العلم حقَّق الله لك ذلك، وإلا فلا، فقال التلميذ: لو قلتَ: لا، لقلت لك: لا لذة فيها! فعجب الشّيخ منه، ودعا له.

ولم تمض سنوات قلائل إلا وبلغ هذا التلميذ من العلم مبلغاً، وبينما كان في حلقة شيخه أبي زيد نفسه إذْ بالشيخ يقرّر مسألة علىٰ خلاف ما هي، فنبّهه التّلميذ إلىٰ الصّواب فيها، فرجع الشيخ إلىٰ قول التلميذ ودعا له بخير وأنشده البيتين المشهورين مداعباً له:

أعلِّمه الرّماية كلَّ يوم ... فلما اشْتَدَّ ساعده رماني
وكم علَّمته نظم القوافي ... فلما قال قافية هجاني

وهاتان القصتان تؤكدان صحّة قول الإمام صاحب «الحكم»: «مَن لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة».

العمل بالعلم:

٤ ـ المنارة الرابعة: على طالب العلم خاصة، وعلى كل مسلم عامة أن يرسِّخ في قلبه ولبّه **أن العلم للعمل به،** لا للخُطَب والمحاضرات، والندوات والمؤتمرات، ولا للمحاورات والمناظرات، ولا للتأليف والتحقيق، إنما العلم للعمل، لينقذ الطالبُ نفسه أولاً من السير إلى الله على غير هدى ولا بصيرة، ثم لينقذَ مِن الأمة مَن يُرشده الله على يده، ليكون عالماً معلماً، هادياً مهدياً، داعياً إلى الله، على نور من الله، هذا هو العلم النافع، الذي علَّمنا رسول الله ﷺ أن نسأل الله تعالى إياه صبيحة كل يوم بعد صلاة الفجر: «اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً».

واستعاذ ﷺ من علم لا ينفع، أي: لا ينفع ولا يضر، ذلك أن العلم الذي لا ينفع هو في الحقيقة ضارّ، ينفق فيه الطالب من وقته وجهده وماله دون عائدة ولا فائدة، فهو في خسران، أما العلم الضار المحض: فذاك مستعاذ بالله منه من بابِ أولى.

إذن فالعلوم ثلاثة: علمٌ نافع، وعلمٌ ضار، وعلمٌ غير نافع وغير ضار، فالمسئول من الله تعالى هو العلم النافع، وهو الضالة المنشودة، وما سواه فمستعاذ بالله منه.

روى ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤٤٠٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان يدعو في سجود التلاوة ويقول: «اللهم لك سجد سوادي، وبك آمن فؤادي، اللهم ارزقني علماً ينفعني، وعملاً يرفعني».

والعلم النافع: هو الذي يحمل صاحبه على العمل بكل ما يعلم، ويبادر إلى ذلك، خشية أن يكون علمه حجة ووبالاً عليه، لا حجة له، وهذا هو واجبٌ خاص على خاصة المسلمين: العلماء وطلاب العلم، وواجب عام على كافة المسلمين إذا سمعوا شيئاً من هدي الإسلام بادروا إلى تطبيقه.

قال الإمام الذهبي في «السِّير» ١٤: ٦٣ في ترجمة أبي عثمان الحيري: كان إذا سمع سنَّة لم يستعملها وقف عندها حتى يعمل بها.

يشير بذلك إلى قصة حكاها الخطيب في «الجامع» ١: ١٤٥ فيها أن أبا جعفر أحمد بن حمدان النيسابوري كان عمل مستخرجاً على صحيح مسلم، وصار يجلس لقراءته على الناس في مسجده بين المغرب والعشاء، وكان ممن يحضر عليه قراءته صديقه أبو عثمان الحيري، وهو إمام أيضاً، وفي يومٍ صلى أبو جعفر ابن حمدان العشاء وصلى معه أبو عثمان الحيري بإزار ورداء، كهيئة المحرم بالحج أو العمرة ـ وكان ذاك منه في نيسابور ـ فقال ابن أبي جعفر ابن حمدان لأبيه: يا أبة أبو عثمان قد أحرم؟ فقال: لا، ولكنه هو ذا يسمع مني "المسند الصحيح" الذي خرَّجته على كتاب مسلم، فإذا سمع بسنَّة لم يكن استعملها ـ أي: لم يكن عمل بها ـ فيما مضى أحب أن يستعملها في يومه وليلته، وإنه سمع في جملة ما قرئ عليَّ أن النبي ﷺ صلى في إزار ورداء، فأحبَّ أن يستعمل تلك السنَّة قبل أن يصبح.

وأبو جعفر ابن حمدان هذا يحكي عن نفسه أنه كان مرة في مجلس الإمام الكبير أبي عبد الله محمد بن نصر المروزي، فحضرتْ صلاة الظهر، فقام الإمام محمد بن نصر وأذّن للصلاة، قال أبو جعفر: فخرجت من المسجد،

فقال ابن نصر: يا أبا جعفر إلىٰ أين؟ فقلت: أتطهَّر للصلاة، فقال: كان ظني بك غيرَ هذا! يدخل عليك وقت الصلاة وأنت علىٰ غير طهارة!! [الجامع ١: ١٤٣].

وجاء الإمامَ أحمدَ طالبُ علم ونزل ضيفاً عنده، فكان من كرم ضيافة الإمام رضي الله عنه له: أنْ جاءه بالمِطْهرة وفيها الماء، فوضعها قرب غرفة الضيف، وأعدَّها له حتىٰ إذا قام إلىٰ صلاة الليل وجد الماء حاضراً، فلما أصبح الإمام نظر إلىٰ الماء فإذا هو كما وضعه، فقال الإمام: سبحان الله! رجل يطلب العلم لا يكون له ورد من الليل!!. [الجامع ١: ١٤٣].

الأدب:

٥ ـ المنارة الخامسة لطالب العلم في مسيرته: **الأدب**. وكلمة الأدب بمعناها العام تشمل الإسلام كله، واجباتِه وكمالاتِه، ومن ذلك: الأدب مع الوالدين، ومع عباد الله أجمعين، ومع خاصة عباد الله: الصحابة والعلماء نَقَلة الشّريعة.

ويتصل بهذا اتصالاً كبيراً جداً، ووثيقاً جداً:

النّقد:

٦ ـ المنارة السادسة وهي: اليقظة في العلم والنباهة فيه، وربط جديدِهِ بقديمه، أقصد المعلومة الجديدة بالمعلومة القديمة، وأعبِّر عن هذا المعنىٰ بكلمة واحدة: **النقد**، فهما ركنان أساسيان متآخيان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر: الأدب في العلم والنقد، ومعنىٰ هذا: أن طالب العلم عليه أن يكون

متوقِّد الذهن حين قراءته فإذا مرّ به قول جديد عليه ربط بينه وبين ما عنده من معلومة أخرىٰ تتصل به، وحاكَمَ بين النقلين أو المعلومتين، فإذا رأىٰ ما يستدعي النظر والتوقف قام وبحث وراجع وقلَّب الكتب والمصادر هنا وهناك، ليصل إلىٰ نتيجة مطَمْئنة، فإن وصل إلىٰ توفيق وجمع بين الأقوال، فبها ونعمت، وهذا هو شأنُ العلماءِ المتمكِّنين، وإن لم يكن الطالب من أهل الدِّراية والترجيح رَجَعَ إلىٰ مَن يَثِقُ به في هذا الباب من أَساتذته ومُربّيه، مهما كان شأن المسألة صغيراً، وإن وجد من نفسه المُكْنة والأهلية: رجَّح وقوّىٰ وأتىٰ من نصوص العلماء بما يكفي ويشفي، والتزم الأدب مع من خالفه من العلماء الآخرين.

هذا هو واجب طالب العلم في مثل هذه المواقف: أدب وتحقيق ونقد، متكافئان لا يطغىٰ أحدهما علىٰ الآخر.

وفئتان أُخريان من طلبة العلم علىٰ غير هذا السَّنَن، فئة يطغىٰ عندها جانب الأدب مع من يقرأ كلامه الحاليّ الجديد، ولا يحاكمه إلىٰ معلوماته السّابقة، فلا يفلح ولا يصل إلىٰ علم صحيح سليم، وفئة يطغىٰ في نفوسها جانب النقد والتمحيص، فتقع في الشَّطط وسوء الأَدب مع الأئمةِ الآخرين.

و«كلا طرفَيْ قصدِ الأمور ذميم»

إنّ حِلْيَة طالب العلم: أن يكون يقظاً واعياً محاكماً للأُمور بعقلية العالِم اللمّاح، وبأَدبِ العالِمِ المتّزِن النزيه، فيكون قد أَدّىٰ للعلم حَقَّه، وللعلماء حَقّهم، أمّا إذا رَجَح فيه خُلُق الأدب زَلّ وما وصل إلىٰ حقائق العلم، وإذا

رَجَح فيه جانب النقد زلّ أَيضاً وحاد عن الحقِّ الواجب على كلِّ مسلم أن يَتَحَلَّى به مع أئمة العلم، وستأتي أمثلة ذلك قريباً.

التّثبت:

٧ ـ والمنارة الإرشادية السابعة هي: **أن يتحلَّى طالب العلم بالتثبُّت في أحواله العلمية كلها**: أن يكون متثبتاً فيما يقرأ، وفيما يحفظ، وفيما يفهم من النصوص والمصطلحات، وفيما ينقله من مسائل العلم مشافهة أو كتابة وتدويناً.

ومن ألفاظ المحدثين في أحكامهم على الرواة تعديلاً وثناء على الرجل منهم قولهم فيه: فلان ثَبْت، وعلماء العربية يقولون: الثَّبْت: هو المتثبّت في أموره. ومعنى ذلك: أنه إذا عَرَض لهذا الرجل وقفة في آية كريمة يحفظها، أو في كلمة يرويها أو حكم ينقله وقف ولم يرو ولم ينقل، بل رجع إلى مصادره، رجع إلى المصحف الشريف مثلاً، أو إلى ما يسميه المحدثون: الصحيفة التي كتبها عن شيخه فلان، وتثبَّت من هذه الكلمة كيف كتبها عن الشيخ، أو كيف هي في الكتاب الذي قرأه على الشيخ أو سمعه منه، ثم يرويها.

وتثبُّتُ طالب العلم فيما يقرأ: تأسيس لما يُبنى عليه من الحفظ والفهم، ثم التعليم والتلقين والتأليف والفتيا، وهذه أمور تدخل عند العلماء في باب يسمى عدمُ التثبت فيه: التحريف والتصحيف، ولهم حكايات هي نكت وطرائف مضحكة!، منها:

أنّ أصحاب السّنن الأربعة رووا أنّ النبي ﷺ نهى عن الحِلَق قبل الصلاة

يوم الجمعة. قال الإمام الخطابي في شرحه «معالم السنن» على «سنن أبي داود»: «كان بعض مشايخنا يرويه أنه نهى عن الحَلْق، بسكون اللام، وأخبرنا أنه بقي أربعين سنة لا يحلق رأسه قبل الصلاة يوم الجمعة! فقلت له: إنما هو الحِلَق، جمع الحَلْقة، فقال: قد فرَّجتَ عني، وجزّاني خيراً ـ أي: قال له: جزاك الله خيراً ـ، وكان من الصالحين رحمه الله». انتهى.

ومنها: ما حكاه الإمام أبو أحمد العسكري في كتابه: «تصحيفات المحدثين» ١: ١٤، وكتابه الاخر «شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف» ص٧ أن بعض مشايخ الرواية ـ لا الدراية ـ روى حديثاً قدسياً، جاء معه فيه: «عن رسول الله ﷺ، عن جبريل، عن الله، عن رجل، قال راوي القصة: فنظرت فقلت: من هذا الذي يصلح أن يكون شيخاً لله؟! فإذا هو صحَّفه، وإذا هو: عن الله عز وجل».

وخير وقاية من الوقوع في هذه التصحيفات المنكرات: تلقّي العلم عن الشيوخ المتقنين والمصاحبةُ لهم، ولهذا كانوا ينصحون مَن بعدهم ويقولون: «لا تحملوا العلم عن صَحَفي، ولا تأخذوا القرآن من مُصْحَفيّ». وقد صدّر العسكري كتابه «تصحيفات المحدثين» بهذا القول عن رجلين ـ كلٌّ بإسناده ـ وصدَّر قولهما بكلمة: «كان يقال».

وإذا تجاوز الطالب هذه المرحلة وصار متأهلاً للقراءة والبحث بنفسه: فمن أهم مظاهر التثبُّت في علمه ونقوله وكتاباته أن يلتزم أمرين:

أولهما: أن يأخذ الأحكام وكلَّ ما يحتاجه من مصادر أصلية قديمة، وكلما

رجع إلىٰ الوراء ـ زمناً ـ تقدم إلىٰ النبع الصافي علماً وتحقيقاً، إلا في حقّ عدد قليل من العلماء وكتبهم، فإنهم وإنْ تأخروا زمناً لكنهم يحكون الأئمة المتقدمين في علومهم وتحقيقهم، ولا بدّ لطالب العلم من الرجوع إلىٰ كتبهم فيما يعتمده من أقوال وفتاوىٰ.

ثانيها: أن يراجع مصادر العالِم الذي يقرأ له إن كان ناقلاً، حتىٰ لو كان هذا العالِم الذي يقرأ له ممن وصفتهم قبلُ: أنهم يحكون الأئمة المتقدمين في علومهم، وهذا تطبيق للمنارتين السابقتين: الخامسة والسادسة: الأدب: برجوعنا واعتمادنا لكتب أئمتنا، والنقد: بمراجعاتنا للكتب التي ينقلون عنها؛ للتثبت من النقول.

ونحصل بهذا الأمر علىٰ نتائج عديدة مفيدة: منها: البراهين العلمية علىٰ إمامة أئمتنا ودقتهم فيما ينقلون، وعمن ينقلون.

ومنها: تصفية ما قد يكون حصل لأحدهم من سهو في النقل، فإذا كان في كتاب الإمام الفلاني ألف نقل، وأقدمتُ علىٰ تحقيقه، والتزمت تخريج نقوله الألف، وتبيَّن لي أنه سها في اثنين أو ثلاثة، فأكون قد خدمت هذا العالِم وبرهنت برهاناً عملياً علىٰ إمامته، وعلىٰ دقته في نقوله وأحكامه، وأكون أيضاً قد خدمت العلم والدين خدمة علمية حقَّقتُ فيها الصواب في هاتين المسألتين أو الثلاثة، وأكون قد قدَّمت لطلاب العلم والقارئين المستفيدين منه كتاباً كلُّه نقول محققة سليمة، وهذه غاية تُقصد لذاتها.

ترك الأقوال الشّاذة النّادرة:

٨ ـ المنارة الإرشادية الثّامنة لطالب العلم: **أن يلتزم في عمله وفتواه ما عليه جماهير علماء المسلمين في أقوالهم ومذاهبهم**، ويترك الأقوال الشاذة أو النادرة ـ كما سماها بعض السلف ـ، يترك تلك الأقوال جانباً مهجورة، كما تركها علماؤنا وأئمتنا مهجورة. ولا أقصد بقولي: أن نأخذ بما عليه جماهير علمائنا: أي: أن نأخذ المسألة التي اتفق على القول بها جماهيرهم؛ لأنّ اتفاقَ جماهيرهم على قول واحد نادر جداً جداً، إنما أَقصد: أن الحكم الفلاني جاء فيه عن علمائنا السابقين قولان أو ثلاثة أو أربعة، ولأَفرِض أنّ كلَّ مذهبٍ من المذاهبِ الأربعةِ المشهورةِ قال قولاً في هذا الحكم، ومع كلِّ إمامٍ من الأئمةِ الأربعةِ أئمةٌ آخرون من السلف ممن قبلهم وممن بعدهم: موافقون له في قوله، وشَذَّ عن هذه الجمهرة الكبيرة من علمائنا واحد أو اثنان أو ثلاثة فقال قولاً خامساً مخالفاً للأقوال الأربعة، فإن واجب طالب العلم أن لا يخرج عن قول من الأقوال الأربعة إلى ذاك القول الخامس المخالف لجماهير العلماء.

هذا خطأ كبير يعيشه كثير من طلاب العلم في زماننا، بل إنه يحلو في نفوسهم، نتيجة الفوضى العلمية التي عاشوها، وقد قال الإمام الأوزاعي رحمه الله: «من أخذ بنوادر العلماء خرج من الإسلام»، وهذا كلام إمام مجتهد أدرك الصدر الأول من أئمة الإسلام، وكانت وفاته سنة ١٥٧هـ، وعرف ما فيه من أَقوالٍ بعيدةٍ شاذةٍ لا يجوز العمل بها، مع جلالةِ أَصحابها، وشيوخُه جلُّهم من التابعين كبارهم أو صغارهم.

وقال سليمان التيمي ـ وهو أسبق زمناً من الأوزاعي ـ: «لو أخذتَ برخصة كل عالم اجتمع فيك الشرُّ كلُّه»، وممن روى هذه الكلمة عنه الإمام حافظ المغرب ابن عبد البر وقال: «هذا إجماع لا أعلم فيه خلافاً».

وفي «طبقات الشافعية الكبرى» للتاج السبكي ٢: ١٢٥ حكاية بعض الأقوال الشاذة عن بعض الأجلّة، وعلَّق عليها من كلام أحد أئمة الحديث والفقه: أبي عليّ الكرابيسي، قال الكرابيسي: «فإن قال قائل: هؤلاء ـ أي أصحاب الأقوال الشاذة ـ من أهل العلم، قيل له: إنما يهدم الإسلام زلة عالم، ولا يهدمه زلة ألف جاهل، قد حكم بعض أهل العلم بما لا يحلّ له، ولا يجوز في الإسلام، فقد قضى شُريح بقضايا ليس عليها أحد من المسلمين، ولا له حجة من كتاب ولا سنة ولا أثر، ولا يثبت بجهة من الجهات».

ولو بحث باحث عن ترجمة القاضي شُريح لرأى أنه أقضى قضاة الإسلام لولا ما جاء عن النبي في سيدنا عليّ أنه أقضى الصحابة رضي الله عنهم جميعاً، ومع ذلك ترى ما يقوله الكرابيسي في بعض أقضية شريح، فلا يجوز لمن يتمسك بقول شاذ نادر ضعيف الخلاف أن يَتَجوَّه علينا بأنه قول فلان وهو إمام، وهو حجّة، وهو مجتهد، وهو وهو..، فنحن إذن نَتَجوَّه عليه أيضاً بأن الإمام فلاناً وفلاناً ـ ومئات من الأئمة ـ خالفوه، بل هجروا قوله وما قالوا به.

وإذا كان على طالب العلم أن يحذر الأخذ بخلاف الواحد أو الاثنين لجماهير علماء الإسلام، **فعليه أن يحذر أمراً آخر أشدَّ خطأً وخطراً منه، هو أن يجعل عالماً أو عالمين حَكَماً على جماهير علماء الإسلام**، فيجعل الأخذ بقول

هذا وذاك شعاراً له ودثاراً، وينبِذ وينبِز كل قول لغيره!!.

فالحَذَر الأول: أن يلجأ إلى قول عالم أو عالمين خالفا الجماهير، ليرقِّع دنياه أو دنيا غيره بدينه، أو ليترخَّص في نفسه أو في نفس غيره.

أما الحَذَر الثاني: فأن يُسّلِم قياده العلمي إلى واحد أو اثنين من علماء المسلمين، فكلُّ ما يصدر عنهما تبنَّاه ونافح عنه وكافح، ودفع عنه ودافع، وترك السواد الأعظم والآلاف المؤلفة من علماء الأمة! وهذا منهج لا يسوغ علماً ولا عقلاً.

سبع وصايا لطلاب العلم:

وأختم كلامي ـ وأعتذر عن طوله ـ بوصايا أسردها سرداً:

ـ **الوصية الأولى**: أن يُولي طالب العلم، أو وليُّه المرشد له، اهتماماً منه بالغاً بحفظ القرآن الكريم من أول نشأته العلمية.

ـ **الوصية الثانية**: أن يُولي اهتماماً بالغاً أيضاً بحفظ الأحاديث الشريفة.

ـ **الوصية الثالثة**: أن يُختار له اختياراً من قبل أحد خاصة أساتذته متنٌ في كل علم من مختصرات العلوم، متن في النحو، كالألفية مثلاً، ومتن آخر في فقه مذهبه، ومتن آخر في علم أصول مذهبه، ومتن في علم العقيدة، وهكذا.

وسبب تركيزي على الحفظ: أنّ القرآن الكريم والسنة الشريفة هما زاد طالب العلم في مستقبله، فإذا أراد أن يلقي خطبة جمعة، أو محاضرة، فسوف يبحث يميناً وشمالاً عن آية أو آيتين، وحديث أو حديثين ليستشهد بهما في

حديثه، وإذا فوجئ بمجلس في أمسية مع أهله وزملائه ليستدل على كلمة قالها هو أو غيره بآية أو حديث أُحرج ليقول: أو كما قال الله ـ وهذا حرام لا يجوز ـ أو كما قال رسول الله ﷺ، وهذا يجوز إن أصاب المعنى بدقة، وإلا فلا يجوز. فهذان المصدران الكريمان زاده في حياته العلمية.

أما حفظ الطالب لمتون العلمية فهذا زاده في حياته العلمية، ليستذكر بمحفوظاته الأحكام وضوابطها، وجرت عادة الإنسان أن تنضبط معه الأحكام إذا حفظ النصوص والمتون نثراً أو شعراً، فلو سئل أستاذ اللغة العربية عن مسوِّغات كسر همزة إنّ وفتحها وجواز الوجهين ـ مثلاً ـ لصعب عليه حصرها وتعدادها، إن لم يكن حفظ ذلك من ألفية ابن مالك مثلاً.

وهذا الكمّ الهائل جداً من مؤلفات أئمتنا للمتون العلمية في كل فنون العلم: لم يكن منهم عن عبث وملء فراغ، لا، معاذ الله، إنما هو وسيلة من وسائلهم في ترسيخ العلم لدى الناشئة، وإلى أن يصحبهم حتى القبر.

ـ **والوصية الرابعة:** أن يكثر طالب العلم من صحبة العلماء والقراءة عليهم، لعددٍ من الكتب المعتمدة في العلوم الأساسية، كاللغة العربية وفنونها، والفقه وأصوله، ثم يتخيَّر من كتب أيّ علم آخر يريد التخصص فيه.

ولكن مع هذه الوصية:

ـ **وصية خامسة** هي متمثلة بقول الإمام التابعي الكبير محمد بن سيرين رضي الله عنه: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.

إنّ الطالب ليس له خيار ولا اختيار لأستاذ المادة الفلانية في سنوات الدّراسة النّظامية، فهو ملزم بحضور المادة الدراسية على الأستاذ دون اختيار منه، ولو لم تكن الأرواح مؤتلفة، أما في دراسته الخاصة وتلقيه للعلم على أستاذ خاص: فهذا له فيه خيار اختيار، وعليه أن يلتزم بوصية الإمام ابن سيرين هذه.

ـ **الوصية السّادسة:** على طالب العلم مهما بلغ شأنه في العلم أن يراجع شيوخه السابقين في حل مشكلاته العلمية، ممن يثق بأهليته لذلك، ولا يتشبَّع بنفسه، ولا تتعذَّر أو تتعسَّر عليه نفسه أن يرجع إلى غيره.

ـ **الوصية السّابعة:** أقولها وفي نفسي خجل منها، وما يدفعني ويجرؤني على قولها إلا حبّ النصح لإخواني طلبة العلم، و«النصح أغلى ما يباع ويوهب»، هي: أن يحرص كلُّ طالب علم على أن يكون له شيخ أو أكثر يتربّى على أيديهم التربية المسجدية المشيخية الخاصة، فلقد خَبَرنا ووعينا أن التّربية الجامعية ما آتت ثمارها، ورأينا بأم أعيننا، وببصائر قلوبنا أن الطالب من خريجي الجامعات إن لم يكن له ارتباط علمي روحي وثيق بعالم عامل صالح فلن يكون منه ثمرة صالحة للأمة، ما هي إلا شهادة ووظيفة.

ولن تظفر الأمة بعالم متمكن صالح للفتوى وحلّ معضلاتها وشُبَهها، ثم إيصال الأمانة إلى الجيل الذي بعده، إلا إذا كان متصل السلسلة والسند بعلماء قبله، وهم عمن قبلهم، وهكذا وهكذا يستمر نقل الوراثة إليه من سيدنا رسول الله ﷺ.

نسأل الله الكريم أن يجعلنا منهم، ومن أعوانهم، ومن محبيهم، إنه وليّ كل خير.

تجربة في طلب العلم ونصائح للطّلبة

أ.د. عبد الملك السعدي

هذا ملخَّص ما أملاه فضيلة الشيخ في منزله صباح يوم الـخميس ١١ من شهر ذي الـحجَّة من سنة ١٤٢٨ هـ، الـموافق ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٧م :

*** شـروط لا بد منها في طالب العلم:**

الإمام النّووي يقول: «من الـمطلوب اعتقاد مَن علم وعمل ولازم الأدب وصحب الصالحين».

هذه الأمور الأربعة شروط يجب توافرها في طالب العلم حتى يكون مرشداً:

أولـها: العلم، وثانيها: العمل، فلا بدَّ من العلم والعمل معاً، والإمام الـجنيد يقول: «من تصوَّف ولم يتفقَّه فقد تزندق، ومن تفقَّه ولم يتصوَّف فقد تفسَّق، ومن جمع بينهمـا فقد تحقَّق»، ويُضـرَبُ مثلٌ على ذلك: أن رجلاً صوفياً قتل فأرة، ثم رقَّ لـها، فحملها وصار يصلي وهي معه، فبطلت صلاته. فهذا مثال من تصوَّف ولم يتفقَّه.

وثالثها: ملازمة الأدب، أي: يلازم أدب النبي ﷺ في أكله، وفي شربه، وفي نومه ...إلخ.

ورابعها: ملازمة الصالحين: فطالب العلم لا بدَّ أن يلازم أهل الصلاح، أما أن يلازم الملوك، أو الأمراء، أو التجار، أو ...، فهذا ليس بطالب علم، ولا بفقيه، وقد كان النبيُّ ﷺ يقول في دعائه: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين».

هذه الأربعة ينبغي أن تكون شعار طالب العلم.

*** إعادة القراءة وتكرارها:**

يقولون: «العلم يشرد كما تشرد الإبل»، فكيف يتدارك طالب العلم هذا؟

يتداركه إما بالتدريس، أو بالإعادة والتكرار.

وقد رآني شيخنا الشيخ عبد العزيز السامرائي أعيد قراءة الشروح وأكرر دراستها، فقال لي: أنا ألفتُ الطلبة يحفظون المتون، ويُعيدونها ويُكرِّرونها، أما قراءة الشروح وإعادتها وتكرارها فلم أرها عند غيرك. فقلت له: هذه الكتب فيها عبارات دقيقة صعبة، فينبغي إعادتها مراراً حتى تُفهَم وتُحفَظ.

وأذكر أنني حفظت «ألفية» ابن مالك في النحو، وكنتُ أعيدها كل يوم خميس، كنتُ أصلي العصر في مسجد قرب النهر، ثم أسير بجانب النهر وأكررها.

والتّدريس يُعَدُّ تكراراً أيضاً، والتدريس مراحل، فيمكن للطالب وهو ما يزال طالباً، إذا انتهىٰ من مرحلة من مراحل طلب العلم أن يُدرِّسها لـمَن هو دونه.

*** التّدرج في طلب العلم:**

ومن الـمهم لطالب العلم أن يتدرَّج في طلبه، فكتاب «جمع الـجوامع» مثلاً لا يُقرأ إلا بعد «الورقات»، ثم لـمَّا ألَّف الشيخ عبد الوهاب خلاف كتابه في «أصول الفقه»، جعلناه أيضاً قبل «جمع الجوامع»، لأنه يُعَدُّ مقدِّمة في أصول فقه الـحنفية، ويُعَدُّ «الورقات» مقدِّمة في أصول فقه الشافعية، ثم ينتقل الطالب لدراسة «جمع الـجوامع».

وكذلك علم الـمنطق، يدرس الطالب أولاً «السُّلَّم الـمنورق»، وقد شرحتُه، ثم يدرس شرح الفناري علىٰ إيساغوجي، ثم كانوا قديماً يدرسون «الشمسية»، لكنها موسَّعة، فجعلنا مكانها «التهذيب» للتفتازاني بحاشية الـخبيصي.

وفي نيَّتي أن ألـخِّص كتاب التفتازاني بما يناسب عصرنا في كتيِّب صغير أسمِّيه «تهذيب التهذيب».

وفي الفقه الشافعي، يـحفظ الطالب متن «الغاية» أولاً، ثم يدرس «عمدة السالك»، ثم «الـمنهاج».

وفي الفقه الـحنفي، يدرس «القدوري»، ثم «ملتقىٰ الأبحر»، ثم «الـهداية».

وفي الـحديث، يـحفظ الطالب «الأربعين النووية»، ثم مختارات من «رياض الصالـحين»، ثم يدرس «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم». ويدرس مع ذلك علم الـمصطلح أيضاً.

❊ الـحرص على العلم:

وعلىٰ طالب العلم أن يحرصَ علىٰ طلب العلم، وأضـربُ مثالاً يُوضِّح أهمية ذلك، وهو أن رجلاً يُعطىٰ في كل ساعة مبلغاً من الـمـال، هذا الـمبلغ إما أن يحفظه، وإما أن يُنفقه شيئاً فشيئاً، فإذا حفظه تحصَّل لديه مبلغ كبيـر منه، أما إذا أنفقه شيئاً فشيئاً فلا بدَّ أن ينتهي ولو كان كثيـراً. وكذلك العلم.

❊ العلم والعمل:

ومن الـمهم جداً لطالب العلم أن يعمل بعلمه، فلا يتهاون بالسنن، ومن الذي يعمل بالسنن إذا لم يعمل بـها طالب العلم؟! ومن ذلك الزي الشرعي، فإنه أمر مطلوب لطالب العلم.

صحيح أنّ الـجوهر هو الأساس لا الـمظهر، لكن إذا اجتمع الـجوهر والـمظهر فهذا أفضل، والإسلام جواهر ومظاهر، فالإيمـان مثلاً جوهر، والأخلاق جوهر، لكن العبادات ظواهر.

ومن أخطاء بعض الصوفية اهتمـامهم بالباطن دون الظاهر، وقد رأيتُ أحدهم بغيـر لـحية، فسألتُ أحد تلاميذه فقال: إن له لـحية في الباطن.

وبعضهم يقول: لنا الـحقيقة، ولكم الشـريعة. مع أن الـحقيقة والشـريعة متلازمتان.

مثال ذلك: البـرتقالة: يأكلها البدوي ويستفيد من الفيتامين الذي هو فيها من غير أن يعلم ذلك، ويأكلها الطبيب ويستفيد منها وهو عالم بفوائدها. كذلك الـمصلي إذا صلَّىٰ وهو يعرف حِكَم الصلاة، كان كالطبيب إذا أكل البـرتقالة وهو يعرف فوائدها. وكذلك الصائم إذا صام من غيـر أن يعرف حِكَم الصيام، وإذا صام وهو يعرف حِكَم الصيام. هذه هي الـحقيقة والشـريعة.

*** الطموح:**

ومن الـمهم لطالب العلم: الطموح، وقد قال ﷻ: {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُون} [المطففين: ٢٦]، فطالب العلم طموحٌ في الازدياد من العلم علىٰ الدوام، وإذا رأىٰ من يفوقه في العلم فإنه يغبطه، لا يحسده، أي: يطمح أن يكون مثله أو أحسن منه.

*** التواضع:**

ومن الـمهم لطالب العلم: التواضع، فالتكبـر مع طلب العلم لا يـجوز.

العلمُ حربٌ للفتىٰ الـمُتعالي كالسيل حربٌ للمكان العالي

والعلم يفرض علىٰ صاحبه التواضع، وإذا تربَّـىٰ طالـب العلـم تربيـة دينية صحيحة فإنّه لا ينسب إلىٰ نفسه شيئاً من العلم.

وقد سُئل الشيخ محمد النبهان ــ من علماء حلب ــ عن طالب علم يرىٰ في نفسه عجباً أثناء طلبه العلم، فقال له: إذا قرأتَ أو درستَ فاكتب أمام عينيك قوله ﷻ: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ} [المائدة: ٥٤].

*** التّعصب لشيخ أو مذهب:**

أنا أمقت شيئين: اللامذهبية، والتعصب للمذهب.

فأقول لـهؤلاء الذين يأخذون بالـحديث ويُناحون الأئمة الـمجتهدين: أن يُعرب الواحد منهم الـحديث، ثم يعمل به، ولن يستطيعوا.

وأضـربُ علىٰ ذلك مثالاً: نـهرٌ بيني وبين رجل، أنا أحضـرت الآلات والأدوات والعُمَّـال لسحب الـمـاء من النهر وإيصاله إلىٰ البساتين، وهو يحمل بالدلو دلواً دلواً، فكيف يستطيع أن يلحقني؟! ومن كان هذا حالُه عليه أن يأخذ مني لا أن يستقلّ بنفسه فيسحب من النهر مباشـرة.

أما التّعصب الـمذهبي، فنرىٰ أناساً يقولون: كل ما لم يقله الإمام أحـمد خطأ، أو كل ما ليس من مذهب أبي حنيفة خطأ، أو كل ما ليس في مذهب الشافعي خطأ، ... وهكذا.

ولا يُفهم هذا الكلام في التزام الـمذهب، فالتزام الـمذهب غيـر التّعصب، والتعصّب هو أن يقول: مذهبي كلّه صواب، ومذاهب الآخرين كلها خطأ، وربمـا توسَّع الأمر أكثر من ذلك إلىٰ التّفسيق أو التّبديع أو التّكفيـر.

أما مُقلِّدُ إمام من الأئمة أو مذهب من الـمذاهب فإنه يقول: قد يكون مذهب غيري هو الـخطأ، ولا يقول: مذهب غيري خطأ جزماً.

وقد يصل التعصبُ بصاحبه إلى القول بعصمة الإمام بلسان الـحال، وإن لم يقولوها صـراحة.

*** الورع:**

وعلى طالب العلم أن يُقلِّل من الـمباحات، ويترك الـمكروهات، ويجتنب الـمحرَّمات، لأن الـمكروه محرَّم في حق طالب العلم، كما قال الـجنيد رضي الله عنه: «حسنات الأبرار سيئات الـمُقرَّبين»، وهذا من باب خلاف الأولى، وكل ما حصل مع الأنبياء من هذا الباب.

إبليس قيل له: اسجد، وآدم قيل له: لا تأكل من هذه الشجرة، فقال إبليس: لا أسجد، وأكل آدم من الشجرة، فهذا خالف، وهذا خالف، وقد سمَّى الله تعالى الأول كفراً، والثاني معصيةً، وذلك لأن العبـرة بالإصرار، إبليس أصـرَّ فطرده الله من رحمته، أما آدم فاستغفر وتاب فقبله الله، وأنت أيـها العاصي إما أن تكون آدمياً أو إبليسياً.

*** الـمداومة على طلب العلم:**

الأصل في طالب لعلم مواصلة طلب العلم، وقد ينقطع عن طلب العلم لظروف طارئة، لكن ينبغي له أن يعود إليه في أقرب فرصة، ويحاول أن يتحمَّل الـمصاعب والشدائد في طلب العلم.

*** كثـرة الشّيوخ لطالب العلم أفضل أم قلتهم:**

كثـرة الشّيوخ تُشتِّت طالب العلم وتُضيعُ وقته، فلا يُكثرُ من الشيوخ إلا إذا كانوا في مكان واحد، وإذا وجد شيخاً موسوعةً في العلوم فهذا أفضل.

والسبب في كثرة شيوخ الـمتقدِّمين أنـهم كانوا يرحلون للجمع، سواء جمع الـحديث أو جمع اللغة.

*** الـموازنة بين طريق الـمشايخ وطريق الـجامعات:**

إذا كان هناك قضاء على التراث الشرعي فهو الشهادات، والأصل في الشّهادة أنّـها سلاح وليست علمـاً، العلم إنمـا يكون بمزاحمة الـمشايخ، كمـا في حديث جبـريل عليه السلام: «وأسند ركبتيه إلى ركبتيه».

ونحن لم نكن نؤمن بالـجامعات، حتى نصحني رجل فقال لي: سيأتي يوم لا يُسمح فيه لأبي حنيفة رضي الله عنه بالتدريس إلا بشهادة، فدخلتُ الكلية ... تقدَّمتُ لامتحان القبول فسألتني لـجنة الامتحان في «ألفية» ابن مالـك، وقد كنتُ درَّستُها قبل ذلـك (١٦) مرَّة، وفعلاً دخلتُ الكلية، واذكر أنه جاءنا أستاذ لـمـادة الصـرف، فكنتُ أُكثر عليه، حتى جعلني أقوم وأشـرح الـمـادة للطلاب مكانه.

ثم تخرَّجتُ من الكلية في بغداد، ثم فتحوا باب التسجيل في الـمـاجستيـر في جامعة بغداد، فتقدَّمتُ وقُبِلتُ، فدرسنا فصلين، ثم بدأتُ أكتبُ الرسالة، فكتبتُ رسالةً في (١٥٠٠) صفحة، وعند الـمناقشة اجتمع

كثير من المشايخ لحضورها، لأنه كان من الغريب أن يتقدَّم (شيخ) لنيل شهادة، فكان ذلك مضرب مثل.

ثم ذهبتُ إلى مصر للتسجيل في الدكتوراة في الأزهر الشريف، وكان شيخُ الأزهر الشيخ عبد الحليم محمود، وعندما رآني قال: إذا قُبِلَ عبد الملك في الأزهر ففي ذلك مفخرة للأزهر، لا له.

واعتُقِلتُ في بغداد سنة ١٩٧٩م، وعندما خرجت كان قد بقي لي عشرة أيام وأُفصَل من الأزهر، فتداركت الأمر بصعوبة كبيرة، وبقيت في الدكتوراة أربع سنوات.

*** طريقة التّدريس في المدارس الشّرعية في العراق:**

كان الطّلبة يدرسون في مدارس الدولة حتى الصف السادس، ثم نستقبلهم بعد الصف السادس، فيدرسون عندنا ست سنوات دراسة شرعية، يحفظون فيها المتون، ويدرسون الشروح، ويُسألون فيها، وكان التحضير إلزامياً.

كانت الدروس تبدأ من الصباح حتى الظهر، ثم من الظهر إلى العصر استراحة، وبعد العصر يدخل الطلبة مصلى كبيراً من أجل التحضير، وكان يُسمَع للطلبة فيه صوت كدويِّ النحل وهم يقرؤون ويحفظون، ويستمرّ ذلك حتى الساعة العاشرة ليلاً.

ولم تكن الدروس تتقيَّد بوقت، فربما يكون هناك درس مدته ربع ساعة، ودرس آخر مدته ساعة ونصف، بحسب موضوع الدرس ومادته.

وكانت الدروس تُعقد في قاعة كبيرة، يجلس كل مدرس في زاوية منها، أو في ركن منها، وحوله مجموعة من الطلبة، فإذا انتهوا من درسه قاموا إلىٰ أستاذ آخر لدراسة مادة أخرىٰ، ويبقىٰ الأستاذ جالساً في مكانه لتأتيه مجموعة أخرىٰ من الطلبة، وهكذا، فكان الطلبة هم الذين ينتقلون من أستاذ العقيدة، إلىٰ أستاذ التفسير، إلىٰ أستاذ الفقه، وهكذا.

وكان هناك مشرفون يُنظِّمون تنقُّلات الطلبة في الفترة الصباحية وفي الفترة المسائية.

وكنا نمتحن الطلبة امتحانات فصلية وامتحانات سنوية، وكنا نُصحِّح لجميع الطلبة، إلا طلبة السنة الأخيرة، فكانت امتحاناتُهم تُصحَّح في وزارة الأوقاف، لأن هذه الامتحانات كانت تؤهِّلهم لدخول الجامعة.

وكان مشايخنا يتبعون طريقة القراءة النصية في دروسهم، يقرأ الطالب من الكتاب، ويشرح الأستاذ خلال القراءة، أما أنا فطريقتي في التدريس أن أبدأ فأعطي فكرة عامة في الموضوع الذي سيقرأ فيه الطلبة، ثم يقرؤون المتن والشرح وأنا أسمع، فإذا استشكلوا شيئاً سألوا عنه، فأجمع بذلك بين المحاضرة والقراءة.

آداب المتعلم

أ.د. قحطان عبد الرحمن الدوري

في القران الكريم آياتٌ بيِّنات أوضحت فضل العلم والعلماء منها قوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩].

وقوله تعالى: {يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: ١١].

وقال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»(١)، وإذا لم تكن هناك رتبة فوق النبوة، فلا رتبة تعلو وارث النّبوة؛ لذلك قال سفيان بن عيينة رضي الله عنه: «أرفع الناس عند الله منزلة مَن كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء».

ومن هنا وجب على مَن يطلب العلم ما يأتي:

١. أن يُراقب الله تعالى في سِرِّه وعلانيتِه، وأن يُحسنَ نيّتَه في طلبِ العلم «فإنّما الأعمال بالنيّات»(٢)، كما في الحديث الصَّحيح.

---

(١) في صحيح ابن حبان ١: ٢٨٩، وسنن الترمذي ٥: ٤٨، وسنن أبي داود ٣: ٣١٧، وغيرها.

(٢) في صحيح البخاري ١: ٣. وصحيح مسلم ٣: ١٥١٥، وغيرهما.

وأن يقصدَ به وجه الله تعالىٰ وإحياءَ شرعه الحنيف.

وأن يتحرَّىٰ الحلال في طعامه وشرابه وشأنه كلِّه.

٢.أن يُحافظ علىٰ شعائر الإسلام من الصّلاة في المساجد والصِّيام وسائر العبادات ويُقيم السنن ويُبطل البدع ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر بالأسلوب الحسن، ويجتنب الزَّلات فإن زلّة العالِم بَلْقاء مشهورة.

٣.أن يكون القدوةَ الصالحة، والمثَل الحيّ للنَّاس في الامتثال؛ لما ورد في القرآن والسنّة بتخلُّقِه بمكارم الأخلاق، وكفِّ الأذىٰ، والرفق بالفقراء، والبرّ بالنّاس، والأخذ بأحسن الأعمال ظاهراً وباطناً.

٤.أن يطهرَ قلبَه من الغشِّ والدنسِ والغلِّ والحسدِ، وكل منكر؛ لأنّ الرَّسول ﷺ، قال: «إن في الجسد مضغة إذا صَلُحت صَلُح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[1].

٥.أن يتطهرَ من الحدث ويتنظَّف ويتطيَّب، ويلبس أحسن ثيابه في مجلس الدَّرس إجلالاً للعلم وأهله.

٦.أن يتصف بالوقار والسَّكينة والتَّواضع ما وسعه إلىٰ ذلك سبيلاً، ويتجَّنب المزاح في الدَّرس.

٧.أن يبادرَ وهو شاب إلىٰ تحصيل العلم ويقسم أوقاته، ويغتنم وقت نشاطه، فإن العمر ساعة تمرّ، قيل: العلم لا يعطيك بعضه حتىٰ تعطيه كلَّك.

---

(١) في صحيح البخاري١: ٢٨، وصحيح مسلم٣: ١٢١٩، وغيرها.

٨.أن يحرصَ على الجدّ والاجتهاد وكثرة المطالعة بهمة عالية، وعدم تضييع الأوقات في غير طلب العلم إلا لضرورة بالغة من تحصيل الرِّزق وراحةِ الجسم ونحوهما.

٩.أن تكون الحكمة ضالّتَه قال رسول ﷺ: «الحكمةُ ضالّة المؤمن أنّى وجدها التقطها»(١).

وقال سعيد بن جبير رضي الله عنه: «لا يزال الرجلُ عالماً ما تعلَّم العلم، فإذا ترك العلم وظنَّ أنّه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون».

١٠.أن يصون العلم كما صانه علماؤنا الأوائل، فلا يجعله طريقاً ليصل به إلى الجاه والمال والشُّهرة والتَّباهي.

١١.أن يتحرَّى رضا أُستاذه ويَتقرَّب إلى الله تعالى بتواضعه له، وأن لا ينسى فضله عليه، وأن يتأوّل أفعاله أحسن تأويل إن بدت له على غير الصَّواب، وأن يُحسن خطابه معه ما وسعه إلا ذلك سبيلاً، وأن يحذرَ من مفاجأته بالردِّ عليه وإحراجه.

١٢. أن لا يستحي من سؤالٍ عن مشكلٍ أو عن أمرٍ لم يفهمه، لكن لا يُلح بالسُّؤال على الاستاذ.

---

(١) في سنن الترمذي٥: ٥١، وسنن ابن ماجة٢: ١٣٩٥ بلفظ: (الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقّ بها).

١٣. أن يبدأ بالقرآن الكريم وتفسيره ثمّ الحديث النبوي الشريف ثمّ يحفظ من كلِّ فنٍّ مختصراً، وأن يعتني بالحفظ، فيصحِّح أوّلاً ما يريد أن يحفظَه؛ لئلا يقع في تصحيف أو تحريف.

وأن يذاكر ما قرأه على الأستاذ مع أقرانه فإن لم يجد ذاكر مع نفسه.

١٤. أن يعتني بالكتاب ويُحافظ على ما استعارَ من كتبٍ فلا يَكتب عليها ولا يُتلفَها.

١٥. أن يلتزمَ الأدب الجمَّ مع الحاضرين في مجلسِ الدَّرس، وأن يجتنب كلَّ عملٍ مكروهٍ فيه.

١٦. أن يوقِّر أستاذَه ويحترمَه ويُكرمه بحسنِ السَّلامِ وطلاقةِ الوحه، وأن يترضى على العلماء، وأن لا يرفع صوتَه في مجلسهم.

١٧. أن يزجرَ من يسيء الأدبَ في مجلس الدرس.

١٨. أن يحسنَ اختيار الصَّديق الصَّالح، «فإنَّ المرء على دين أَخيه فلينظر أحدُكم مَن يُخالل»[1]، كما ورد في الحديث الشَّريف، وأن يحترمَ زملاءه في الدرس ويُساعدهم، ويعود مريضَهم.

١٩. أن يتجنبَ ما يُعاب من العاداتِ والألفاظِ التي لا تليق، فإن ذلك يُّقلل الهيبة ويسقط الحشمة.

---

(١) في مسند أحمد١٤: ١٤١، والمستدرك٤: ١٨٨، بلفظ: (المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل).

٢٠. أن يحرصَ على تحضير المادة العلميّة قبل حلول الدرس ليفهم ما يقول الأستاذ، ويستفسر عمّا احتاج إلى فهمه.

٢١. أن يحذرَ من الاشتغال بما لا يعنيه.

والحمد لله رب العالمين

إليك يا طالب العلم

للدكتور أكرم عبد الوهاب الموصلي

إنّ مما ينبغي على طالب العلم الاهتمام به جملة أمور هي له بداية الهداية في طريقه، منها:

١. التّحلي بزينة الإخلاص حين الإقدام على الطّلب؛ لقوله ﷻ: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة: ٥]، والرياء مفسد للطلب وقد قال ﷻ في الحديث القدسي: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه).

ولأجل هذا: قدم المصنفون في الكتب الحديث الشّريف: (إنّما الأعمال بالنّيات).

٢. وليمسك طالب بزمام الصبر في طلبه هذا؛ لأن الطريق طويل وبدون الصبر لا يصل، وكم قد نقل لنا من الأخبار عن تضحية طلاب العلم وصبرهم في أسفارهم، وقعودهم على أبواب المشايخ، وتحملهم المشاق رغبة نيل ما عندهم من الخير... إذ العلم فذلكة الوصول إلى الحق ﷻ.

٣. وليقدم في أوائل الطلب من العلوم ما تمسّ إليه الحاجة، من تصحيح العقيدة، وليهتمّ جداً بعلم الفقه ومسائله؛ لأنه ينفعه في ليله ونهاره وحطّه وترحاله... وقد شاع عند طلبة العلم بيتان للعلامة العمريطي الملقب بشرف الدين قوله:

والعمر عن تحصيل كل علم يقصر فابدأ منه بالأهم
فذلك الفقه فإنّ منه ما لا غنى في كلّ حال عنه

٤. وليقطع طالب العلم في سيره القواطع، وليمنع الموانع، فإن ذلك من أعظم آفات الطلب، وإذا أمكنه التفرغ للعلم تفرّغ له... وقد قالوا: «أعط العلم كلَّك يعطك بعضه»، وتحصيل العلوم والنبوغ فيه لا يتحقق إلا بذلك، وقد ورد عن الإمام الشافعي في أهمية التفرغ للعلم قوله: «لو كلفت ببصلة ما حفظت مسألة».

٥. وليقدّم شيخه دائماً، وليكرم موضع حرمته، فإنه لا ينتفع من شيخ إلا بتعظيمه، وقد ورد من تعظيم الطلاب شيوخهم قصص تدفع الهمم من ذلك ما يقول الشافعي رضي الله عنه: «كنت أصفح الورقة بين يدي مالك بن أنس صفحاً رقيقاً هيبة؛ لئلا يسمع وقعها»، وغيرها هذا كثير، ويكفي في ذلك حال سيدنا موسى عليه السلام مع سيدنا الخضر...

وأيضاً ليعلم طالب العلم أنه لا يتحقق له ذلك إلا بشيخ عالم عارف، وهو معنى قوله ﷺ: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم»، وهذا هو ديدن الصّحابة منه ﷺ، وديدن التابعين من أشياخهم علماء الصحابة رضي الله عنهم.. والأمر هكذا إلى عصرنا هذا.. وقد قيل:

من يأخذ العلم عن شيخه يكن عن الزيغ والتضليل في
ومن يكن آخذاً للعلم عن كتب فعلمه عند أهل العلم كالعدم

٦.وليبالغ في احترام كتب الشريعة التي يكون بسببها نفعه ورقيّه، وليعظم أمرها وقد قال ﷻ: {ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢].

٧.وإذا أراد الدّرس قرأه أولاً قبل حضوره بين يدي شيخه، ثم اعتنى بفهمه لدى الشّيخ، ثم يراجعه ثانية ليقف على ما لم يتمّ فهمه ليسأل عنه بعد، والمراجعة الأولى والأخيرة هي جناحا الطائر لا يطير إلا بهما.

٨.وليكن مع الطالب كرّاس يسجل فيه ألحوظاته، ولا يملأ بياض الكتاب، وطرّته بسواد الأقلام إلا إذا اقتضى الأمر التصويب والإشارة، ولا يختر الطالب كتاباً للقراءة أو الدرس إلا بتوجيه من الشيخ؛ ليكون الطالب كالمريض لدى الطبيب... وليحذر الطالب من العجلة في الطلب، فإنّ قليلاً من العلم قرَّ خير من كثير فرّ.

وإذا أمكنه حفظ بعض المتون بتوجيه الشيخ فَعَل، وقد كانوا من قبل يقولون للطالب الذكيّ إذا بدأ بالعلم «قَوِّ متنكَ بالمتون».

٩.ولا بأس أن يختلف طالب العلم إلى شيوخ عدّة، يأخذ من كل واحد ما هو مبرّزٌ فيه، ولكن بعد الاستشارة وبما يطيقه الطالب، ويمكنه استيعابه وفهمه.

١٠ .وليكرر الطالب ما يقرؤه من الدروس، وبخاصة أول الطلب، وقد قالوا: «القراءة حرف، والتكرار ألف».

١١ .وليكن صفة طالب العلم التواضع واللين، واعتقاد الجهل لينتفع، مع احترام الدّرس وخدمتهم قدر الإمكان، وبهذا يرتفع ويرتقي، وأن تفضل الله عليه بفتح العلم دونهم فلا يتعالى عليهم، وليعلم أن فوق كل ذي علم عليم.

مراعاة ما يستطيعه طالب العلم

للدكتور عبد القادر العاني

أفضل ما يفيد طالب العلم هو:

١. صلاة التّهجد قبل صلاة الفجر فإنها تصفي الذهن، وتطهر القلب، وتزكي النفس، وتشعر الإنسان بأنوار العبودية.

٢. اعتياد المناجاة لله تعالى مع الدمعة والخشوع.

٣. ذكر الله تعالى كثير، وأقل الكثير منه من كل ورد، ألا بذكر الله ﷻ تطمئن القلوب.

٤. ملاحظة تزكية النفس وتخليصها من الحسد وأمراض القلب كلها، والشهوة لا يمكن اجتثاثها، ولكن يمكن توجيهها إلى الطاعة من الزواج وطلب العلم.

٥. لقمة الحلال لطالب العلم.

٦. مَن قرأ خمساً قبل أخذ الدرس وخمساً بعد أخذ الدرس يقل نسيانه.

٧. استعمال منشطات الذكاء كأكل (٢١) زبيبة بعد الفجر، وشمّ ماء الورد الأصلي في الصباح والظهر والليل، وهي مفيدة لتنشيط الذكاء.

٨. التزام الخلق الحسن، تاج العلم وسنامه تعلماً وتعليماً.

٩. محبّة الشيخ شرط للفهم عنه، وبذلك تلتئم الأسرة العلمية، قالوا: العلم رحم بين أهله.

١٠. الرحلة في طلب العلم، وقد كنا نشدّ الرحال في زيارة العلماء والصالحين رجاء بركتهم ودعائهم كالشيخ أمجد الزهاوي والشيخ أحمد الراوي والشيخ مصطفى النقشبندي.

١١. العلم بين اثنين لفهم العبارة وإدارة الفكر نحو فهم المعلومات بصورةٍ أدق خشية أن يسري إلى ذهن الإنسان الوهم والشك ويسحبه علمه.

١٢. السؤال عن الصغيرة والكبيرة؛ لأن شفاء الجهل السؤال ومفتاح العلم السؤال.

١٣. العلم أوله صمت وثانيه استماع وثالثه تفكر حتى يطمئن إلى صحة ما عنده ورابعه النشر، فعلى طالب العلم أن لا يتصدر للإفتاء ونقد العلماء وترجيح ما يراه؛ لأنه ليس من أهل الرأي، ولا من أهل الفهم، فالمراد أن يفهم حتى يعلم.

١٤. من قال: هذا رأيي، بان أنه اجتهاد، والاجتهاد ما دام في دائرة الاجتهاد فغير ملزم لأحد، وليس حجة على مجتهد، ومن هنا قالوا: الاجتهاد لم ينقض بمثله.

١٥. النفس لا تزكى إلا بصحبة الصالحين، وإذا لم يكن العلماء هم الأولياء فمن هم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

نصائح لطالب العلم الشّرعي

للدكتور معاذ حوى

الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسّلام على رسـول الله وآلـه وصـحبه وأحبابه.

الأخ الكريم طالب العلم الشّرعي، الأخت الكريمة طالبة العلم الشّرعي:

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

ـ إنّ العلم الذي تطلبه علمان:

علم تحتاجه في حياتك لتعبد الله تعالى وفق أمره، وهذا علم ليس بالكثير، ولعلّ أكثره مما هو حاصل عندك.

وعلم تتعلمه لتنفع به غيرَك، فتؤجر، وهذا بحر لا ساحل له، مَثل طالب العلم الشرعي فيه كمثل طالب علم الطب، فإن طالب علوم الطب إذا قصَّر حين تحصيله ودراسته في فهم بعض الجوانب، وإذا أهمل في دراسة بعض مسائل اختصاصه وتركها؛ فإنه ربما جاءه مريض يلزمه أن يعالج وفق تلك المسائل المهْمَلَة، فإما أن يعالجه خطأً، وإما أن يجتهد في غير طريق

الشّفاء، وإما أن يظنه أمراً آخر فيكلفه مالاً ورَهَقاً ثم لا يكون شفاء، وإما أن يقتله بعلاجه بما يضادّ شفاءه.

وكذلك طالب العلم الشرعي، فإهماله لكثير من العلم الذي يستطيع جمعَه وتحصيلَه، إما أن يكون سبباً في فتوىٰ باطلة غير مضرة، وإما أن يكون في فتوىٰ باطلة قاتلة، وربما زَلَّ بفتواه أفراد، وربما زلّ بها مجتمعات، نعوذ بالله من الضّلال والإضلال.

وربما كان يشعر بنقص هذا الجانب عنده فيعترف بضعفه ويحيل الفتوىٰ إلىٰ أهلها، وربما كان جاهلاً وهو لا يعرف جهله، فيتعرض للفتنة مشمّراً، وهو يظن أنه بفتواه يكون محسناً.

والأمان من ذلك كلِّه أمران: أولهما: حسن الطلب للعلم، والاجتهاد فيه غاية الاجتهاد، وعدم الإهمال والتقصير، وتدارك النسيان بالمطالعة والمراجعة ومذاكرة أهل العلم. والثاني ـ وهو الأهم: أن يكون العبد في محل التّقوىٰ والإحسان ليكون أهلاً للتعليم والتوفيق.

ذلك أن الله تعالىٰ وعد أهل الإحسان بالجزاء لهم بالعلم والحُكْم في قوله ﷻ: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [القصص: ١٤]، فمَن لا يطلب الصّلاح والتّقوىٰ لا يكون طالب علم ولا عالماً: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨]، لذلك وصف الله القائمين الليل الخائفين من الله الراغبين في رحمته؛ وصفهم بأنّهم العلماء في قوله سبحانه: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو

رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ}: أي الذين وصفهم في أول الآية {وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ} [الزمر: ٩].

فطريق العلم والإمامة والسيادة هو التقوى ابتداءاً، واتخاذ أسباب طلب العلم ثانياً، {وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨].

وهذا طريقه واضح سهل، لكنّه يحتاج إلى ثبات، لقول النبي ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله تعالى ما داوم عليه صاحبه وإن قَلَّ » رواه البخاري ومسلم، يداوم الواحد منا على فرائضه وواجباته، يجتهد في نوافله، يحافظ على قراءة جزء من القرآن، يحافظ على صلاة الضحى كل يوم، يحافظ على مئة من الاستغفار، ومئة من الصلاة على النبي ﷺ، ومئة من التهليل بكلمة التّوحيد: لا إله إلا الله، بعد كل فجر وبعد كل غروب من كل يوم.

الذي يداوم على عمل صالح، والذي يصبر على ترك معصية، والذي يجاهد هواه وشهواته، حتى يلقى الله، فذلك الذي أثبت أنه لو عاش ما عاش؛ فإنه باقٍ على العهد، حافظٌ للود، فدوامه هو صبره الذي يؤجر عليه بغير حساب؛ لأنه يُكتب له كأنه دام عليه إلى ما لا نهاية، لذلك كان جزاؤه لا نهاية له، {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [الزمر: ١٠].

فالذي لا يصبر يعطى أجر عمله فحسب، والذي يصبر يعطى أجر عمله وأجر صبره: {يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} [القصص: ٥٤]، وأجر صبرهم أكبر من أجر عملهم، كما أشارت الآية السابقة، لأنه عملهم محدود وأجر الصّبر غير محدود.

وبهذا يتبين لنا أن محور الحياة دائر على العلم والعمل الصالح والصبر، وهذا ما جمعته سورة العصر: {وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر:٣]، فالمؤمن المسلم يحتاج إلى العمل الصالح، وإلى التواصي بالحق وهو العلم، وإلى الصّبر، فإذا حَصَّل هذه الأمور فقد تَجَنَّبَ الخسران.

ـ ولما كان العلم بحراً واسعاً؛ كان محلاً للخلافات والمتناقضات أحياناً، وكلما ازداد علم المرء زادت محلات شكوكه في علمه، وزاد اضطرابه في كثير من المسائل، لا لكونه قلّ علمه، بل لأنه كان يجهل شيئاً كثيراً مع ظنه أنه يعلم كل شيء، فقلّ الخلاف في دائرة عقله، وكلما اتسع علمه وطلبه وتحصيله كلما برزت له مسائل يتردد فيها، بل يتردد في أصولها ويجد عذراً لكل مجتهد فيها.

ومثل العلم في ذلك كمثل البحر تضطرب أمواجه، لكنها صغيرة، فإذا اتسع البحر فصار محيطاً فإن أمواجه تكون عظيمة هائجة مضطرمة.

ولا نجاة عند اضطراب الموج إلا باللجوء إلا الله ﷻ: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} [النمل: ٦٢]، {حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [يونس: ٢٢]، وكذلك إذا سمعت الاجتهادات في المسألة الواحدة فلا تكتفِ باختيار بعضها واتخاذ أسباب العقل والدراسة التي تستطيع تحصيلها، بل ٱلْجَأْ إلى الله تعالى العليم الخبير الذي {وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ

عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء} [البقرة: ٢٥٥]، فاطلب الهداية منه إلى الحقّ والصواب من العلم والفهم، فقد وعد بالهداية من يسأله إياها، كما جاء في الحديث الصّحيح القدسي: (فاستهدوني أهدكم).

ـ ولا تنسَ أن من العمل الصالح تعليمَ العلم النافع، والنصيحةَ للمسلمين، فعلّم الناس الخير ما استطعت، لكن لا تدخل فيما لا تعلم، أو فيما أنت فيه على شك، ولا تفرض ما هو محلّ اجتهاد واختلاف بإلزام الناس به، وترفَّقْ بمن تعلِّم كرفق الأم بأبنائها، ولا تشتغل بالعلم على حساب طاعتِك وأذكارِك وإصلاح نفسِك، ولا تشتغل بالتعليم إذا داخلك الغرور في نفسك، فإنّ من علّم الناس على حساب نفسه كان كمن قال فيه النبي ﷺ: (مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل الشمعة، تضيء للناس وتحرق نفسها)(١)، وقال الله جل جلاله: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ} [البقرة: ٤٤].

وبعد، فهذا نصيب العقل من نصيحتي لك، أما نصيب القلب والروح فاستمع:

إنّ النّفس الطّموحة لا تكلُّ عن طلب ما فيه خيرها، وكلُّ خيرنا ما كان خيراً لنا في آخرتنا، فلننظر بعض مطامح الصّالحين أين نحن منها:

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج ٢، ص ١٦٧، رقم ١٦٨٥، وهو حديث حسن صححه بعض العلماء وضعفه بعضهم، وانظر: مجمع الزوائد ج ١، ص ١٨٤، وكشف الخفاء رقم ٢٧٦١.

أين أنت من صفات أحباب الله المؤمنين {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُون. تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون} [السجدة: ١٥ - ١٦]، كان أحد الصّالحين كلما استيقظ من الليل قام فتوضأ وصلىٰ ركعتين أو أكثر، وكلما استيقظ فعل ذلك، حتىٰ لقد يقوم في الليل نحو سبع مرات، كلما قام توضأ وصلىٰ ما شاء الله، هذا نموذج من التجافي عن المضاجع، أولئك الذين طمعوا في رحمة الله، وخافوا عقاب الله، قال الله ﷻ: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩]، هؤلاء هم العلماء، لا تَغُرَّنَّك العمائمُ والجبب، ولا حفظ الأقوال، ولا فصاحة اللسان، لا تنفعنا إلا الخشية، وما علامة الخشية إلا قلب يحن إلىٰ مولاه، في هَدْأة الليل، {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً} [المزمل: ٦]، يتململ بين يديه ويعتذر، أو يستكين ويتضرع، أو يبكي ويَنْتَحِب، أو يسأل ويفتقر . . أولئك العلماء، أولئك الأتقياء، أولئك الأنقياء.

يقول الله ﷻ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا} [الأنفال: ٢]، كم حَظُّك أيها المسكين من هذه الآية ؟ هل ذكرت الله يوماً فارتجف قلبك وخاف ؟ وبكت عينك أو سالت دمعتك ؟ ورقّت روحك أو شَفَّتْ ؟ هل قرأت من كتاب الله آياتٍ؛ فشعرتِ أن معرفتك بالله زادت ؟ أو تيقنت أنك بين يدي الله؛ تحت سلطانه وقهره أو تحت رحمته ؟ أو تحركتْ هِمَّتُكِ وجارِحَتُكِ إلىٰ العمل بما حَكَمَتْ به آياته؟

يقول الله سبحانه: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: ٢٣]، هل قرأت القرآن فاهتز قلبك، واقشعر بدنك، أو رق قلبك، وذاب حسك ؟

أين أنت يا مسكين؟ هذه أوصاف المؤمنين، فضلاً عن المحسنين !

{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ} [النحل: ٣٠]، هل رأيتِ مقاديرَ الله كلَّها سواءاً، كلَّها خيراً، أم تتنغص من عاديات الدّهر: من وَعْكَةٍ نَزَلَتْ، أو مقالة بَهَتَتْ، أو جيب فَرَغَتْ، أو علامةٍ انحطت؟

لقد قيل: الرضا بمكروهات القضاء أدنى درجات اليقين.

هل عرفت من أحوال المحبين شيئاً، يحبون ما يصنع بهم مولاهم، ولا يرون منه إلا خيراً، يتلذذون بأقداره مهما تلونت، فإنّ فعل المحبوب محبوب، وضرب الحبيب زبيب.

أين تَطَلُّعُك إلى مقامات تشرئب إليها أعناق الصديقين « لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم » رواه الإمام مسلم، ليس الذكر والعمل الصالح والاجتهاد والإقبال مقبولاً إذا قصد منه العبد أن يرى الملائكة، لكن ذكر النبي العظيم ﷺ له في الحديث إنما هو علامةٌ على بلوغ المقام والرتبة، وإنما المطلوب أن يتطلع أحدنا إلى هذا المقام؛ بأن يرغب في دوام الذكر، ويجتهد في ذلك، ولا

يَزال يذكر، ولا يَغفل عن الذكر؛ حتى يصير حاله من قوله ﷻ: {وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} الكهف: ٢٤.

متى تزول الغشاوة عن عينيك فتبصر النور {وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} النور: ٤٠، {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء} [النور: ٣٥]، {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: ٢٢]، متى تصير عيناً من عيون الرحمن؟ يهابُك الناس ويتقونَك: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)(١)، يتقونك؛ لما أمدَّك اللهُ به من نور وعرفان، تستحق معه وصف الربانية: {وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران: ٧٩].

أتعجب أن يمن الله على خواصّ عباده بالفراسة، وقد صاروا بالله خبراء ؟ {الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} [الفرقان: ٥٩]، فما العجب، أيلتقط الحديد والمعدن والزّجاج(٢) صوراً من وراء حجاب وينقلها، ولا يلتقط القلب الأنور مثل ذلك وأعظم منه ؟ ورسول الله ﷺ يصف القلبَ الأجردَ قلبَ المؤمن بأنّ (فيه مثل السّراج يزهر)(٣).

إلى متى تنتظرون؟ أتغرقون في مغاصات الدراسات ؟ أم تنتظرون هموم الأزواج والأولاد ؟ أم تنتظرون أياماً تزيد معها العلاقات ؟ أم

---

(١) حديث صحيح رواه الإمام الترمذي وغيره.

(٢) أي التلفاز والكمبيوتر والهاتف ونحوها.

(٣) جزء من حديث حسن رواه الإمام أحمد وغيره.

تنتظرون صحبة إلى الدنيا طامحين؟ أم تنتظرون قضاء الحاجات والمشتهيات؟ وهيهات ؟

قُضِيَتِ الأيامُ، وجاءتِ السكراتِ . .

فماذا عَمِلْت من جَمالات ؟

وكم جمعت من علامات ؟

وأين اسْتَقَرَّتِ المقامات ؟

وماذا كان لك في القبر من رفيقات ؟

نصائح مجملة لطلاب العلم:

ـ أن يخلصوا لله في طلب العلم.

ـ أن يعتمدوا على الله ويتوكلوا عليه في توفيقهم لتحصيل العلم وفهمه وإدراك الحق منه.

ـ أن يصبروا على طلب العلم، ولا يقصروا في طلبه، فيكون تقصيرهم سبباً في أن يفتوا بغير علم.

ـ أن يكونوا على حظ عظيم من العبادة والذكر والأخلاق، ليكونوا محل توفيق الله.

ـ أن يكونوا على ارتباط دائم بالقرآن الكريم، تلاوة وفهماً ودراسة وحفظاً وعملاً، فمن حفظ كتاب الله سَهُل عليه العلم كثيراً.

ـ أن يحذروا من معصية الله، فإن معصية العالِمِ أشد سوءً وأعظم بشاعة، والحجة قائمة عليه.

ـ أن يحرصوا على صحبة العلماء، والصبر على مجالستهم، وعدم تفويت هذه الفرصة في مرحلة التحصيل وطلب العلم.

ـ أن يجتهدوا بالأنفع من العلوم قبل النافع، وأن ينصرفوا عن تعلم ما لا ينفع.

ـ أن يجعلوا اهتمامهم بمعرفة الصحيح من السنة، ويتجنبوا بناء علومهم على الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وأن يتجنبوا روايتها والوعظ بها.

ـ أن يحترموا علماء الأمة المشهود لهم بالعلم والاجتهاد والتقوى، ويحترموا اجتهاداتهم، ويعذروهم فيما أخطؤوا فيه.

ـ لا تكن سبباً في سبّ شيوخك وشتمهم، بإساءة أدبك أو النقل عنهم لما لا ينبغي أن ينقل، فهم يتكلمون الشيء في موضعه بحكمة، فلا تتكلمه في غير موضعه، ثم تنسبه لشيخك، فيذم الناس شيخك؛ لأنهم سمعوا شيئاً استغربوه ولم يسمعوا دليل الشيخ، ولا عرفوا حكمته.

ـ أن يبتعدوا عن الجدل والخصام والتباغض فيما بينهم.

ـ أن لا يتجرؤوا على الفتوى فيما ليسوا بمتأكدين من الحقّ فيه.

ـ أن لا يتجرؤوا على قول الباطل والنفاق، فإنه خسران لهم وإضلال للخلق، فإن لم يقدروا أن يقولوا الحقّ؛ فلا يقولوا باطلاً ونفاقاً، يسخطون به الله تعالى ويُضِلُّون به الخلق.

ـ لا تتكلم بكل ما عندك من علم، تخيَّر له أهله ووقته ومناسبته.

ـ أن لا يطلبوا الدنيا بعلمهم، بل عليهم أن يجعلوا علمهم خالصاً لله، مع تحريهم الحلال والمباح في الرزق، وأن يثقوا بكفالة الله لطالب العلم إذا أخلص وصدق.

ـ أن يحرصوا على العمل بما علموا.

ـ أن يحرصوا على تعليم الخلق وهدايتهم ونصيحتهم، وأن لا يقصروا في ذلك ولا يتكاسلوا عنه، وخاصة بعد أن يأذنهم العلماء ويجيزوهم بالتعليم والتربية والدعوة.

نصائح عملية في طلب العلم:

ـ ابدأ بالعلم مما يعتبر فريضة من العقائد والفقه والتزكية.

ـ لا تتغيب عن دروس الشيخ والأستاذ الذي اقتنعت بعلمه وتقواه.

ـ لا تكثر السؤال إلا الضروري، ولا تستعجل السؤال مما تتوقع أن تأتيك إجابته.

ـ اسأل عما يشكل، وخاصة الإشكال الكبير، لكن انتظر حتى يُتم الأستاذ كلامه فربما أجابك ضمن كلامه، فلا تحتاج لسؤاله ومقاطعته.

ـ اكتب ملاحظاتك على هامش الكتاب الذي تدرسه، فذلك أدعى لبقائها والاستفادة منها عند الدراسة، ثم عند تدريسها إذا صرت أستاذاً، وإن أمكنك أن تصور

الكتاب المنهجي الذي تدرسه؛ فتجعل له هامشاً عريضاً لا كتابة عليه للكتابة والتعليق والهوامش؛ فذلك حسن.

ـ توسع في العلم وكتبه بتدرج، ولا تنتقل إلىٰ مستوىً أعلىٰ وأنت لم تتم المستوىٰ الأدنىٰ منه، الذي يتناسب مع قدرتك العلمية ووقتك وفهمك.

ـ لا تقطع طلب العلم، فاستمر عليه طول عمرك ولو قليلاً، ولا تكن ككثير من طلاب العلم يبدأ الدرس بالطهارة ثم ينقطع في باب الصلاة، ثم يبدأ درساً آخر وينقطع في الصلاة، وهكذا يعيش عمره لا يمر علىٰ أبواب الدين، فلا بد من المثابرة والمتابعة.

ـ طالع كتباً منهجية، ترتقي بمستواك وتصل بك إلىٰ نتيجة، ولا تجعل مطالعتك فوضوية أو في جانب دون جانب أهم منه، فتتسع أفهامك في جانب وتكون خالياً في جانب آخر.

ـ وبعد إدراك جوانب العلم في الجملة فالتخصص في جانب منها له أهميته ويجعلك منتجاً بحق، ولا تكون معتدياً في العلوم كلها.

ـ وأنت تطلب العلم؛ اسمع ما عند الآخرين، وتعرف إلىٰ المدارس العلمية الأخرىٰ في العلم والدعوة، بعد أن تحصِّل الأساس الذي يكفيك كحد أدنىٰ في دينك وعلمك.

نصائح وتوجيهات لطلاب العلم الشرعي

مستقاة من تجربتي العلمية

للشيخ أحمد الجمال الحموي

١. يجب أن تكون نيّة طالب العلم نية خالصة لله تعالى، فلا يبتغي به جاهاً، ولا مالاً، ولا منصباً، ولا شيئاً من حطام الدنيا ومتاعها، ولا يصح أن يتعلم ليجادل العلماء ولا السفهاء.

٢. إذا لم يعمل طالب العلم بما علم يكون كالحمار يحمل أسفاراً، ونعيذ الجميع من هذا، فالتطبيق والعمل أمران مهمان.

٣. على طالب العلم أن يجهد في تمتين صلته بالله تعالى وذلك بدوام الذكر والمراقبة والشعور العميق بأن الله تعالى يراه، وأن يكون له أوقات يخلو فيها بربه عز وجل، وقد كان هذا شأن علمائنا الذين أحدثوا تغييراً في مجتمعاتهم، ولن تجد عالماً ترك أثراً في الناس ما لم يكن ربانياً.

٤. مجاهدة النفس المجاهدة المشروعة من عوامل تكوين شخصية العالم، لذا لا بد منها لطلاب العلم.

٥ . السلوك الحسن يجب أن يكون سمةً من سمات طالب العلـم، ولا خير في طالب علم سيء السلوك.

وينبغي أن يعمل طالب العلم على أن يكون قدوةً حسنة للناس، وألا يكون ممن قال الله ﷻ فيهم : {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ} [البقرة: ٤٤].

٦ . على طالب العلم أن يكون مظهره حسناً كأنه شامة بين الناس، وألا يظن أن الزهد يعني القذارة والفوضى والمظهر المنفر .

٧ . ومن الأمور الملحة أن يديم طالب العلـم تـلاوة كتـاب الله تعـالى وأن يحرص على حفظه، مع السعي لتدبره وفهمه ، فالصلة مع كتـاب الله لهـا نور خاص إضافة إلى أنه زاد.

٨ . من الأمور التي فـرط فيهـا كثـير مـن علمائنـا : الحـديث النبـوي الشّريف، حتى صار لا يتحدث بهذا العلـم إلا أدعيـاء السـلفية، ومـن هنـا أصبح من الواجب أن يقرأ طالب العلم الكتب الستة على شيخ عارف متقن لعلم الحديث.

٩ . على طالب العلم أن يعتز بعلمه دون تكبر، لا أن يعتز بنفسه، وألا يذل العلم الذي يحمله .

١٠ . العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه ، ومـن هنـا كـان لا بـد أن يقبل طالب العلم على العلم بشغف مع الشـعور بلـذة العلـم وأجـره ، وأن يمنح ذاته كلها للعلم .

١١. لا ينال العلم مستح ولا متكبر ، وطالب العلم الحق لا يستحي من السؤال ولا يتكبر عنه.

١٢. إن العلم يرسخ بالمدارسة، فليكثر الطالب منها ما استطاع.

١٣. إن من الأمور التي تمنح الطالب بركة العلم: احترام كتب العلم وأدواته ، فلا يوضع كتاب على الارض مثلاً ، ولا يرمي القلم الذي تشرف بكتابة العلم باستخفاف ، وهكذا .

١٤. ومن الأمور التي تضفي النور والبركة على طالب العلم توقير العلماء والأساتذة ومحبتهم وحسن العلاقة معهم، وعدم ذكرهم إلا بخير، وألا تكون العلاقة معهم علاقة التعلم فقط بل هي أعمق وأدوم من ذلك.

١٥. لكل شيء زكاة ، وزكاة العلم نشره وبثّه ، وإن من إقبال الإسلام انتشار العلم وعدم حجبه عن العامة .

١٦. لا خير فيمن يأخذ علمه من الكتب وبلا أستاذ ، فليكن دأب طالب العلم الجثو على الركب والتلقي من العلماء ، مع الصبر على شدتهم ومر الجفاء إن حصل منهم .

١٧. علوم الآلة مفتاح العلوم كلها ، فمن لم يتقنها لن يكمل علمه ، فليحرص طالب العلم على التعمق فيها .

١٨. لكل علم أصل ، فالدراسات القرآنية أصلها علوم القرآن ، والدّراسات الحديثية أصلها علوم الحديث، والدراسات الفقهية أصلها أصول الفقه، فعلى طالب العلم أن يبدأ من كل علم بأصوله .

١٩ . من الأفضل أن يفرغ طالب العلم جهده في فن واحد ، بعد أن يكون قد درس فنون العلم كلها ، وهو ما يسمىٰ في عصرنا بالتخصص .

٢٠ . التمذهب من غير تعصب خير لطالب العلم من الفوضى والانتقاء المبني علىٰ الهوىٰ، إذ من الصعب أن يدرس طالب العلم المذاهب كلها مع دليل كل مسألة في كلّ مذهب من المذاهب .

كما أن دراسة المذاهب جميعها تشتت الذهن حتىٰ يغدو العالم في حيرة عندما يريد أن يفتي في مسألة ما .

٢١ . ليس من المقبول عندما يتصدر الإنسان للفتوىٰ أن يكتفي بمراجعة كتاب واحد في الفقه ليأخذ حكم المسألة المطروحة ، فقد يجد من الشرح والتوضيح والقيود في بعض الكتب ما لا يجده في كتاب واحد .

٢٢ . أنصح الحنفي بقراءة شرح عقود رسم المفتي قراءة متأنية ليكون علىٰ دراية بالمذهب ، وكذلك أنصحه بقراءة القواعد الفقهية ، وهي موجودة في مقدمة مجلة الأحكام العدلية ، كما أن العلامة أحمد الزرقا قد شرحها شرحاً مفيداً .

٢٣ . أوصي طالب العلم أن يحمل دفتراً صغيراً يقيد فيه طرائف العلم ولطائفه وغرائبه ، ويسجل أين يمكن أن يجد المسائل النادرة ، فكم من شاردة يمر الإنسان بها ثم يعز عليه العثور عليها عندما يحتاجها .

٢٤ . علىٰ كل طالب علم تكوين مكتبة يجمع فيها من كل فن أمهات كتبه، وتزخر بكتب ما أولاه عنايته وتخصص به من علم شرعي .

آداب طالب العلم

للدكتور أحمد حسنات

ينبغي على كل من توجَّهت إرادته لطلب العلم أن يتصف بجملة من الآداب والمهمات، ومن هذه الآداب:

١- **إخلاص النية لله تعالى**: فالعلم من أكثر الأمور التي يدخلها حظّ النّفس، بل حظّ النفس فيه عظيم، لما للعلماء من منزلة رفيعة، ومكانة مرموقة عند الله ﷻ، وعند رسوله ﷺ، وعند عامّة الناس وخاصتهم، فالعلمُ قد يطلب لجلب حظوظ النفس كالجاه والسمعة، وقد يطلب لمكسب مادي دنيوي، وقد يطلب لأجل الله ﷻ، ابتغاء لمرضاته وطلباً لرضوانه وعلياء جنانه، فينبغي لطالب العلم أن يصحّح نيّته وقصدَه من العلم؛ ليكون ممن نعتهم الله ﷻ بخشيته بقوله: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء} [فاطر: ٢٨]، وليعلم طالب العلم أن الإخلاص سبيل التعلم؛ لقوله ﷻ: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ}[البقرة: ٢٨٢].

٢- **تقديم الأولى فالأولى من العلوم**: فالعلوم ليست كلها في مرتبة واحدة؛ فهناك العلوم الدينية والعلوم الدنيوية، ومنها ما هو فرض

عين وأخرىٰ فرض كفاية، فعلىٰ طالب العلم أن يبدأ بالمهم فالمهم من هذه العلوم؛ فيقدِّم العلوم الدينية علىٰ غيرها إلا إن تعيَّنت عليه، ويقدم فرض العين علىٰ فرض الكفاية، إلا إن تعين عليه أيضاً، ولا ينبغي علىٰ الطّالب أن ينتقل عن علم الا آخر إلا إذا اتقن العلم الأول، وعليه أن لا يضيع جهوده، ويشتت فكره في استجلاب العلوم دفعة واحدة، وكما ينبغي علىٰ طالب العلم أن يراعي الأولوية بين العلوم؛ عليه أن يراعي الأولوية في العلم نفسه، فيتدرج في الطّلب، ولا يطلب العلم دفعة واحدة، بل عليه أن يبدأ بتصوّر مسائل لعلم أولا بحيث يحيط بها جميعها إن أمكن، ومن ثمّ يحقّق تلك المسائل ويستدلّ عليها، ولا يبغي أن يصرف وقته في معرفة الخلاف وأدلته في بداية الطلب، فذلك مضيعة للوقت والجهد معاً.

٣- **اختيار المعلم الناصح**: من أولىٰ المهمات لطالب العلم أن يختار معلماً ناصحاً يثق بدينه وعلمه، يسلم له أمره، ويقبل علىٰ نصحه، وليحذر الطّالب من الاكتفاء بالكتب دون المعلم، فإن الكتبَ مزلّة لطالب العلم، والعلم هو المرشد للطالب، والمبين له الطريق القويم، وعلىٰ الطالب أن ينظر الىٰ معلمه نظرة إجلال وإكبار، وأن يظهر له التواضع والخضوع، وأن لا يظهر له الضجر والملل، وليحذر طالب العلم من التنقل بين الشيوخ والعلماء، فان ذلك مضيعة لوقته وتشتيتاً لفكره، وليحرص علىٰ ملازمته ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلا.

٤- **اختيار الصحبة المعينة على العلم**: ينبغي علىٰ طالب العلم أن يختار الصديق الذي يعينه علىٰ طلب العلم ويشدّ علىٰ يديه ويتذاكر معه، وعليه أن لا يكثر من الصحبة التي قد تعيقه عن سلوك طريق العلم، فالصحبة من أقوىٰ الأسباب التي تعين طالب العلم، وتذلل له العديد من العقبات في سبيله، وعليه أن لا يبخل علىٰ الصحبة بالمذاكرة في العلم، فإن المذاكرة من أكثر الأسباب التي تركز العلوم في الذهن.

٥- **الابتعاد عن مشاغل الدنيا وسفاسف الأمور**: أن من أكثر المعيقات لطالب العلم الانشغال بالدنيا وأهوائها من الأهل والأولاد والزوجة والأصدقاء، ومتع الدنيا ومشاغلها، من لعب ولهو، وانتظار وتسويف، فليحرص طالب العلم علىٰ الاكتفاء من الدنيا بما يعينه في مهمته، وأن لا يصرف وقته إليها، فإن الدنيا ومشاغلها لا تنتهي، واذا أعطاها طالب العلم اهتمامه، فلن يصل في العلم إلىٰ شيء.

٦- **الصّبر والتّفاني في سبيل العلم**: فالعلم بحاجة إلىٰ الصبر في الطلب، وتحمل المشاق من السفر، والترحال ، وترك الأهل والأوطان، وعلىٰ طالب العلم أن يعطي العلم من وقته وجهده ما استطاع، فبمقدار ما يعطي العلم العلم يعطيه، ولا ينبغي له الملل والسأم إن لم يحصل شيئاً، بل عليه بالصبر والمثابرة، والمعاودة مرّة بعد مرّة، حتىٰ يحصل مقصوده.

٧- **الابتعاد عن الكبر والعجب والخجل**: وهذه الأخلاق الذميمة من أسوأ الأخلاق التي تقصم ظهر طالب العلم، وقد قيل قديماً: ضاع العلم بين الكبر والخجل، وقيل: حبّ الظّهور قاصم للظّهور.

نصائح وإرشادات عامة للطّالب

للدكتور محمد العايدي

قد امتدحت الشّريعة الغراء العلم والعلماء وجعلت لكل ضوابط وقيود ينضبط فيها حتى يكون العلم نافعاً مثمراً، فقال الله ﷻ عن العلماء: {وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران: ٧٩]؛ لأنّ العالم الذي لا يتصف بكونه ربانياً في علمه: أي لا ينسب علمه إلى ربه تعالى، فإنّه لا يُنتفع بعلمه، بل سيكون علمه سبباً للضلال والإعراض والهلاك.

وكما جعلت الشّريعة المشرّفة هذه القيود والضوابط للعالم، كذا جعلت قيوداً وضوابطاً لطالب العلم الشّرعي؛ لينتفع بما يتعلم بما فيه خيري الدنيا والآخرة، فمن هذه القيود التي جعلتها لطالب العلم:

١. أن يبتغي في طلبه وجه الله تعالى، ولا يقصد سمعة أو وجاهة، أو مكسب دنيوي.

٢. أن يعمل بعلمه؛ لأنّ ثمرة العلم العمل، فعلم بلا عمل شجرة بلا ثمر، وهذا قد نص عليه القرآن الكريم والسّنة المطهّرة في كثير من المواضع،

فقال جَلَّ جَلَالُهُ: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} [البقرة: ٢٨٢]، وقال ﷺ: (مَن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم).

٣. أن لا يهب ويعطي هذا العلم إلا لأهله، فلله درّ الشّاعر حيث قال:

ومَن منح الجهال علماً أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

٤. أن لا ينازع العلم أهله، بل يجلس متأدباً في حضرة العلماء فلا يتكلم إلا لفائدة، ولا يسكت عند الحاجة، ولا ينصح أو يرشد في المجلس إلا إذا طلب منه، فإنّ النّصح والإرشاد في المجلس إنما هو للعالم صاحب المجلس؛ لأنّه أدرىٰ بطلابه متىٰ ينصح ومتىٰ لا ينفع النصح معهم في وقت من الأوقات.

ولا يقعد في المجالس الخاصة بكبار طلبة العلم كعن يمين العالم أو يساره، وكذا لا يجلس في وسط المجلس، ولا يخرج عن الترتيب المألوف الذي اختاره العالم لمجلسه، وكذا عليه أن يحضر مبكراً، ولا يتأخر عن المجلس، وإذا حبسه عذرٌ فعليه أن يعلم أستاذه بذلك.

٥. أن يكون سلوكه بين النّاس حسناً حتىٰ لا يسيء إلىٰ العلم الذي ينتمي إليه، والعلماء الذين يحضر عليهم، وكذا أن يكون مظهره حسناً في لباسه ومشيه، فلا يراه النّاس بثياب رثة أو متسخة، ولا يمشي مشية منتقده كأن يمشي متبختراً أو متعاجزاً.

ويجب أن يعتقد أنّ هذا العلم شرف عظيم له، وأن الله قد اختاره واصطفاه من بين كثير من النّاس، فيحمد الله علىٰ هذا الاختيار، ويستشعر

بالمسؤولية الموكلة على عاتقه اتجاه هذا العلم لخدمته ونشره بين النّاس؛ لأنّ المسؤولية على قدر العطاء.

وعليه أن يعلم أنّ هذا العلم يرتقي به إلى أعلى درجات الإنسانية، والجهل ينزل به إلى أوحال مرتبة الحيوانية؛ لأنّ الفاصل بين الإنسانية والحيوانية هي الناطقية مع استعمال هذه الهبة الربانية، فمن أَهْمَلَ هذا العطاء أو عطَّله فقد وصفه الله بأن صار أنزل من مرتبة البهيمية، فقال ﷻ: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩].

٦. وعليه أن يعلم أنّ هذا العلم عصمة له من الزلل والخطأ، وهو سلاحه عند الشدائد والمحن، ولله در الشّاعر حيث قال:

تعلم فليس المرء يولد عالما　　　وليس أخو علم كمن هو جاهل
كبير القوم لا علم عنده　　　صغيراً إذا التفت عليه المحافل

أما علاقته بالكتاب فعليه إذا لم يفهم شيئاً أن يكرر القراءة ويطرق الباب المرّة تلو المرّة فلعل الوهاب يفتح له من خزائن علمه، وإذا رأى حرصاً على العلم والتعليم، وكذا أن يكرر قراءة الكتاب ولا يكتفي بقراءة مرة واحدة خاصاً إذا كان هذا الكتاب عند العلماء عمدة في فنّ من الفنون، فإن من فهم كتاباً فهم كتباً، فليس العبرة بكثرة ما يقرأ، وإنما العبرة بما يفهم ويدرك.

٧. يجب عليه أن ينتقل بين العلماء للدرس عليهم ولا يكتفي بعالم واحد، وأن لا يتعقد الكمال بأحدهم، فإن الله قد وزع العلم وقسمه بين الناس، فما يعلمه فلان قد لا يعلمه فلان، وأن لا يحجبه حبّه لأستاذه أو العالم عن حبِّه لبقية العلماء، فالكل مشترك بصفة العلم وإن تفاوتت، وأن لا يدفعه لإظهار فضل شيخه أو أستاذه إلى الطعن في غيره من الأشياخ والعلماء، فإن هذا علامة الخذلان لطالب العلم، ومدرج من مدارج الشيطان لحرفه عن طريق العلم، نسأل الله السّلامة والعافية.

كلمـات مضيئة
في طريق طالب العلم
للدكتور حمزة البكري

الـحمدُ لله الذي شـرَّف الإنسان بالعقل ورفع الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات، والصّلاةُ والسّلامُ الأتـمَّـان الأكملان على سيِّدنا ومولانا محمد سيِّد السّادات، وعلى آله وأصحابه ذوي الـمقامات، ورضي الله عن ساداتنا العلمـاء الذين ورثوا عن رسول الله ﷺ العلم، «فإنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنمـا ورَّثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍّ وافر»[1]، ورضي عنا معهم في عباده الصّالحين.

---

(١) أخرجه أحـمد ٥ : ١٩٦، وأبو داود (٣٦٤١)، والتـرمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وعلَّقه البخاري في كتاب العلم من «صحيحه». وهو حديث حسن بمجموع طرقه وشواهده، وإن كان في كل طريق من طرقه ضعف، فقد ذكر الـحافظ ابن حجر في «فتح الباري» ١ : ١٦٠ أن «له شواهد يتقوَّى بـها»، وقال: «وشاهدُه في القرآن قوله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا).

وبعد:

فيحضرني في هذا المقام، مقام النُّصح والتوجيه لإخواني طلبة العلم، قولُ القائل:

أخى لن تنالَ العلمَ إلا بستَّة سأُنبيكَ عن تفصيلها ببيان
ذكاءٌ، وحرصٌ، واجتهادٌ، وصُحبةُ أستاذ، وطولُ زمان(١)

ففي هذه الأمور السِّتَّة جِماعُ ما يحتاجُ إليه طالبُ العلم في مسيرته العلمية، وما ينبغي عليه أن يتمثَّله فيها.

❊ أما الذكاء:

فعلىٰ طالب العلم أن يكون ذكياً في طلب العلم بأن:

١ـ يختارَ من العلوم أشرفها وأنفعها، وهي العلوم الشرعية، فإنَّ شَرَفَها في موضوعها، ونَفْعَها في غايتها، وهي تحقيقُ السعادة في الدارين.

٢ـ ثم يتخصَّص في علم من تلك العلوم الشرعيَّة يرىٰ في نفسه ميلاً إليه، وحباً له، ورغبةً في دراسته، علىٰ أن لا يُهملَ سائرها، فلا ينبغي لطالب علم التّفسير أو الحديث أن يكون جاهلاً في الفقه، كما لا ينبغي لطالب الفقه أن لا يُفرِّق بين ما يجب لله، وما يجوز عليه وما يستحيل، إلىٰ غير

(١) هذا بيتان مشهوران عند العلماء، وبعضهم ينسبهما إلىٰ الإمام الشافعي رضي الله عنه، وبعضهم ينسبهما إلىٰ الإمام أبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين، رحمه الله تعالىٰ، وبعضُهم ينسبهما إلىٰ سيدنا علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، والقولان اللذان قبله أصحُّ، والله أعلم.

ذلك من مباحث العقيدة وعلم التوحيد، وهكذا.

٣ـ ثم يسلك في طلب العلم الذي يريد التخصُّصَ فيه المنهجيَّةَ الصحيحةَ في طلبه، فلكل علم من العلوم كتبٌ للمبتدئين فيه، وكتبٌ للمتوسِّطين، وكتبٌ للمُنتهين، كما أنَّ من كتب العلوم ما هو معتمدٌ في بابه، ومنها ما ليس بمعتمد، وذلك بإرشاد أستاذ يتتلمذُ عليه في هذا العلم، وسيأتي الكلام عن الأستاذ.

٤ـ وعليه أن يتعلَّم بذكاء، فإذا ما قرأ عبارةً أو سمع إفادةً تفكَّر فيما يقرأ وفيما يسمع، فليس كل ما يُقرأ بصحيح، ولا كلُّ ما يُسمَع بصواب، على أن لا يتعجَّل بالإنكار، ولا يتجاسرَ بالمخالفة، بل يتأنى ويتريَّث، ويسأل أساتذته وشيوخه والمتخصِّصين في ذاك العلم الذي يدرسُه عمَّا يستشكل، فربما وافقوه، وربما أناروا له الطريق، وأبانوا له وجه الصّواب.

*** وأما الحرص:**

فعلى طالب العلم أن يحرص في طلب العلم على أمور، منها:

١ـ الوقت، فيستثمر وقته أحسنَ استثمار، ويستغل فراغَه أوفى استغلال، وليعتبر بقول الخليفة الصّالح عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «الليلُ والنّهار يعملان فيك، فاعمَلْ فيهما»، وبقول الإمام الزّاهد الحسن البصري رضي الله عنه: «يا ابنَ آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يوم ذهب بعضُك».

والوقتُ أنفسُ ما عُنيتَ بحِفظِه   وأراه أسهَلَ ما عليكَ يضيعُ(١)

٢ـ الـجِدِّ في الطلب، فيطلب العلم بجِدِّيَّـةٍ ودَأَبٍ ونَـهَمٍ، ولا يكفي أن تُـخصِّصَ للعلم بعضَ جهدك، بل ينبغي أن يكون شغلُك الشاغل في هذه الدنيا طلبَ العلم، وقد قالوا: «العلمُ لا يُعطيكَ بعضَه، إلا إذا أعطيتَه كُلَّك».

❋ **وأما الاجتهاد:**

١ـ فعلىٰ طالب العلم أن يـجتهدَ في طلب العلم، فيصبر علىٰ شدائده، ويَتَحَمَّلَ ما يُلاقي في مسيرته من مِـحَنٍ ومصاعبَ، فإن كان «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل»(٢)، فإن طالبَ العلم هو وارثُ علم النبوَّة، فلا بدَّ إذن أن يُلازمَه الابتلاءُ في طلب العلم، وكم صبر علماؤنا السابقون في طلب العلم علىٰ الفقر، والـجوع، وهَجْر النوم، وتَـرْك الراحة، وتـجشُّم مشاقِّ الرحلة في طلبه، وأذىٰ الأمراء والسلاطين، وأذىٰ بعض الـمُتعلِّمين أيضاً، خاصَّة من الـمُخالفين لـهم(٣).

---

(١) ويُنظر في هذا ما كتبه شيخ مشايـخنا العلامة الـمحدِّث الـمُحقِّق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحـمه الله تعالىٰ في كتابه «قيمة الزمن عند العلماء»، فإنه مفيد للغاية.

(٢) أخرجه الترمذي في «جامعه» برقم (٢٣٩٨)، وابن ماجه في «سننه» برقم (٤٠٢٣).

(٣) ويُنظر في هذا ما كتبه العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحـمه الله تعالىٰ في كتابه الفريد «صفحات من صبر العلماء علىٰ شدائد العلم والتحصيل».

٢ـ وعليه أن يـجتهد في طلب العلم من جانب آخر، وهو أن يطلبه مُتطلِّعاً الوصولَ إلى الغاية فيه، مُتَشوِّفاً فيه بلوغَ مرتبة التحقيق والإتقان، فلا يكتفي بالقدر الأدنى منه، بل يـجتهد في الارتقاء إلى الأعلى، وليتعاهَد هـمَّتَـه في ذلـك، فكلَّمـا فَـتَـرَت شَحَذَها من جديد، وخيـرُ ما يُفيدُه في ذلـك النّظر في حال العلمـاء السابقين من سلف الأمة وخَلَفها، كيف كان حالُـهم في طلب العلوم، ثم كيف انتهَوا إلى ما كانوا يأملون.

ورحم الله العلامة الزمخشـريَّ إذ يقول:

أأبيتُ سهرانَ الدُّجى وتبيتُه ... نوماً وتبغي بعد ذاك لـحاقي

ولله درُّ الأستاذ الأديب علي الـجارم[1] في قوله:

لن تنالَ العُلا بـ(ليتَ) و(لكنْ) ... وعُكوفِ الفتى على مِرآتِـهِ
آلةُ الفَوْز هِـمَّـةٌ تَطحَنُ ... ـرَ وتَسمُو للنَّجْم في سَبَحاتِـهِ

*** وأما البُلغةُ:**

فالبُلْغةُ في اللغة: الكفايةُ وما يُـتَـبَلَّغُ به من العيش ولا يفضل. وهو الـمعنى الـمُرادُ هنا، وتوضيحُه من جانبين:

١ـ أن يكون عند طالب العلم ما يكفيه من الرزق، لئلَّا يشتغلَ بطلب العيش وطلب الرزق، فيُضيعَ في سبيل ذلك وقتاً وجهداً كان يُمكنُه ـ لو كان عنده ما يكفيه ـ أن يصـرفه إلى طلب العلم.

---

(١) من أدباء مصـر، له مؤلفات منهجية في النحو والبلاغة، توفي رحـمه الله سنة (١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م).

قال الإمام محمد بن الحسن الشيباني رضي الله عنه: «عِلمُنا هذا لا يصلحُ إلا بثلاث خِصال: أن يكون الرجلُ مُشتهياً له، ذكيّاً، مَكفيّاً»(١).

وقال الإمام شمس الأئمة السرخسيُّ رضي الله عنه في «شرحه» على «كتاب الكسب»(٢) للإمام محمد بن الحسن: وفي الاشتغال بالكسب تَرْكُ ما خُلِقَ المَرْءُ من أجله، وأُمِرَ به من عبادة ربِّه، وإليه أشار النبيُّ ﷺ في قوله: «ما أوحيَ إليَّ أن أجمعَ المالَ وأكونَ من التاجرين، وإنما أوحيَ إليَّ (فسبِّح بحمد ربِّك وكُنْ من الساجدين، واعبُدْ ربَّكَ حتى يأتيَك اليقين)» (٣). انتهى.

وقال العلّامة الشّيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى: «الفقر المُدقِع ـ وهو فَقْدُ الكفاية في المعاش ـ لا يُمكِّنُ الإنسان في كثير من الأحيان من نصاعة الفكر وجودة القريحة، بل يُشتِّتُ القلبَ والذهنَ، قال الإمام الشّافعيُّ رضي الله عنه: لا تَسْتَشِرْ مَنْ ليس في بيته دقيق، فإنّه مُوَلَّهُ

---

(١) نقله الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في مقدمة «كتاب الكسب» للإمام محمد ص٢٨ عن كتاب «فضائل أبي حنيفة وأصحابه» للإمام ابن أبي العوام ـ مخطوط ـ.

(٢) ص٨٢.

(٣) قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» ٢ : ٦٣ : «رواه ابن مردويه في «التفسير» من حديث ابن مسعود بسند فيه لين». قلت: ورواه من حديثه أيضاً السهمي في «تاريخ جرجان» ص٣٤٢.

وأخرجه أحمد في «الزهد» ص٣٩١ من حديث أبي مسلم الخَوْلاني مرسلاً. وذكره من حديثه أيضاً أبو نعيم في «الحلية» ٢ : ١٣١.

العقل»[١].

٢ــ أن يكون رزقُ طالب العلم كفافاً، بمعنى: أن لا يكثر المال عند طالب العلم[٢]، فإنَّ كثرةَ المال مُفسِدةٌ لطلب العلم في الغالب، وذلك لأنّها تدعو صاحبها إلى إيثار الراحة وتَرْك الاجتهاد في طلب العلم والحرص عليه والجِدِّ في تحصيله، ومن هنا كان غالبُ العلماء في وقت طلبهم العلم فقراء، وقليلٌ منهم مَن نشأ غنياً، وطَلَبَ العلم وهو غنيّ.

وقد كان النبيُّ ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اجعَلْ رِزْقَ آلِ محمَّدٍ كَفافاً» وفي رواية: «قوتاً»[٣].

وقد وصف النبيُّ ﷺ مَن كان هذا حالُه بالفلاح فقال: «قد أفلح مَن أسلمَ، ورُزِقَ كَفافاً، وقنَّعه اللهُ بما آتاه»[٤].

وقد ذكروا في أخبار الإمام محمد بن الحسن الشّيباني ـ وكان غنياً كثيرَ المال ـ أنّه وكَّل رجلاً يُديرُ له شؤون أمواله ويُوافيه بها كل فترة من الزّمان، حتى لا ينشغل بالمال عن العلم والتعليم، رحمه الله تعالى.

---

(١) مقدمة «كتاب الكسب» للإمام محمد بن الحسن ص٢٨ تعليقاً.

(٢) المقصود هنا أن لا يتضجَّر طالب العلم من قلة المال في يده، ويشغل نفسه في التفكير في هذا الأمر، وليعلم أن هذا هو حال طلبة العلم في كل زمان، وليعلم أيضاً أن في ذلك خيراً له في دنياه وآخرته. فإن وسَّع الله عليه في رزقه فليحذر من أن يفتنه المال عن طلب العلم.

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (٦٤٦٠)، ومسلم في «صحيحه» برقم (١٠٥٥).

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» برقم (١٠٥٤).

*** وأما صُحبةُ الأستاذ:**

فمن أهم ما ينبغي لطالب العلم أن يـهتمَّ به، وإلا أضاع عمره وهو يتخبَّط في طلب العلم، ومن تعلَّم علمـاً بلا أستاذ فلا بدَّ أن تقع له فيه تناقضاتٌ وشواذٌّ غيـرُ قليلة، وفي السابقين والـمعاصـرين أمثلةٌ علىٰ ذلك، وقديمـاً قالوا: «من البليَّـة تـمشيخ الصَّحَفيَّـة» أي: الذين يأخذون علمهم من الصُّحُف، وقالوا: «مَن لا شيخَ له فشيخُه الشيطان»، وشيوخُ طالب العلم هم نَـسَـبُه العلمي، فمَن لا شيخَ له فهو دَعيٌّ في هذا العلم، كمـا يقول شيخُنا العلامة الـمحقِّق الـجِهبِذ الأستاذ الشيخ محمد عوَّامة حفظه الله تعالىٰ.

علىٰ أن من فوائد التلمذة وتلقِّي العلم من الشيوخ: تقصيـرُ الـمسافات، وتقريبُ الغايات، فكم من طالبٍ اختصـر له شيوخُه مراحلَ من البحث والتنقيب بكلمـاتٍ من التوجيه الإرشاد، ربمـا كان سيقضي وقتاً طويلاً، وجهداً كبيـراً، لو استقلَّ بنفسه فيها.

ومنها: تربيةُ التّلميذ، وتزكيةُ نفسه، وتـهذيبُ خُلُقه، مع طَلَبِه العلم، وقد رأينا الـجفاءَ والشِّدَّةَ عند بعض العلمـاء بسبب عدم تلقِّي العلم عن الشيوخ، بل لاحظنا (سوء الأخلاق!) عند بعض الـمُنتسبين إلىٰ العلم بسبب إهـمـال هذا الـجانب، والله الـمستعان.

*** وأما طول الزّمان:**

فلأن «العلم لا يُدرَكُ غَوْرُه، ولا يُسْبَرُ قَعْرُه، ولا تُبلَغُ غايتُه، ولا تُستَقصىٰ أصنافُه، ولا يُضبَطُ آخرُه»(١).

وطالب العلم إذا استحضر أنّه لا بدَّ له في طلب العلم من طول الزمان، أفاده ذلك في أن لا يتعجَّل الظهور والبروز، فهذا العلم قد قُضيت في تحصيله الأزمان، وأُفنيت في طلبه الأعمار، وكان علماؤنا السابقون يُلازمون مشايخهم السنوات، فمنهم من لازم شيخه عشرين سنة، ومنهم مَن لازمه ثلاثين، ومنهم مَن لازمه أربعين، ...، وما ظهروا وما برزوا إلا بعد طول زمان، وهذا لا يعني أن طالب العلم عليه أن يكون خاملاً في الزمن الذي يطلب فيه العلم ... كلا، بل عليه أن يكون عاملاً بما عمل، ومن العمل بالعلم نَشْرُه وإشاعته بين الناس، سواء علىٰ وجه العموم أو علىٰ وجه الخصوص، لكنْ إنما يتكلَّم فيما يعلم، أما أن يدَّعي تحقيقَ ذاك العلم، وإتقانَه، وبلوغَه فيه مرتبة المجتهدين، فهو الممنوع.

ومن اللطيف أن يُستَفتَحَ هذان البيتان بقول صاحبهما: «أخي»، وفي ذلك إشارة إلىٰ أن العلاقة بين طلبة العلم فيما بينهم ينبغي أن تكون علاقةَ الأُخُوَّة، كما أنَّ العلاقةَ بين طلبة العلم ومشايخهم هي علاقةُ الأُبُوَّة، والعلاقةَ بين أهل العلم وتلامذتهم هي علاقةُ البُنُوَّة، وقد قال الإمام

---

(١) قاله الخليفةُ العباسيُّ المأمون، كما في «البيان والتبيين» للجاحظ ٣ : ١٨٥، و«العقد الفريد» لابن عبد ربِّه الأندلسي ٢ : ٢٠٧.

الشّافعي رضي الله عنه: «العلمُ بين أهل العلم رَحِمٌ متصلة»، واشتَهَرَ فيما بعدُ بلفظ: «العلمُ رحمٌ بين أهله».

هذا ما يسَّر الله تعالىٰ كتابته في هذه العُجالة، وصلَّىٰ الله علىٰ سيِّدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلَّم، والحمدُ لله رب العالمين.

نصائح عامة لطالب العلم

للشيخ محمد الهسنياني

الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسّلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد... فطالب العلم الشّرعي قد يتعلم العلوم الشرعية خلال فترة قصيرة ويتخرج فقيهاً وعالماً في التّفسير والحديث والعقيدة... ولكن مشكلتنا كيفية التعامل مع مفردات هذه العلوم، أو كيف يوصلها إلى غيره، والحقيقة هي مشكلة طلبة العلوم الشرعية اليوم في كلّ مكان.

لذلك كان الواجب على المشرفين لوضع البرنامج والمناهج لطلبة الدّراسات الشّرعية مادة الأخلاق والسّلوك أو كيف يتعامل مع هذه العلوم أو قلّة الأدب مع العلم.

وفي هذا المعنى أشار المربي الكبير عبد الله بن المبارك رضي الله عنه: «نحن إلى كثير من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث»؛ لأنّه لا فائدة في حفظ المتون والأحاديث إذا لم يتأدب بأدب الإسلام مع هذه العلوم.

ويقول الحبيب بن الشّهيد ﵁ لابنه: «يا بني اصحب الفقهاء والعلماء وتعلم منهم وخذ من أدبهم، فإنه أحبّ إلي من كثير من الحديث».

فصحبة العلماء والفقهاء لا بدّ من التأدب بأخلاقهم وتعاملهم قبل التّعلم من علمهم وفقههم.

وهذا أحد علماء الأندلس يذهب إلى المدينة المنورة كي يدرس العلم عن الإمام مالك، ويبقى عنده خمسة وعشرين عاماً يدرس العلوم الشّرعية حتى يصبح فقيهاً في كلّ العلوم، يقول بعد هذه الرحلة الطويلة: تعلمت العلم عند الإمام مالك في خمس سنوات، ولكنّي تعلمت الأدب مع العلم عشرين عاماً.

فانظر إلى دقّة اهتمامه وحرصه على الأدب مع العلم.

فكم طالب للعلم وصل العلم به إلى الدرجات العلى في المناصب في هذه الدّنيا ولكنّه بحاجة إلى فهم الإسلام من جديد؛ لأنه عالم في الشريعة ولكنّه لا يزال بحاجة إلى الأدب مع العلم فربما يستغرب بعض الطلبة من هذا الكلام ولكنها الحقيقة.

فطالب العلم لا بُدّ أن يراجعَ نفسه بين الحين والحين حتى يكون سلوكه سلوك القرآن الكريم وأَخلاق الحبيب المصطفى ﷺ فيتحول علمه إلى عمل، ولذلك يكون له القَبول في الأرض وفي السّماء، ويكون تأثيره على النّاس بعلمه أكثر من تأثيره بأقواله؛ ولذلك قديماً قالوا: «تأثير الحال أكبر من تأثير المقال».

وفي هذا المعنى يقول عيسى ﷺ: «جالسوا من تذكركم بالله رؤيته، ومَن يزيد في علمكم منطقه، ومَن يُرغب في الآخرة علمه».

وهذه هي صفات طالب العلم الناجح الذي يؤثر على الناس:

حيث تذكرك بالله تعالى رؤيته لما عنده منه الوقار والتقوى والإخلاص وسمات الصالحين وسمت العارفين.

وكلامه ومنطقه كله علم ونور فما التقى مؤمن بمؤمن إلا أفاد أحدهما الآخر ولو بكلمة أو نصيحة أو إرشاد.

والسّمت الأخير أن حاله أكثر تأثيراً من مقاله كما مرّ.

وفي هذا المعنى أيضاً يقول إبراهيم بن أدهم ﵁: «ما من شيء أشدّ على الشّيطان من عالم حليم إذا تكلّم تكلّم بحلم، وإذا سكت سكت بعلم يقول الشّيطان: أنظرو كلامه أشد عليّ من سكوته».

وطالب العلم في هذا العصر بحاجة إلى دراسة جانب التيسير في الإسلام بعيداً عن التّشدد، ويقتدي بسيرة المصطفى ﷺ كيف كان مع أهل بيته وكيف كان تعامله مع الصحابة الكرام ﵃ وكيف كان يعالج واقعه باليسر بعيداً عن التشدد الذي ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم.

فيبعث الرّسول ﷺ أصحابه إلى اليمن للدعوة ونشر الإسلام، فيوصيهم بهذه الكلمات: «يسِّر ولا تعسّر بَشِّر ولا تنفر وتطاوعا ولا تختلفا» البخاري ومسلم.

هذه الكلمات وحدها تكفي لطالب العلم إذا أراد أن يخالط الناس وينشر الإسلام.

فالتيسير في الإسلام مطلب شرعي من القرآن والسنة المطهرة: {يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥].

وإذا وجدنا من يشدد والأمر فيه سعة، فإن هذا دليل على جهل الداعية بشريعة الله ﷻ، فلا بد من الحلم مع العلم، يقول عطاء بن يسار رضي الله عنه: «ما أوري شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم».

فلا بُدَّ من مراعاة عقول النّاس فيتعلم أدب الدعوة قبل الخوض فيه، ونحن في زمن تكاسل طلاب العلوم الشرعية عن طلب العلم بجدية وصدق العزيمة، بل أخذوا دراسة العلوم من بابِ الترفِ والزينةِ والمظاهرِ أكثر من دراسة العلم كطريق يوصل إلى مرضات الله ﷻ.

وهذا هو التّناقض في حياة طالب العلم بين المظهر والجوهر، وهم بهذا ظلموا النّاس وظلموا العلم حيث هم قدوة الناس، وهم مصابيح الهدى، ومشاعل النّور والهداية، وبيدهم القيادة والريادة والسيادة إن هم صانوا العلم وأعطوا للعلم مكانته، وهم الذين يوجهون الناس إلى الخير، بل هم الذين يوجهون الأمراء والخلفاء إن هم ساروا في طريق الرشاد، ولم يسيروا في ركاب الظّالمين.

وما أحسن ما قاله النّحوي القاضي الجرجاني رضي الله عنه:

ولو أنّهم صانوه صانهم ولو عظّموه في النّفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنّسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

أسأل الله تعالى أن يوفّق طلاب العلوم الشّرعية إلى فهم حقيقة الدّين وأن يبصرهم بعيوبهم، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

العلمُ فتحٌ من اللهِ تعالى

في خاتمة هذه النَّصائح العظيمة من هؤلاء الأفاضل من المعاصرين نلاحظ أنّه لا تخلو واحدة منها عن التَّذكير بالإخلاص والتَّقوىٰ، التي يُدرك الكلُّ أنّها الأساس القويم في الحياة عامّة، وفي العلم خاصّة، فأحببتُ تأكيد هذا المعنىٰ، والتصريح بما أَضمروه من أنّ التَّقوىٰ هي مفتاحُ العلم والخير كلِّه، فأقول:

إنّ ما بنا ولدينا من نعم فهي فضلٌ ورحمةٌ من الله تعالىٰ: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [النحل: ٥٣].

والعلمُ من أعظم هذه النِّعم بعد نعمةِ الهداية للإسلام، {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤]، ومن سنةِ اللهِ في كونِهِ أنّه رتَّبَ لكلِّ شيءٍ سبباً، فتحقُّق العلم له سببان:

الأوّل: الاجتهادُ في طلبه بكلِّ جهد وطاقة، بالبحث عن الأستاذ وملازمته، وسهر الليالي، وتحصيل الكتب، وكثرة المطالعة والمذاكرة، وبغيرها من الطرق الآتية بكل ما أوتي من قوّة، فلا يتقاعس في التعلم، ويبذل ماله ووقته ونفسه؛ لأنه أثمن ما يطلب بعد رضا الله تعالىٰ، قال ﷻ: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩]، فمعناها في مقامنا هذا:

أنّ الله لن يضيع تعبك واجتهادك وسعيك بأن يفتح عليك أبواب رحمته بالعلم النافع الطيب، فهو هبةٌ وهدية من الله جزاء اجتهادك وسعيك.

والثّانية: تقوىٰ الله، فهي السَّببُ الأعظم لنيل رحمة الله تعالىٰ، فمن أجلها خلقنا، ومَن حققها فقد نجح في الامتحان، واستحقّ المكافأة من الربّ العلام، ففتح عليه أبواب رحمة علمه الواسع، وفهمه الحق من الباطل والصّواب من الخطأ، وأنار بصيرته، {وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} [النور: ٤٠].

فالتقوىٰ هي مستندُ المؤمن، وطريقُه لتحقيقه غايته والوصول إلىٰ مرادِه؛ لأنّ الأمرَ كلُّه بيدِ الله، {إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ} [آل عمران: ١٥٤].

قال القرطبيُّ(١): «{وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} [البقرة: ٢٨٢]، وعدٌ من الله تعالىٰ بأن مَن اتّقاه علَّمه: أي يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يُلقىٰ إليه، وقد يَجعَلُ الله في قلبه ابتداءً فُرقاناً: أي فيصلاً يَفصل به بين الحقِّ والباطل، ومنه قوله تعالىٰ: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً} الأنفال: ٢٩».

وقال ابن عابدين(٢): «إنّ أولىٰ ما يستنزل به فيض الرَّحمة الإلهيةِ في تحقُّقِ الواقعات الشّرعية طاعة الله جَلَّ جَلَالُهُ والتّمسك بحبل التّقوىٰ، قال الله تعالىٰ: {وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ} البقرة:٢٨٢، ومَن اعتمد علىٰ رأيه وذهنه في استخراج دقائق الفقه وكنوزه، وهو في المعاصي حقيق بإنزال الخذلان عليه،

(١) في تفسير القرطبي ٣: ٤٠٦.

(٢) في رد المحتار ٦: ٢٨٦.

فقد اعتمد على ما لا يعتمد عليه: {وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} [النور:٤٠]».

فمَن أراد أن يصل إلى حقيقةِ العلم وكنهِهِ فعليه بأخذِ أسبابه من الاجتهاد والتّقوى، قال ابن حيان[١]: «مَن اتقى علَّمه الله»، فهذه هي القاعدةُ الذَّهبية في طلب العلم؛ لذلك وجدنا الرَّازي في نهاية الكلام عن الأحكام الفقهيّة، نصح الطّلبة بالتّقوى، فقال: «اعلم أَيها الأخ العزيز وَفَّقك الله تعالى وإيّانا لما يُحبُّه ويَرضاه إن سَعادةَ الدُّنيا فانيةٌ وسَعادةُ الآخرة باقية.

فلو كانت الدنيا ذهباً يفنى والآخرة خزفاً يبقى لاخترت الآخرة على الدّنيا لوجب على العاقل أن يختار الآخرة على الدّنيا.

وسعادة الآخرة إنّما تحصل بتقوى الله تعالى.

والتّقوى: اجتناب محارمه ، وهي وصية الله تعالى لجميع الأمم كما قال تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللهَ} [النساء: ١٣١].

فعليك أيها الأخ بالتّقوى والاستعداد للقاء الله ﷻ ونعيم الآخرة».

فإن قُصِد بالعلم العلم اللَّدُنيّ في قوله تعالى: {وَاتَّقُواْ اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ} [البقرة:٢٨٢]، كما قال ابن عجيبة[٢]: «علمًا لدُّنياً، فالمعصيةُ كلُّها تُبعد العبد من

(١) في البحر المحيط٢: ٧٤٢.

(٢) في البحر المديد٢: ١٨٢.

الحضرة إن لم يتب، والطاعةُ كلُّها تقرِّبُ من الحضرة. والتنعم إنّما هو على قدر القرب، ونقصانُه على قدر البُعد».

فيكون بالاجتهاد والتقوى السابق ذكرهما يتحقَّق هذا، ولا ينبغي أن يكون في هذا نزاع، وإن كان المقصود بالعلم اللَّدُنّي هو علم الأنبياء والأولياء كما سيأتينا مناقشته في المقال التّالية، فلننظر إلى أقوال العلماء فيه واختلافهم في هذه السّطور:

فائدة في حقيقة العلم اللدني

للدكتور عارف حسونة

أُخذت التَّسميةُ بالعلم اللَّدُنِّيّ ـ بتشديدِ اللام المفتوحة والنون والياء المكسورتين ـ من قوله تعالى في حقّ العبد الصّالح في سورة الكهف: {وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} [الكهف: ٦٥]، وهو ما لم يُبيّن فيه سبحانه هل كان هذا العلم علم نبوة أمّ علم ولاية[١]؟ ولكن يُمكن تعيين ذلك منه بتعيين كون العبد الصّالح أكان نبياً أم ولياً ؟ فعلى قول كثير من العلماء بأنه كان نبيّاً[٢]؛ فإنّ علمه اللَّدُنِّي هذا حينئذٍ علم نبوة لا علم ولاية، وعلى قول كثير من الصّوفيّة بأنّه كان وليّاً، فإنّ علمه اللدني هذا حينئذٍ علم ولاية لا علم نبوة، وهو من ثمّ علم يحصل للوليّ، ولا ينحصر حصوله في النبيّ.

---

(١) محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ج٤ص١٢٣

(٢) انظر: الأقوال في كون العبد الصالح نبياً أم ولياً، وترجيح القول بكونه نبياً، في : ابن حجر العسقلاني، الزهر النضر في نبأ الخضر، تحقيق مجدي إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ص٢٢-٢٥

علىٰ أنَّ العلم اللَّدُنّيّ إن كان علم ولاية لا علم نبوة ـ فقد لزم أن يكون حاصلاً للوليّ حينئذٍ بطريق الإلهام من الله سبحانه، وأن يكون لذلك ثمرة معرفية من ثمرات الإلهام؛ لأنّ اتصافَ هذا العلم بكونه لدنياً مؤدّاه أنّه وهب من ربِّ العالمين، لم يتحصَّل باستدلال ولا نظر، ولا للعبد فيه سبب[١]، وإلا فإنّ كلَّ علم هو في المآل من ربِّ العالمين بما أنّه هوىٰ سبحانه الذي هدىٰ إليه وأَعطىٰ أَسباب كسبه من عقل وحسٍّ وغيرهما، ولا يكون العلم وهباً من ربِّ العالمين بلا استدلالٍ ولا نظرٍ ولا توسطِ سبب من العبد، إلا أنّ يكون وحياًّ، أو إلهاماً، وحيث إنّ الوحي لا يقع لغير النبيّ لم تبق طريق لحصول العلم اللدني للولي إلا بالإلهام، سواء أكان إلهاماً بتوسط ملك الإلهام ـ عند من يثبته ـ أم بلا توسطه ؛ ولهذا عرَّف الإمام أبو إسماعيل الهروي العلم اللَّدُنّي بأنه: «العلم الذي يقذفه الله في القلب، بلا سبب من العبد ولا استدلال»[٢].

---

(١) وذلك لأنّ قوله تعالىٰ: «لدنا» بدل «عندنا» مشعرٌ بأن طريقَ حصول هذا العلم خالية عن الواسطةِ البشريةِ فيها؛ لأنّ لفظ لدن، أخصّ وأقرب من لفظ عند، كما في قوله تعالىٰ: {وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا} [الإسراء: ٨٠]؛ إذ النصير الذي مَن لدنه سبحانه هو النصير الذي ليس من البشر، بخلاف النصر الذي من عنده سبحانه، فهو النصر بالمؤمنين، كما في قوله سبحانه: {هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: ٦٢]، انظر: ابن القيم، مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين، دار الحديث، القاهرة، ج٢ص٤٩٥.

(٢) الهروي، منازل السائرين إلىٰ الحق المبين، شرح عفيف الدين التلمساني، مطبعة أمير، قم، ط١، ١٤١٣ قمري، ج١ص٣٣٦.

علىٰ أنَّ رجوعَ العلم اللَّدُنّي إلىٰ الإلهام بالنِّسبة إلىٰ الوليّ، من شأنه أن يجعل حصوله للوليّ مشكوكاً غير مقطوع، وملتبساً علىٰ الولي نفسه قبل التباسه علىٰ غيره؛ لأنّ الإلهام إلىٰ الصالحين وإن كان يثبته جمهور العلماء[١]، إلا أن تمييزَه عمّا قد يلتبس به من وسوسةٍ وهجسٍ وحديثِ نفس[٢]، أمرٌ ليس بالهين، وهو ما جعل العلماء يتصدُّون لوضع علامات يتميّز بها الإلهام الرَّبانيّ إلىٰ الأولياء عمَّا قد يلتبس به مما عداه كتمييزهم الإلهام الرَّبّانيّ بأنّه لا يقع علىٰ الحدود الشّرعية، ولا يتجاوز به إلىٰ ارتكاب المعاصي، ولا يخطىء أبداً، ولا يحصل خلاف من العبد فيه[٣]،ولهذا فإنّ القطع بكون ما يحصل للوليّ من العلم بطريق الإلهام علماً لدنياً لا غير ، أمرٌ في غايةِ العسر والبعد؛ إذ لا قطع

(١) منهم السرّخسي والنسفي والدبوسي وابن نجيم والشاطبي والزركشي والآمدي والرازي وابن حجر والتفتازاني والغزالي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم، انظر: السمرقندي، ميزان الأصول، تحقيق محمد زكي، وزارة الأوقاف، قطر، ط٢، ١٩٩٧م، ص٦٧٩ الدبوسي، الأسرار في الأصول والفروع في تقويم أدلة الشرع، تحقيق محمود توفيق، دار المصطفىٰ، ١٩٨٤م، ج٢ص٨٨٣ والسمعاني، قواطع الأدلة، تحقيق عبدالله الحكمي، مكتبة التوبة، الرياض، ط١، ١٩٩٨م، ج٥ص١٢٠ وابن تيمية، مجموع الفتاوىٰ، جمع عبدالرحمن النجدي، عالم الكتب، السعودية، ١٩٩١م، ج١١ص٢٠٥و٢٠٨ وابن القيم، مدارج السالكين، ج١ص٦٩.

(٢)انظر هذه الأنواع مما يتوهم أنه إلهام في : القشيري ، الرسالة القشيرية ، تحقيق معروف زريق ، دار الخير ، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص٨٤.

(٣) انظر: هذه العلامات للإلهام الرباني في: ابن القيم، مدارج السالكين، ج١ص٧٤-٧٥، والقشيري، الرسالة القشيرية، ص٨٤.

مع قيام الاحتمال والشكّ.

وبالجملة، فإنّ الخلاصةَ فيما يتعلَّقُ بالعلم اللَّدُنّي أمران:

الأوّل: أنّ العلم اللَّدُنّيّ علمٌ وهبيٌ من ربّ العالمين سبحانه، وليس كسبياً؛ ولهذا فإنّ الشَّرطَ في صحّة تسميةِ العلم لدنياً أن يقومَ الدَّليلُ القطعيُّ على أنَّه من لدن ربِّ العالمين حقّاً، وأنّه موهوبٌ منه بلا كسب ولا سبب، فإن لم يقم هذا الدَّليل، لم تصحَّ تسميةُ العلم لدنياً؛ ولهذا فليس كلُّ مَن ادَّعى أنَّ علمَه لدنيٌّ سُلِّم له، ولا كلُّ مَن تكلَّم في حقائقِ الإيمان والأسماء والصِّفات ونحو ذلك فعلمه لدني. وهذا مع ملاحظةِ أنّ تحقُّق العلامات التي عدَّها بعضُ العلماء علامات للإلهام الرَّباني، ليس كافياً بمجردِه للقطع بكون العلمِ الحاصلِ بطريقِ هذا الإلهام لدنياً؛ أعني نظراً لبقاء الاحتمال والشكّ، وقصور تلك العلامات عن استبعادهما، ومع الشَّكّ فلا قطع، ومع عدم القطع فلا حكم باللدنية.

والثّاني: اشتراطُ قيام الدَّليل القطعيّ على أنّ العلمَ المدَّعى كونه لدنيً هو من عند الله حقَّاً ـ بلا كسب من العبد ولا سبب، وإلا لم يكن لدنياً ـ يرتب من جهة العلم: أن لا يُسمّى العلم الحاصل للأولياء بطريق هذا الإلهام علما **لدنيا**، حين أن العلم الحاصل للأنبياء بطريق الوحي يُسمّى علماً لدنياً. ويُرتب من جهة العمل: أن لا يصحَّ جعل العلم الحاصل للأولياء بطريق هذا الإلهام حجّةً في إثباتِ العقائدِ والأحكام الشرعيّة العلمية، حين أنّ العلمَ الحاصل للأنبياء بطريقِ الوحيّ يصحُّ حجّةً في إثبات ذلك.

فأمّا أنّ العلمَ الحاصلَ للأنبياء بطريقِ الوحي يُسمّىٰ علماً **لدنياً**؛ فلأن مع الأنبياء أعظم الأدلة والبراهين القاطعة علىٰ أن ما جاءهم من العلم إنما هو من لدن ربّ العالمين، وذلك ما شهدت به معجزاتهم التي أجراها الله علىٰ أيديهم، تصديقاً لهم في دعوىٰ أن ما جاءهم إنما جاءهم منه سبحانه .

وأمّا أنّ العلم الحاصل للأنبياء بطريق الوحي يصلح حجة في إثبات العقائد والأحكام الشّرعية العملية؛ فلأنّه لما قام الدليل القطعي علىٰ أن ما جاءهم من العلم هو من لدن ربّ العالمين، ولم يتطرّق إلىٰ ذلك شكّ ولا احتمال، فقد صحَّ لذلك دليلاً في إثبات العقائد والأحكام.

فأمّا أنّ العلم الحاصل للأولياء بطريق هذا الإلهام لا يُسمّىٰ علما **لدنيا**؛ فلتطرق الاحتمال والشك إلىٰ طريق حصوله؛ بما هي الإلهام الملتبس بالوسوسة والهجس، فإنّ العلم الحاصل بهذه الطريق الملتبسة لا يصحّ القطع بكونه علماً من لدن ربّ العالمين بلا توسط كسب ولا سبب، ومع عدم القطع بكونه كذلك، لا تصحُّ تسميته لدنيا، وإلا وقعنا في مظنّة الكذب علىٰ الله ـ ولو عن غير عمد ـ والدخول في متناوَل قوله سبحانه : ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فإنَّ كلَّ مَن قال إن هذا العلم من عند الله وهو علىٰ التحقيق كاذب في هذه النسبة، فله نصيب من هذا الذّمّ[١].

---

(١) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ج٣ص٤٣١.

وأمَّا أنّ العلمَ الحاصل للأولياء بطريق هذا الإلهام لا يصلح حجّـةً في إثبات العقائد ولا في إثبات الأحكام الشرعية العلمية؛ فلأنّ الوارد على القلب قد يكون إلهاماً ربانياً من الله سبحانه، وقد يكون وسوسة من الشيطان، وقد يكون هجساً وحديث نفس، وكلُّ شيء احتمل أن لا يكون حقاً لم يوصف بأنه حقّ، فلا يكون دليلاً، وكلُّ ما احتمل أن يكون حجّةً وأن لا يكون حجّة، فلا يكون حجّة مع الاحتمال، ولا يعتمد عليه من ثم في إثبات العقائدِ ولا الأحكام[1]، وبخاصّة أنّ العقائد لا تثبت إلا بقطعي، ولا قطع مع هذا النّوع من الإلهام.

على أنّ العلمَ الحاصلَ للصّالحين بطريق الإلهام المتحقِّق بعلامات الإلهام الرباني وضوابطه، وإن لم يسم علماً لدنياً ولم يكن حجّة في إثبات العقائد والأحكام الشرعية العملية، إلا أنه يصلح حجّة فيما عدا ذلك من المَحالِّ والموضوعات: كاستعماله في معرفة بعض حقائق العلم، وفهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومعرفة بعض الغيوب، ومكنونات الصدور، وخفايا الأمور، والتَّرجيح بين الأدلة المتعارضة، وغير ذلك من مثله[2].

---

(١) انظر: السمرقندي، ميزان الأصول، ص٦٨٢، وابن الهمام، التحرير، مع تيسير التحرير لأمير بادشاه، دار الفكر، بيروت، ج٤ص١٨٥.

(٢) انظر تفصيل ما يعمل فيه بالإلهام من المجالات وما لا يعمل بالإلهام فيه، في: الشاطبي، الموافقات، دار المعرفة، بيروت، ط١ ، ١٩٩٤م ، ج١ص٥٥٧و٥٦٢-٥٦٣ و٥٨٢-٥٨٣ وابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج١١ص٣١٩و٤٢٨، والقرضاوي، موقف الإسلام من الإلهام والكشف، مكتبة وهبة، القاهرة ، ط١، ١٩٩٤م ، ص٢٨.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي علَّمنا ما لم نَعْلَم، وبصَّرنا بالطّريق الأَقْوَم، وهدانا إلى الصّراط المستقيم، وأرشدنا إلى السّبيل الأعظم، والصّلاة والسّلام على نبيّه وحبيبه المصطفى سيدنا محمَّد، المنير لطريق العلماء، والموصل إلى نهج الأتقياء، وعلى آله وصحابته الكرام، وعلى مَن اهتدى بهديهم وسار على دربهم.

وبعد:

فإن من أفضل ما يشتغل به المؤمن في ليله ونهاره هو إرضاء الله جل جلاله برفع راية دينه من الجهاد في سبيله، ونشر علومه؛ لأن بهما قوام الدين واستمراره، والذود عن حماه.

فطلب العلم من أرفع القربات، وأفضل العبادات، وهو سبيل الأنبياء والأتقياء، وإرث النبيين والصالحين، فمَن حَصَّلَه نالَ أعلا المقامات، وترقّى إلى أعلا الدرجات، قال الحبيشي[1]:

فحِرفةُ العلم أجلُّ الحِرف   يَرقَى بها الفَتَى صدُوْرَ الغُرَفِ

---

(١) في نصيحة الطلاب (ص٣٨-٣٩).

فإنّه إرْثُ جميع الأنبيا وهو سلاح الأتقيا والأصفيا
ومُلجِمُ الأوغاد والأضداد ومُرْغِمُ الأعداءِ والحساد
وهو رفيعٌ مَن له يُوافقُ يسمو به إلى العُلا ويَسْبقُ
مُقَوِّماً لأمِره صغيراً مُقدِّماً لقدره كبيراً
لم تُوحِش الآوي إليه خَلْوَةٌ ولَنْ تَفُوتَ صاحبِيْهِ سَلْوَةٌ
فالعلمُ كنزٌ حافظٌ فلا يَضِلَ وشافعٌ يُرجَى لمن به عمل
يُكْسِبُه الطاعاتِ في حياته وشرفَ السُّمْعةِ بعد مَوْتِه
فالعلم خيرٌ من تُراث المال وكسبُهُ أَوْلى بكل حال
يزداد بالإنفاق ممّا أنفقه ويَنْقُصُ المال بأدنى نَفَقَهْ
والعلم حارسٌ من الشقاق والمالُ مَحْروس من السُّرّاق
وغايةُ العلم انتظامُ الأَمْر والدين والدنيا وحسن الذكر

وقد تغنّى العلماء قديماً وحديثاً بالعلم وفضله، وبيَّنـوا مكانتـه العليـة، وقدر أهله، ومن ذلك ما قاله ابن عصفور:

مع العلم فاسلك حيث ما وعنه فكاشف كل من عنده فهم
ففيه جلاء للقلوب من وعون على الدين الذى أمره حتم
فإنى رأيت الجهل يزرى بأهله وذو العلم فى الأقوام يرفعه العلم
يعد كبير القوم وهو وينفذ منه فيهم القول والحكم

وقال بعض الحكماء:

بنور العلم يكشف كل ريب ويبصر وجه مطلبه المريد
فأهل العلم فى رحب وقرب لهم مما اشتهوا أبدا مزيد

إذا عملوا بما علموا فكل له مما ابتغاه ما يريد
فإن سكتوا ففكر في معاد وإن نطقوا فقولهم سديد

ويطول المقام في سرد ما ورد من الآيات والأحاديث والآثار والأشعار والأقوال والفوائد واللطائف في فضل العلم، وعميم نفعه، وهذا مشهور معروف، فيكفينا ما سبق به الإشارة إليه من الأبيات، إلا أن النفوس تتفاوت في تحصيل الكمالات، والارتقاء في الدرجات، فلا يرغب المؤمن في طلب العلم حتى يرى ست خصال من نفسه:

أحدها: أن يقول إن الله أمرني بأداء الفرائض وأنا لا أقدر على أدائها إلا بالعلم.

الثّانية: أن يقول نهاني عن المعاصي وأنا لا أقدر على اجتنابها إلا بالعلم.

الثّالثة: أنّه تعالى أوجب عليّ شكر نعمه ولا أقدر عليه إلا بالعلم.

الرّابعة: أمرني بإنصاف الخلق وأنا لا أقدر أن أنصفهم إلا بالعلم.

الخامسة: أّن اللهَ أمرني بالصبر على بلائه ولا أقدر عليه إلا بالعلم.

السّادسة: إنّ الله أمرني بالعداوة مع الشيطان ولا أقدر عليها إلا بالعلم[1].

---

(١) ينظر: تفسير الرازي(١: ٤٦٣).

فمَن أمعنَ النّظرَ بهذه، وتعلَّقت نفسُه بخالقها عَلِمَ أن لا سبيلَ للنجاة من الدنيا إلا بإرضاء الله ﷻ، ولا بدّ لهذا من معرفة سُبُل رضاه ﷯، وهذا لا يكون إلا بالعلم، فتتعلَّق روحُه بالعلم الموصل إلىٰ رضوانه ﷻ.

وإننا نعيشُ في زمان تغيَّرت كثير من مفاهيمه الإسلامية الصحيحة، وانقلبت حقائقه، ونكصت رايات الحقّ فيه، وتعالم جهاله، وانخفض علماؤه، فلم يعد يدري طالب العلم كيف يفعل؟ وعلىٰ مَن يدرس؟ وماذا يقرأ؟ وكيف يعمل؟

وكنت بين الحين والآخر أضيء الطريق لبعض الأخوة الأحباب من الطّلبة النجباء بالكتابة عن شيء يُسهّل لهم السبيل وينيره، ويرفع الحَزَن ويزرع الأمل في قطف ثمار العلم ونيلها.

وهذا من أكثر ما يحتاج إليه الطلبة؛ ليأخذ بيدهم لطريق الحقّ والسداد، ويرشدهم إلىٰ الصواب، بتعليمهم أوليات العلم، وكيفية أخذه، والتعامل معه، والاستفادة منه، وهذا ما يسمّونه منذ القديم بآداب طالب العلم.

ومن أجمل مَن كتب فيها بعبارة موجزة مقتضبة الإمام الزرنوجيّ تلميذ صاحب «الهداية»، فإن كتابَه «تعليم المتعلم» هو العمدة في هذا الباب؛ لما شمل من الفوائد العظام، والفرائد الجسام، فأقبل عليه الطلبة والكملة درساً وتدريساً علىٰ توالي الدهور، ومرّ العصور.

واهتممت بإقرائه للطلاب في الدورات المختلفة من خلال اختصاره وتنظيمه وترتيبه مع زيادة فوائد ولطائف، كلُّ هذا ليناسب طلبة هذا الزمان، ويأخذ بأيديهم إلى الأمان.

وأحببت لعموم النفع ونشره أن أضع هذا المختصر لتعليم المتعلم مع مجموعة من المقالات والإرشادات التي لا بُدّ لطالب العلم منها في سلك واحد ونظم رائد؛ لتكون نوراً لِمَن أراد أن يسلك طريقَ العلم، فيسترشد ويستنصح بها، وسمَّيتُها:

ومضات النُّور في طلب العلم المبرور

جعلنا الله وإياكم من أصحاب هذا العلم المبرور: أي المقبول عند الله ﷻ الذي لا يخالطه مأثم، ولا يدخله شبهة ولا خيانة؛ لأنّ غايتَنا إرضاءه ﷻ، وكلُّ ما لا يحقّق ذلك نحن في غنىً عنه، وابتعادٍ منه.

فهاك يا طالب العلم هذه الومضات من نور القرآن والسنة، وكلام العلماء والأئمة، وإرشادات الحكماء والشعراء، في أسس العلم وسبله، تُبصِّرك بالطّريق، وتُريك السّبيل، وتوضِّح لك المنهج القويم، في تعريفك بنفسك، وكيفية رفع همّتها لتكون شعلة نار متوقدة تضيء، وتلهث للعلم بلا توانٍ، وتنظِّم لك أوقاتك، وتُمكِّنُك من استغلالها بكل لحظاتها وهمساتها، وتطلعك على الطريقة المثلى في تحصيل العلوم والفنون وشروطها التي يجب مراعاتها لِمَن أرادها.

وتبيِّن لك المقدار العظيم من التّوقير والإجلال الذي ينبغي أن تعامل به معلمك ومربيك، وتُحذِّرك من فرط اللسان نحو العلماء الذين وصفت لحومهم بالمسمومة، فمَن يقربها يهلك في الدنيا والآخرة، وتُعينك في تفهّم سبيل النّهوض بمدارسنا، والمشكلة الأكاديمية التي وقعت فيها دراستنا الجامعية، وآلية الخروج منها، وتَجعلك من حملة همٍّ رسالة الإسلام وأمانته، من خلال تعلُّم ما يجب عليك وتعليمه، وتُربِّي نفسَك على الفناء في العلم والتّعليم والدّراسة والكتابة بالتزام آداب الطلبة والكملة التي نصّ عليها السّابقون، ومشى عليها اللاحقون، فتفوز بالدرجة العليا، والمنقبة العظمى.

والله نسأل أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به العباد، ويعمَّ خيره في البلاد، ويغفر لي ولوالدي ولمشايخي وللمؤمنين والمؤمنات، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وكتبه

الدكتور صلاح محمد أبو الحاج

٤/ جمادى الأولى/ ١٤٢٨هـ الموافق ٢١/ أيار/ ٢٠٠٧م

الأردن/ عمان/ صويلح

الومضة الأولى:

همّ المسلم

إنّ الهَمّ: واحد الهُموم: وهو ما يَشغل القلبَ من أمرٍ يَهُمُّ به في نفسه بأن نواه وأراده وعزم عليه(١). وهمَّه الأمر هَمَّاً ومهمة إذا حَزَنَه وأَقْلَقَه(٢).

ولا بُدّ للإنسان من هُموم تحيطه، وتُشغل باله، وتُرهق ذهنه، وتُنهك جسمه كهمّ المعيشة والزواج والثراء والجاه والملك والخوف وغيرها، وليست هي مرادنا هنا؛ لأنها مذمومة وتوقع صاحبَها في المهالك، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: «مَن جعل الهموم همّاً واحداً: هم المعاد كفاه الله همّ دنياه، ومَن تشعَّبت به الهموم في أحوال الدنيا، لم يبال الله جل جلاله في أي أوديته هلك»(٣).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال ﷺ: «مَن كانت الدنيا همّه فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومَن كانت الآخرة نيّته جَمَعَ له أمرَه، وجعلَ غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»(٤).

---

(١) ينظر: المغرب(٢: ٣٨٩)، وتاج العروس(ص٧٩٤١).

(٢) ينظر: القاموس(٤: ١٩٤)، وتاج العروس(ص٧٩٤١)، والمختار(ص٧٠٥).

(٣) في سنن ابن ماجة(١: ٩٥)، والمستدرك(٢: ٤٨١)، وصححه، ومسند البزار(٥: ٦٨)، ومصنف ابن أبي شيبة(٧: ٧٦)، وحلية الأولياء(٢: ١٠٥).

(٤) في سنن ابن ماجة(٢: ١٣٧٥)، وسنن الترمذي(٤: ٦٤٢)، والمعجم الكبير(١١: ٢٦٦).

وإنّما المراد همّ الآخرة والمعاد وطلب رضاء الله تعالى بنصرة دينه والاستقامة عليه، فلا بُدّ للمسلم من همّ خشية الله ومخافته؛ ليسعى في سبيل النجاة من ناره، والحصول على جنته، ومعلوم أن الله ﷻ لم يخلقنا عبثاً، {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُون} [المؤمنون: ١١٥]، ولم ينزل علينا الشّرع لنلعب ونلهى به ونعرض عنه، {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ} [الأنعام: ٧٠]، وإنّما كان وجودنا من أجل عبادته والقيام على أمره: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون} [الذاريات: ٥٦]، وطالما أننا خلقنا من أجل غاية محددة فلا بُدّ من أن تكون همّاً لنا؛ لنسعى إلى تحقيقها، دون غيرها من هموم الدّنيا المذمومة كما سبق في الحديث.

وهذا الهمُّ المحمود هو همّ تحقيق العبودية لله تعالى، وذلك بالقيام على أوامره واجتناب نواهيه من خلال القيام بالعبادات المحضة كالصّلاة والصّيام والزّكاة وغيرها، وتطبيق أحكامه بيننا في الأكل والشّرب والزّواج والمعاملة والقضاء والحكم وغيرها.

وهذا يتطلَّبُ منّا نصرة دين الله ﷻ، وتغليبه على هوى أنفسنا، وقيام أمر الدّين يكون بالجهاد بسبله المختلفة، ونشر العلم بين المسلمين؛ لذلك جازت المسابقة فيما يعين على الجهاد والعلم بالمال، وعلَّل ذلك ابنُ عابدين رضي الله عنه(١) فقال: «لأنّ فيه حثاً على الجهاد وتعلّم العلم فإنّ قيام الدّين بالجهاد

---

(١) في رد المحتار(٦: ٤٠٣).

والعلم، فجاز فيما يرجع إليهما لا غير».

فعلى المسلم المحقِّق لعبودية الله ﷻ أن ينصرَ الإسلام بنفسه وماله وجاهه، ويعلم أنّ عمادَ هذا الدّين هو تعريفُ النّاس بأحكام الشّريعة، وترغيبهم فيها، فيتعلَّم العلم ليطبقه في حياته، ويبلِّغه إلى مَن حوله، ولا يدخر جُهداً جسدياً أو ذهنياً أو مالياً؛ لبثِّه بين المسلمين؛ لأنه لا سعادة لنا بدون التزام أحكام ديننا، وأولى أولويات هذا الالتزام هو إبلاغها للناس وتعريفهم بها، ولا يكون هذا إلا بتناقل العلم الشرعي بين المسلمين.

وينبغي للمسلم أن لا يعرى عن همِّ دينه، قال إمام المفسرين الطبري[1]: في تفسير قوله ﷻ: {وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا} [النازعات: ٢]: إن الله ﷻ أقسم بالناشطات نشطاً، وهي التي تنشط من موضع إلى موضع، فتذهب إليه، ولم يخصِّص الله ﷻ بذلك شيئاً دون شيء، بل عمّ القسم بجميع الناشطات، والهموم تنشط صاحبَها كما قال هميان بن قحافة:

أمست همومي تنشط المناشطا الشام بي طوراً وطوراً واسطا»[2]

فالهمّ ينشط صاحبه ويحفزه إلى المعالي، ويرفع من عزيمته، ويعلي همّته، وفي ذلك يقول الصّاحب بن عباد:

وقائلةٍ: لِمِ عرتْك الهمومُ وأمرك ممتثَلٌ في الأمَمْ ؟
فقلت: ذريني على غُصّتي فإنَّ الهموم بقدر الهِمَمْ[1]

(١) في تفسيره(١٢: ٤٢١).

(٢) وينظر: تفسير القرطبي(١٩: ١٦٨)، وزاد المسير(٩: ١٦).

وذكرها بعضهم في أَبيات أُخرىٰ فقال:

وقائلـــة لِمْ عرتـــك الهمـــوم ويجـلي بــك الهــمّ مهــما ادلهــم
وأمـــرك ممتثـــل في الـــورىٰ ونهيـــك مزدجـــر في الأمـــم
فقلـــت ذرينـــي عـــلىٰ غصـــتي فمـــثلي عـــلىٰ مثلهـــا لم يلـــم
ولا تنكـــري هـــمّ ذي همّـــة فـــإن الهمـــوم بقـــدر الهمـــم

فهذه الحكمة التي نطق بها الصاحب من أبلـغ الحكـم وأصـدقها فعـلىٰ قدر همة المرء يكون همّه؛ لأنّ مَن لا همّة لـه لا هـمّ لـه سـوىٰ النـوم والدعـة والمهانة وغيرها من خوارم المروءة بخلاف صاحب الهمة العالية، فإن له همّـاً كبيراً لنفسه ودينه وإخوانه المسلمين، ونفسـه دائـماً توّاقـة للمعـالي، فنجـاح الإنسان بقدر همّه وهمّته، قال بشار بن برد:

قـــاسِ الهمـــومَ تنـــلْ بـــه نُجحـــا واللیـــــلَ إِن وراءه صُـــــبحا[٢]

وصاحب الهمّ السّامي لا بُدّ له من تعب وعناء ومشقّة؛ إذ عليـه أن يغادرَ شهوات نفسه، ويتعبها ويرهقها؛ لتحقيق مراده وغايتـه، ولكـن هـذا التّعب والمشقّة يصحبه سعادة قلبيّة بالشّعور الـدّائم في نيـل رضـا المـولىٰ ﷻ الذي لا تعدوه سعادة دنيوية، فهو تعب لذيذ وطيب، قال المتنبي:

وأتعبُ خَلْقِ الله مَن زاد همّـهُ وقَصَّرَ عـما تشـتهي الـنّفسُ

(١) ينظر: الوافي في الوفيات(١: ١٢١٩).
(٢) ينظر: مجمع الحكم والأمثال(٢: ١٤).

وقال أيضاً:

حـا اللهُ ذي الـدّنيا مناخـاً لراكـبِ فكـل بعيـد الهـمِّ فيهـا معـذَّبُ[٢]

فالحقيقة التي ينبغي أن ندركَها أنه لا تستقيم الحياة السوية لصاحبها بلا همّ يحمله ويسعى لتحقيقه، وها هو الشاعر مسعود سماحة يعتبر أن الهمّ هو القُوت للرّجل فيقول:

أقسمتُ لو قدروا لي أن أعيش بلا همٍّ خلياً من الأوصابِ والعللِ

لكانَ همّيَ أن أسعى مباشرةً للهمِّ فالهمُّ مثل القوتِ للرجلِ[٣]

وهذه الدُّنيا الدَّنية التي نعيشها لا تستحقّ أن تكون همّاً لأصحاب الهمم العالية، بل يكون همّهم عظيماً على قدر هممهم، ولا أعظم من همّ حياة أبدية، والجري لنيلها، برفع لواء الإسلام في الجهاد في سبيله وتعليم أحكامه، وبذل الغالي والنفيس له، وهذا متيسّرٌ لأصحاب النفوس العظيمة الأبية، قال أبو فراس الحمداني:

تهـون علينـا في المعـالي نفوسـنا ومَن يخطب الحسناء لم يغلـه المهـر

وعلى قدر همّ النفس ترتقي في المعالي، فكلُّ نفس تسعى لتحقيق همّها، فمَن كان همّه دنيئاً، كان حاله إلى الدناءة أقرب، ومَن كان همّه سامياً، كانت نفسه إلى السمو تشتاق، فكلُّ حاله على قدر همّه وهمّته، قال أبو دلف:

---

(١) ينظر: خزانة الأدب(١: ٢٠٣)، وقرى الضيف(١: ١٨٠).

(٢) ينظر: مجمع الحكم والأمثال(٢: ١٤).

(٣) ينظر: مجمع الحكم والأمثال(٢: ١٥).

وليس فراغ القلب مجداً ورفعة ولكن شغل القلب للهمّ رافع
وذو المجد محمول على كلّ آلة وكل قصير الهمّ في الحيّ وادع[1]

فسارع أخي الحبيب إلى أن يكون العلم همّك؛ لأنه فيه قيام الدين، والنّجاة في الآخرة، وأزح عنك هموم الدنيا الفانية، ودعها لأهلها، وليكن شعارك دائماً أنه لا سبيل للنجاح والنجاة إلا بالهمّة العالية والهمّ لهذا الدّين. والله ولي التوفيق.

وما دام أن جناحي الصلاح والفلاح متعلقين بالهمّ والهمّة، فسيكون الحديث في الومضة التالية عن الهمّة العالية...

---

(١) ينظر: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني(١: ٢٠١).

الومضة الثّانية:

علو الهمّة

الهِمّة بالكسر: أول العزم، وقد تطلق على العزم القوي فيقال: له همّة عالية[١].

فعلو الهمّة منبع السعادة الدنيوية والأخروية؛ إذ بها يَنال المرء مقصده في دنياه، ورضا ربه في أخراه، فبالهمّة العالية تهون الصعاب، وتصغر العظائم، فهي أساس النجاح في كلِّ أمر، وهذا ما أشار إليه الله جَلَّ جَلَالُهُ: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا} [العنكبوت: ٦٩].

قال العلّامةُ ابنُ الجوزي رضي الله عنه: «تأمَّلت سبب الفضائل فإذا هو علو الهمّة، وذلك أمرٌ مركوز في الجبلة لا يحصل بالكسب، وكذلك خسّة الهمّة، وقد قال الحكماء: تُعرف همّة الصّبي من صغره، فإنّه إذا قال للصّبيان: مَن يكون معي؟ دلّ على علوّ همّته، وإذا قال: مع مَن أكون؟ دلّ على خسَّتها.

فأما الخسّة فالهمم فيها درجات؛ منهم مَن ينفق عمره في جمع المال ولا يحصّل شيئاً من العلم، ومنهم مَن يضمّ إلى ذلك البخل، ومنهم مَن رضي بالدون في المعاش، وأخسّهم الكَسَّاح[٢]، فأما علو الهمة في الفضائل فقوم يطلبون الرّئاسة ...

---

(١) ينظر: المصباح المنير(ص٦٤١).

(٢) الكَسَّاح: من كسح البيت إذا كنسه فهو كساح أي كناس، أو كسح الكنيف: إذا نزحه

ومن طلبة العلم مَن تعلو همّته إلى فنٍّ من العلوم فيقتصر عليه وهذا نقص، فأمّا أرباب النهاية في علوّ الهمّة، فإنهم لا يرضون إلا بالغاية، فهم يأخذون من كلِّ فنٍّ من العلم مهمّه، ثمّ يجعلون جُلَّ اشتغالهم بالفقه؛ لأنه سيد العلوم، ثم ترقيهم الهمم العالية إلى معاملة الحقّ ومعرفته، والأنس به»[1].

وطالما أن حديثنا عن العلم، ومعلوم أن طريقَه من أصعب وأطول الطّرق، فلا بُدّ له من الهمّة العالية ليصل إليه، قال الإمام الزرنوجي[2]: «ولا بُدَّ لطالب العلم من الهمّة العالية في العلم، فإن المرءَ يطير بهمّته كالطير يطير بجناحيه، والرأس في تحصيل الأشياء: الجدُّ والهمّة العالية».

فالهمّة من صفات طالب العلم، كما قال الإمام النّووي رضي الله عنه[3]: «أن تكون همّته عالية، فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير، وأن لا يسوِّف في اشتغاله، ولا يؤخِّر تحصيلَ فائدة وإن قلَّت إذا تَمَكَّنَ منها، وإن أَمِنَ حصولها بعد ساعة؛ لأن للتأخير آفات؛ ولأنه في الزمن الثاني يحصل غيرها، وعن الربيع رضي الله عنه قال: «لم أر الشافعي آكلاً بنهار، ولا نائماً بليل؛ لاهتمامه بالتصنيف»».

فعلو الهمّة باعثٌ على أفضل الأعمال وأحسنها، والابتعاد عن أرذلها وأخسّها، قال صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله يحبّ معالي الأمور وأشرافها، ويكره دنيها

وأخرج ما فيه، وهي من المهن الدنيئة. ينظر: معجم لغة الفقهاء(ص٣٨١).

(١) ينظر: الفروع(١: ٥٣٤).

(٢) في تعليم المتعلم(ص٥٥).

(٣) في المجموع(١: ٦٩).

وسفاسفها»[(١)]. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «لا تصغرن همّتكم فإني لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم». وقال بعض الحكماء: «الهمة راية الجدّ». وقال بعض البلغاء: «علو الهمم بذر النّعم»[(٢)].

فالهمة هي المحفز والمسيِّرُ لصاحبها حتى قالوا: «فالذي يسيِّرُ العبد بإذن ربه إنما هو همّته، والهمّة إذا علت وارتفعت لم تلحقها القواطع والآفات كالطائر إذا علا وارتفع في الجو فات الرّماة ولم يلحقه الحصا ولا البنادق ولا السّهام، وإنّما تدرك هذه الأشياء للطّائر إذا لم يكن عالياً، فكذلك الهمّة العالية، قد فاتت الجوارح والكواسر، وإنما تلحق الآفات والدواعي والإرادات الهمّة النازلة، فأمّا إذا علت فلا تلحقها الآفات»[(٣)].

وكلما ارتفعت الهمّة علا شأن صاحبها، وارتقت نفسه عن الصغائر؛ «لأنّ علو الهمّة وصدق الإرادة والطلب من كمال الحياة، فهو سببٌ إلى حصول أكمل الحياة وأطيبها، فإن الحياة الطيبة إنما تنال بالهمّة العالية والمحبة الصّادقة والإرادة الخالصة، فعلى قدر ذلك تكون الحياة الطّيبة، وأخسّ النّاس حياة أخسّهم همّة، وأضعفهم محبّة وطلباً، وحياة البهائم خيرٌ من

---

(١) ينظر: المعجم الكبير(٣: ١٣١)، والمستدرك(١: ١١٢)، والمعجم الأوسط(٣: ٢١٠)، ومسند الشهاب(٢: ١٥٠)، وصححه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء(٣: ١٨٨)، وغيره.

(٢) ينظر: أدب الدنيا والدين(ص٣١٩).

(٣) ينظر: طريق الهجرتين(١: ٣٥٢).

حياته...»[١].

وطريق تحقيق الهمّة العالية هو الإخلاص لله ﷻ في القول والعمل حتىٰ قيل: «لقاح الهمّة العالية: النيّة الصحيحة فإذا اجتمعا بلغ العبد غاية المراد»[٢]؛ «لأنّ همّة العبد إذا تعلّقت بالحقّ ﷻ طلباً صادقاً خالصاً محضاً، فتلك هي الهمّة العالية التي لا يتمالك صاحبها: أي لا يقدر علىٰ المُهْلَة[٣]، ولا يتمالك صبره لغلبة سلطانه عليه وشدّة إلزامها إيّاه بطلب المقصود، ولا يلتفت عنها»[٤]؛ ولذلك قيل: «لا تكون الروح الصافية إلا في بدن معتدل، ولا الهمّة العالية إلا في نفس نفيسة»[٥].

ومما قيل فيها من الشعر:

«فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق

أي: صاحب الهمّة العالية والنفس الشريفة التواقة لا يرضى بالأشياء الدّنية الفانية، وإنّما همّته المسابقة إلىٰ الدّرجات الباقية الزاكية التي لا تفنىٰ ولا يرجع عن مطلوبه، ولو تلفت نفسه في طلبه ومن كان في الله تلفه كان علىٰ الله خلفه، حتىٰ قيل لبعض المجتهدين في الطّاعات: لِمَ تعذِّب هذا الجسد؟ قال: كرامته أريد.

---

(١) ينظر: مدارج السالكين(٣: ٢٦٣).

(٢) ينظر: الفوائد(١: ٢٠٠).

(٣) المُهْلة: من المَهل وهوالتُّؤدة والرفق، وتمهَّل في الأمر: اتَّأد فيه. ينظر: المغرب(ص٤٤٩).

(٤) ينظر: مدارج السالكين(٣: ٣).

(٥) ينظر: بدائع الفوائد(٣: ٧٥٠).

وإذا كانت النّفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: إن لي نفسا توّاقة ما نالت شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه، وإنّها لما نالت هذه المنزلة يعني الخلافة، وليس في الدنيا منزلة أعلى منها تاقت إلى ما هو أعلى من الدنيا يعني الآخرة.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم و تأتي على قدر الكرام المكارم

أي قيمة كل إنسان ما يطلب، فمَن كان يطلب الدنيا فلا أدنى منه، فإن الدنيا دنية، وأدنى منها مَن يطلبها، وهي خسيسة، وأخسّ منها مَن يخطبها»[1].

فإنّه لا ينالُ ما يُنال إلا بعلو الهمّة، فلا بُدَّ لطالب العلم من همّة تقهر النّفوس وتزيل الجبال وتحقق الآمال، وسبيل حصولها بعد الإخلاص لله ﷻ هو حمل همِّ الإسلام، وملازمة المشايخ والأخذ عنهم، والاقتداء بهم، ومصاحبة الصّادقين والصّالحين من طلبة العلم أصحاب الهمم، وكثرة القراءة والمطالعة في سير العلماء السابقين، فإن في الاطلاع على أحوالهم شحنٌ للهمم، ورفع للنّفوس. قال الشّاعر:

بالجد يدنو كل أمرٍ شاسع حاولته في مغرب أو مشرق
وبه ترى الأمر العسير ميسراً والجدّ يفتح كل باب مغلق

---

(١) ينظر: لطائف المعارف(١: ٢٦٨).

وطالما أنّ طالب العلم كان صاحب همٍّ للدّين، وهمّـة عاليـة في تحقيـق مراده، فإنه سيكون شعلة نار متوقدة في إضاءتها لمن حولها، وشـدّة نشـاطها، ورفعة أمرها، وهذا ما سيكون عنه الحديث في الومضة التّالية:

الومضة الثّالثة:

شعلة نار متوقدة

إنّ ما نراه من التقاعس العجيب لدى الطلبة في الراحة والدّعة وعدم استغلال أوقاتهم وأعمارهم في نصرة دين الله ﷻ بتحمّل مسؤولياته التي أنيطت بهم من السّعي في طلب العلم وتعليمه للمسلمين يرجع إلى أسباب عديدة منها: ضعف همّتهم وإرادتهم وعدم تعظيمهم العلم الذي يدرسونه، وعدم حملهم همّ الإسلام، والجري وراء الشعارات العاطفية الفارغة، وانتشار وسائل الإعلام المرئية وغير المرئية التي تستنزف الوقت وتشغل الذهن.

ومن المعلوم أنّه لا سبيل لحياة الأمة واسترجاع مجدها إلا بالسير على خطى سلفها الصّالح من العلماء العاملين، وعلى طالب العلم الفطن أن يكثرَ من القراءة في تراجمهم لشحن نفسه بالطاقة التي تمكِّنه من تحقيق مرامه، فَسِيَرُهُم هي الطاقةُ الحقيقية لنا، وفي هذه العجالة أحببت الإشارة إلى بعض العلماء الذين وصفوا بأنهم شعلة نار لشدّة اندفاعهم وحماسهم في طلب العلم.

وقد سبق من الدّكتور الفاضل عبد السّميع الأنيس أن جمعهم في مقالة[1] وسمّاها: «شعلة نار»، وممّا قال فيها: «ونجد في تاريخنا وصفاً رائعاً في

(١) لمجلة دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث/ الإمارات.

تشخيص الغليان العلمي الذي كانوا عليه، وهو قولهم في وصف عدد من العلماء: «شعلة نار»، ولنا أن نتخيل إذاً كيف كان إقبالهم على العلم واشتغالهم به وانصرافهم إليه واحتراقهم بحبّه، فهذه شذرات من سير هؤلاء الأئمة الأعلام تغذي القلب والعقل والروح، وتنهض بالهمّة، وتقدح العزيمة، وتبصّر المتأمل فيها بمسالك الخير ومواقع الرشد.

والذي يجمع بين هؤلاء الأئمة الأعلام هذا الوصف الجميل «شعلة نار» الذي أرجو أن يعود إلى صفوف طلابنا مرّة أخرى». وإليك أيها القارئ الكريم شيئاً من سير هؤلاء الأجلاء:

١. الإمام الحافظ سفيان بن عيينة رضي الله عنه (١٠٧-١٩٨هـ) قال النضر الهلالي: «كنت في مجلس سفيان بن عيينة فدخل صبيّ فكأن أهل المجلس تهاونوا به لصغر سنّه. فقال سفيان: {كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا} [النساء: ٩٤]، يا أبا نصر لو رأيتني ولي عشر سنين طولي خمسة أشبار ووجهي كالدينار، **وأنا كشعلة نار**، ثيابي قصار، وأكمامي صغار، وذيلي بمقدار، ونعلي كآذان الفار، كنت أختلف إلى علماء الأمصار مثل: الزهري وعمرو بن دينار أجلس بينهم كالمسمار، محبرتي كالجوزة، وقلمي كاللوزة، فإذا دخلت المجلس قالوا: وسعوا للشيخ الصّغير»[1].

---

(١) ينظر: تاريخ دمشق(٢٠: ٢٧٢).

٢. الإمام الحافظ عبد الغني الأزدي المصري رضي الله عنه (٣٣٢-٤٠٩هـ) قال البرقاني: «سألت الدارقطني لمَّا قدم من مصر هل رأيت في طريقك مَن يفهم شيئاً من العلم؟ قال: ما رأيت في طريقي إلا شاباً بمصر يقال له: عبد الغني كأنه **شعلة نار**، وجعل يفخم أمره ويرفع ذكره». قال العتيقي: «كان عبد الغني إمام زمانه في علم الحديث وحفظه، ثقة مأموناً ما رأيت بعد الدارقطني مثله»[1].

٣. الإمام الحافظ محمد بن علي الصوري البغدادي رضي الله عنه (٣٧٦-٤٤١هـ)، وقال عبد المحسن الشيحي: «ما رأيت مثله كان كأنه **شعلة نار** بلسان كالحسام القاطع». وقال غيث الأرمنازي: «رأيت جماعة من أهل العلم يقولون ما رأينا أحفظ من الصوري». قال السلفي: «كتب الصوري «صحيح البخاري» في سبعة أطباق من الورق البغدادي، ولم يكن له سوى عين واحدة»[2].

٤. الإمام الحافظ أبو سعد البغدادي الأصبهاني رضي الله عنه (٤٦٣-٥٤٠هـ)، قال الحافظ عبد الله بن مرزوق: «أبو سعيد البغدادي **شعلة نار**، وقال ابن النجار: أبو سعد إمامٌ في الحديث وفي الزهد، واعظ وكان إذا أكل طعاماً اغرورقت عيناه بالدموع، ثم يأكل ويقول كان داود عليه السلام يأكل ويبكي»[3].

---

(١) ينظر: تذكرة الحفاظ(٢: ١٤٠٨)، ومختصر تاريخ دمشق(١: ٢٠٦٦).

(٢) ينظر: تذكرة الحفاظ(٣: ١١١٥).

(٣) ينظر: تذكرة الحفاظ(٤: ١٢٨٥)، وتاريخ الإسلام(١: ٣٧٣١).

٥. **الإمام الحافظ أبو طاهر السلفي الأصبهاني** ﷺ **(٤٧٥-٥٧٦هـ)** قال أبو سعد: «كان السلفي ببغداد كأنه **شعلة نار** في التحصيل». وقال عبد القاهر الرهاوي: «كان له عند ملوك مصر الجاه والقوة والكلمة النافذة، وكان لا يبدو منه جفوة لأحد»(١).

٦. **الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر الدمشقي** ﷺ **(٤٩٩-٥٧١هـ)**، قال الحافظ أبو العلاء: « إنه لا يساجل الحافظ أبا القاسم في شأنه أحد، فلو خالق الناس ومازجهم كما أصنع إذاً لاجتمع عليه الموافق والمخالف، وإنه لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتسميع حتى في نزهته وخلواته، وما كان أبو القاسم إلا **شعلة نار** ببغداد من ذكائه وتوقده وحسن إدراكه، لم يجتمع في شيوخه ما اجتمع فيه، وعلى هذا النحو لازم ابن عساكر بغداد متتبعاً العلماء والفقهاء وكبار المحدثين مستمعاً إليهم، قارئاً عليهم، مكثراً في ملازمتهم، وقد استنفذ ما عند الشّيوخ من أحاديث، بالغ في طلبها منهم، فأتقن حفظها، وتلقى متونها»(٢).

٧. **محمد المغربي الأندلسي النحوي** ﷺ **(٨٠٦- ٨٤٠هـ)**، قال ابن حجر: «ولي قضاء حماة وأقام بها مدة ثم توجه إلى الروم فأقام بها وأقبل الناس عليه وكان **شعلة نار** في الذكاء كثير الاستحضار، عارفاً بعدة علوم

---

(١) ينظر: تذكرة الحفاظ(٤: ١٣٠١)، والوافي في الوفيات(١: ١٠٠٢).

(٢) ينظر: تذكرة الحفاظ(٤: ١٣٣١)، وتاريخ دمشق(١: ١٦).

خصوصاً العربية»[١].

فعليك يا أيها القارئ الكريم الاتصاف بوصفهم، والسير على طريقهم، والعمل بنهجهم لتسترشد في دنياك وآخرتك. والله الموفق.

وهذا الهمّ للدين، والهمّة العالية له، والاشتغال المتوقِّد حريٌّ أن يصرفه صاحبُه إلى العلم الشرعي؛ لأنه تركة الأنبياء، ووصية الأولياء لا سيما المحقَّق المنقَّح منه، المتجسد فيما تركه لنا سلفنا وخلفنا، فالفناء فيه من أسمى السُبُل لنهضتنا وعودتنا لديننا، وهذا هو موضوع الومضة الآتية:

---

(١) ينظر: إنباء الغمر (١: ٦٤٠).

الومضة الرّابعة:

الفناء في العلم
والعودة لكتب أئمتنا

إنّ النّجاحَ الحقيقي للإنسان في مجاله منوط بعد توفيق الله ﷻ بمدى اهتمامه وإخلاصه فيه، وهذا ينجرّ على المشتغلين بالعلم، فلا بُدّ لتفوق العالم في علمه من سلوكه المنهج الصحيح في فنّه، ومن إفناء ليله ونهاره في طلب العلم بالبحث والكتابة والتدريس وغيرها.

وإنّ طالبَ العلم إذا بَذَلَ جهدَه في الطلب والتحصيل، وتَحَمَّلَ المشاقّ والمتاعب، وغالبَ الصعابَ والعقبات، لا يخيِّبُ الله ﷻ مَسعاه، ولا يهضم النّاسُ حقَّه، ولا يتخلَّف عنه التفوّق والنبوغ، فالنبوغُ صبرٌ طويل.

وأما مَن ترجَّى الأماني وصاحبَ التواني، واستروح الراحة، واستحلى الرّفاهية، واستلذَّ المطاعم، واستجمل الملابس، واستحبَّ النوم الطويل، وشغلته تقلّبات الفصول عن الأخذ والتحصيل فما أبعدَ العلم منه! وما أنفَرَه عنه[1].

وتَحمّل هذه المشاقّ والصعاب يحتاج إلى علو في الهمّة، فمَن لم يكن صاحب همّة لا يمكن أن يَجتازَ القنطرةَ ويبلغَ الذروةَ ويحقِّقَ المرام، قال

(١) ينظر: الصفحات(ص٣٦٨-٣٦٩).

الحافظ ابن الجوزي[١]: «ما ابتلي الإنسان قط بأعظم من علو همّته، فإن مَن علت همّته يختار المعالي، وربما لا يساعد الزمان، وقد تضعف الآلة، فيبقى في عذاب، وإني أُعطيت من علو الهمّة طرفاً فأنا به في عذاب، ولا أقول لَيْتَه لم يكن، فإنه إنما يحلو العيشُ بقدْر عدم العقل، والعاقل لا يختار زيادة اللذّة بنقصان العقل!...»، وقال أيضاً[٢]: «مَن رُزِقَ هِمَّةً عاليةً يُعَذَّبُ بمقدار علوِّها كما قال الشاعر...:

ولكل جسم في النّحول بليةٌ وبلاء جسمي من تفاوت همتي

وبيان هذا أن مَن علت همّته طلب العلوم كلها، ولم يقتصر على بعضها، وطلب من كلِّ علم نهايته، وهذا لا يحتمله البدن، ثم يرى أن المرادَ العملُ، فيجتهد في قيام الليل وصيام النهار، والجمع بين ذلك وبين العلم صعب...».

وتحصيل العلم مرحلة صعبة شاقّة جداً، تنقطع دون بلوغها حيازيم الصبر، وتنحسرُ أمامها عَزَمات الرجال، ولا يصبر على اجتيازها إلا الأفذاذ الأبطال، ممَّن كان مُغرَماً بالعلم، ذائقاً لذَّته، عازماً على تحصيله ولو لَقِي في سبيله الألاقيَّ! غير مستسلم للكسَل والتواني، فقد قال سيدنا علي رضي الله عنه: «من أطاع التواني ضَيَّع الحقوق».

والعلم منقوله ومعقوله، في تحصيله مشاقّ وصعوبات كثيرة في فهمِهِ

---

(١) في صيد الخاطر (١: ٧٩).

(٢) في صيد الخاطر (ص١٥٤).

وحفظِهِ وإتقانه؛ لأن كلَّ علم له صلة قريبة أو بعيدة بعلم آخر، فالعلوم شجرة ذات أغصان متشابكة وأفنان متعانقة، لا يمكن أن يتقن المرءُ علماً منها دونَ أن يُلِمَّ أو يُتقِنَ ما يتَّصلُ به(١).

وما وصل علماؤنا السابقون إلى ما وصلوا إليه إلا بعدما أن أفنوا كلَّ أوقاتهم في سبيل الله ﷻ بالتعلم والتعليم، فها هو الإمام أبو يوسف يقول: «مات ابن لي فلم أحضر جهازه، ولا دفنه، وتركته على جيراني وأقربائي مخافة أن يفوتني من أبي حنيفة ﷺ شيء لا تذهب حسرته عليّ»(٢).

وها هو الإمام المحدث المنذري عندما تولّى مشيخة دار الحديث الكاملية ينقطع بها ويسكنها إلى آخر يوم من حياته نحو العشرين سنة، عاكفاً على التصنيف والتحديث والإفادة والتخريج، فما كان يخرج منها إلا لصلاة الجمعة، حتى إنه لمَّا مات أكبر أولاده الحافظ رشيد الدين محمد سنة (٦٤٣هـ)، صلَّى عليه فيها، وشيَّعه إلى باب المدرسة، وقال له: أَوْدَعتُك يا وَلَدي الله تعالى وفارقه(٣).

وعلَّق العلامة الشيخ المربي أبو غدة رحمه الله تعالى على هذا القصّة بقوله: «بمثل هذا الانقطاع الذي يدلُّ على عشق العلم والاحتراق به، يكون النّبوغ والإمامة في العلم، لا بدراسة ساعات معدودة بعشرين ساعة،

---

(١) ينظر: الصفحات(ص٣٦٣).

(٢) ينظر: قيمة الزمن(ص٣٠-٣١).

(٣) ينظر: جواب الحافظ المنذري(ص٢٦).

محدودة بـ(٤٥) دقيقة أو (٥٠) دقيقة للعلم الواحد وبعدها يقال له: هذا فراق بين وبينك!!».

ومعنى كلام الشيخ أن الدراسةَ الجامعيةَ وحدها لا تكفي لتكوين ملكة علمية ونضوج علمي لدى الطالب، فيجب عليه أن لا يغترَّ بالمواد المقرَّرة عليه في الخطة الدراسية، ويظنّ أنها ستؤهله إلى أن يكون عالماً، قادراً على الفتوى، وتصدر المجالس.

بل لا بُدّ أن يكون له مصادر أخرى يتلقّى منها معارفه: كالقراءات الخارجية المنضبطة ضمن منهج علمي صحيح يُحدده له أهلُ الاختصاص من ذوي الخبرة؛ لأن القراءة العشوائية من هنا وهناك دون مراجعة أَهل العلم وإن كانت لا تخلو عن فائدة، لكنَّها لا تكوّن ملكة علميّة صحيحة، ويمكن أن توقعَ صاحبَها في المهالك؛ لأن الكتبَ اشتملت على الغثِّ والسمين، والصحيح والباطل، ولا يميز هذا إلا أهل كلّ فنٍّ، فلا بُدّ من مراجعتهم لأخذ صفوة العلم وزبدته دون غثّه وباطله.

وكذلك لا بُدّ من الاعتماد على الدروس الخارجية من مجالس الشيوخ والدّورات وما شابه ذلك؛ لأنّ الدارسةَ الجامعيةَ تميل إلى حدٍّ كبير إلى الثّقافية أكثر من العلمية كما سيأتي؛ لازدحام المنهاج، وكثرة مواد غير التّخصص، في حين أنّ الدّورات والمجالس تكون مهتمة جداً بالتخصص، والتّعمّق فيه، وفهم دقائقه وخباياه.

وهناك سرّ دقيق لضرورة أخذ العلم من الأساتذة المهرة ممَّن كَمُلَت

أهليتهم؛ لأننا مثلاً في العلوم الشرعية نعتمد في فهمنا ودراستنا وأبحاثنا على المصادر القديمة، وعبارتها صعبة للغاية، وكثير منها يشبه الألغاز، فينبغي لَمن يدعي ضبط فنٍّ من هذه العلوم أن يتمكَّنَ من حلِّ عباراتها وكشف لطائفها، وبيان مدلولها، ولا يكفي في ذلك معرفة اللغة العربية فحسب؛ لأن لكلِّ فنٍّ اصطلاحاتُه الخاصّة به، وأسلوب أهله ومنهجهم في كتابته، يعرف من الأساتذة والمشايخ المتخصصين به كما سيأتي بيانه.

وهذا التّعظيم والتّقدير منّا لكتب سلفنا وخلفنا لما بذل فيها من جهد كبير؛ إذ أفنوا أوقاتهم وأعمارهم في تنقيح المسائل وتحقيقها وضبطها، ويكفينا للتمثيل على علمنا وعلمهم وكتابتنا وكتابتهم ما ذكره الأستاذ سعيد الأفغاني في مقدمته لترجمة «السّيدة عائشة رضي الله عنها»، المستخرجة من كتاب «سير أعلام النّبلاء» للحافظ الذّهبي؛ إذ قال: «أذكر أن الإمام الزركشي ـ في كتابه عن السّيدة عائشة رضي الله عنها: «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصّحابة رضي الله عنهم»، ذكر من الرواة عنها: اثني عشر ـ راوياً، وإني أضفت عليهم نحواً من ثمانين راوياً، جمعت أسماءهم في أعوام متطاولة، بعد الإطلاع على كتب الطبقات المخطوطة والمطبوعة، وعلى مصادر كثيرة جداً، حتى التي لا يظنّ أن يكون فيها شيءٌ عن السيدة عائشة رضي الله عنها، فأوصلت بعد هذا العَناء عدد الرواة عنها إلى التسعين، وأنا أرى أني أتيت بما لم يأت به الأولون والآخرون!

ولكنني لم أكد أقرأ هذه الرسالة للذهبي، وأراه قد زاد على هؤلاء التّسعين نحو المئة! وأدهشني أنه أورد أسماءهم مرتبة على الحروف...!

أقول: لم أكد أجد ذلك، حتى انطفأ فيّ ذلك الزَّهْو المُنْتَفِخ، وعرفت أني وألوفاً من أمثالي! مهما جَهَدنا لا نبلُغُ أن نكون من أصغر تلاميذ مؤرخينا من أهل الحديث، لقد وقفوا أنفسَهم على خدمة العلم، فأخلصوا له الخدمة، فآتاهم الله ﷻ في ذلك المعجزات».

وقال العلامة محمود شاكر: «ونحن أهل زمان أُوتوا من العجز والتّهاون! أضعاف ما أوتيَ أسلافُهم من الجِدّ والقوَّة!»(١).

ويصف لنا الشيخ أبو غدة رحمه الله دقّة وإحكام عبارات كتب السّابقين ممّا جعلها أحقّ بالدرس والإفتاء فيقول(٢): «هذه الكلمة العلمية التي دوَّنوها في الكتب، قد تعاوَرَت عليها الأنظار والأفكار، وتوجَّهَ إليها النقد والإقرار على مرِّ العصور، حتى نَضِجَتْ واحترقت، فكانت بعد تلك الجهود التي بُذِلَت في سبيلها: كحجرة الخاتم الجميلة، في الخاتم الجميل، في اليد الجميلة تَلْبَسُها تلك اليدُ في ليلة الفرح الأكبر.

ولذا أصبحت تلك الكلمة العلمية من المسلَّمات، فلا اعتراضَ عليها، ولا نَقْدَ يُوجَّهُ إليها، فهي قد استوفَت وجودها من الدراسة لها والدَّقّ عليها، والعصر لمعناها ومَبْنَاها، فهي الكلمة المقروءة المدروسة المعصورة المقطَّرة المقرَّرة، على تمادي القرون وتتابع النقاد والفحول، فلذلك تقع على السمع والقلب والفهم وقوع الطَّلّ والندَى على الأرض العطشى، وتُحرزُ القبول

---

(١) ينظر: صفحات من صبر العلماء(ص٣٧٦-٣٧٧).

(٢) في الصفحات(ص٣٨٤-٣٨٥).

والرضا، وتملأ جوانب النفس اقتناعاً وحُبُوراً وسروراً.

فاعرف يا أخي الكلمة العلميّة في كتب آبائنا وعلمائنا السابقين، ولا تظنّ أنها من جنس كلام أغلب الناس والعلماء اليوم، لا عمق ولا تأسيس، ولا فحص وتمحيص، ولا نَقْدَ ولا ترصيص، وإنما هي كلمات صَحَفيّة، من أناس صَحَفيّة، فتلك بليَّة وأيُّ بليَّة!...

فحذار أن تتعالَىٰ علىٰ المتقدمين والسابقين فيما تكتب ـ ناسخاً ماسخاً مختلِساً ـ مؤلِّفاً، وترىٰ نفسك أنك أتيتَ بشيء فات الأوائل ولم تستطعه الأواخر، فلا تَنزِلُ (نا) و(نحن) من لسانك وقلمك وذهنك، فتصاب بمرض نون الجماعة كما هي حال مَن ترىٰ من زعانف الفارغين، وطحالب التافهين المتعالمين!».

فإياك ثم إياك أن تغترَّ بنفسك وبما حصَّلت من العلوم، فلو قارنتها بنظر الإنصاف لا الإعجاب والاعتساف بعلم مَن سبقك لاستحييت وطأطأت رأسك ولم تجرؤ علىٰ النطق بعلمك، قال الحافظ ابن رجب[(١)]: «ومن علامات العلم النافع: أن صاحبَه لا يدّعي العلم، ولا يَفْخَرُ به علىٰ أحد، ولا يَنسُبُ غيرَه إلىٰ الجهل، إلا من خالف السنّة وأهلَها، فإنه يتكلَّم فيه غضباً لله ﷻ، لا غضباً لنفسه، ولا قصداً لرفعتها علىٰ أحد.

وأما من عِلمُهُ غير نافع، فليس له شغلٌ سوىٰ التكبُّر بعلمه علىٰ الناس! وإظهار فضل علمه عليهم، ونسبتهم إلىٰ الجهل، وتنقصهم ليرتفع بذلك

(١) في فضل علم مَن سلف علىٰ علم الخلف (ص٤٧-٤٨).

عليهم! وهذا من أقبح الخِصال وأردئها.

وربما نَسَب مَن كان قبلَه من العلماء إلى الجهل والغفلة والسهو! فيوجبُ له حُبّ نفسه وحُبّ ظهورها: إحسانَ ظنّه بها! وإساءةَ ظنّه بمَن سَلَف!

وأهل العلم النافع على ضدّ هذا، يسيئون الظنَّ بأنفسهم، ويحسنون الظّنّ بمن سَلَف من العلماء، ويقرُّون بقلوبهم وأنفسهم بفضل مَن سلف عليهم وبعجزهم عن بلوغ مراتبهم والوصول إليها أو مقاربتها، وما أحسن قول أبي حنيفة ﵁ وقد سُئِل عن علقمة والأسود ﵄: أيهما أفضل؟ فقال: والله ما نحن بأهل أن نذكُرَهم فكيف نفضِّل بينهم؟! وكان ابنُ المبارك ﵁ إذا ذكر أخلاق من سَلَف يُنشد:

لا تعرضَنَّ لذكرنا مع ذكرهم ليس الصحيح إذا مَشَى كالمُقْعد»

فمَن أراد سبيل النصح فلا يضيع شيئاً من أوقاته في غير رضا الله ﷻ بطلب العلم وتعليمه، وعليه أن يلزمَ طريق سلفنا في العلم والأدب ولينكبّ على كتبهم بالدرس والسير على نهجهم في التعلّم، فإن القومَ نبغوا وسادوا بذلك، بخلاف مَن تنكَّبَ الطريقَ وغيَّرَ وبدَّلَ فحالهم كما ترى، وأختم الكلام بهذين البيتين لأبي نصر الزَّوْزَني في طلب العُلى والترفُّع عن المذلّة ممّا ينبغي أن تكون عليه نفس طالب العلم:

ولا أقبلُ الدنيا جميعاً بذلَّةٍ ولا أشتري عِزَّ المراتب بالذُّلِّ

وأعشَقُ كَحْلاء المَدامع خِلقة لئلا ترى في عَينِها مِنَّة الكُحْل

ومَن يفني عمره ووقته في سبيل الله ﷻ بالعلم النافع والعمل اللامع لا بُدّ أن يكون منظماً لحياته، ومستغلاً لوقته، ومُدبراً لحاله حتى يتمَّ له مقصوده، وهو ما سنتحدث عنه في الومضة القادمة:

الومضة الخامسة:

استغلال الوقت

إنّ من أهم المهمات لطالب العلم صاحب الهمّة العالية والهمِّ لهذا الدين أن يستغلَّ كلَّ لحظةٍ من لحظات عمره، فلا يضيِّع شيئاً منها في غير مرضاة الله ﷻ، وهذا ما أرشدنا إليه مولانا ﷻ حيث قال في سورة العصر: {وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر:٣] قال سيدنا ابن عباس ﵄: «العصر: هو الدهر»[١]. وقال الفخر الرّازي[٢]: «هو الدّهر؛ لأنّ النبيَّ ﷺ أقسم بالدهر، ولأنّ الدهرَ مشتملٌ على الأعاجيب؛ لأنّه يحصل فيه السَّرّاء والضرّاء، والصِّحة والسَّقَم، والغنى والفقر... فكأن المعنى: والعصر العجيب أمره حيث يفرح الإنسان بمضيه لظنّه أنه وجد الربح مع أنه هدم لعمره، وإنه لفي خسر، ومنه قول القائل:

إنا لنفرح بالأيام نقطعها ... وكل يوم مضى نقصٌ من الأجل»

وقال أستاذنا الدّكتور صلاح الخالدي[٣]: «الله ﷻ يُقسمُ في هذه السورة بالعصر، والعصرُ هو الزّمان والدّهر... فأساسُ معنى العصر هو ضَغْطُ شيءٍ

---

(١) ينظر: تفسير البغوي(١: ٥٢٥).

(٢) في مفاتيح الغيب(١٦: ٦٢٠-٦٢١).

(٣) في الخطة البراقة(ص١١-١٣).

حتىٰ يَتَحَلَّب. تقول: عصرتُ الثوب، وذلك عندما تضغط عليه ليخرجَ منه الماء؛ ولهذا سمَّىٰ الله ﷻ السُّحُبَ: معْصِرات، كما وَرَدَ في قوله ﷻ: {وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا} [النبأ: ١٤]، وكأن هذه السُّحبَ المحمّلةَ بالماء تُعْصَرُ عَصْراً، ويُضْغَطُ عليها، فيخرج الماء منها، وينزل ثجاجاً مصبوباً.

وإذا كان عصر الشّيء: هو الضغط عليه لإخراج ما فيه، فإن زمانَ الناس وعُمرَهم عصر؛ لأنّه يجب عليهم أن يعصروه عصراً، ويضغطوا عليه ضغطاً، ليحسنوا الاستفادة منه، واستخراج منافعه وفوائده.

وعمر الفرد هو عصرُه الخاصّ به، الذي يجب عليه أن يعصرَه، ويحسنَ استغلالَه ومعايشتَه.

فاعصر عمرَك أيها الأخ المسلم عصراً، واضغط عليه ضغطاً، وجاهد نفسك، وابذل أقصىٰ جهدك، حتىٰ لا تُضيع هذا العمر المحدود، فإن لم تحسن عصرَ عمرك والاستفادة منه فسوف تندم علىٰ ضياعه!... فكل الناس يخسرون، إلا المؤمنين الصالحين.

يخسرون عصرهم وعمرهم وزمانهم؛ لأنهم يضيِّعون هذا العصر والعمر سدىٰ، ولا يحسنون الاستفادة منه، ولا يُحسنون عصرَه والضغطَ عليه، والانتفاع بما فيه من ساعات وأيام وشهور وأعوام!...».

ولا تغفل يا طالب العلم أنك سائر في طريق يوصلك إلىٰ أن تكون من ورثة الأنبياء، قال ﷺ: «العلماء هم ورثة الأنبياء»(١)، وأخبرنا نبينا المصطفىٰ ﷺ:

---

(١) ينظر: سنن أبي داود(٢: ٣٤١)، وسنن الترمذي(٥: ٤٨)، وصحيح ابن حبان(١: ٢٨٩).

«لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربِّه حتىٰ يُسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم»(١).

فعمرُ الإنسان ووقتُه أوّل ما يُسأل ويُحاسب عليه يوم القيامة، وما ذاك إلا لأنّه لم يعطَ له هكذا، وإنما من أجل الاستفادة منه في أعمال الخير والمعروف، قال ﷻ: {أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى} [القيامة: ٣٦]، بل إن كلَّ لحظةٍ من لحظات حياته مبتلىٰ وممتحنٌ فيها بالخير أو الشرّ، قال ﷻ: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الإنسان: ٢].

وأشار الله ﷻ لنا إلىٰ تنظيم حياتنا واستغلال أوقاتنا في كثير ممَّا خلق لنا، وممَّا أمرنا به، ومن ذلك آية الليل والنهار، فقال: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً} [الإسراء: ١٢]، ومنها العبادات المختلفة التي أمرنا الله ﷻ بها قال ﷻ: {إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا} [النساء: ١٠٣]، قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ﵁(٢): «والصّلاة تتكرر من المسلم والمسلمة في اليوم والليلة خمس مرَّات، فإذا أدَّاها المسلمُ في أوّل وقتها كما طُلبَت منه، غَرَسَت في سلوكه خلُق الحفاظ علىٰ الوقت، والدّقّة في

---

(١) في الترمذي(٤: ٦١٢)، وصححه، وسنن الدارمي(١: ١٤٥)، ومسند أبي يعلىٰ(١٣: ٣٥١)، والعلم لأبي خيثمة(١: ٢٢)، والمعجم الصغير(٢: ٤٩)، وغيرها.
(٢) ينظر: قيمة الزمن عند العلماء (ص١٠-١١).

المواعيد، والانتباه لتوقيت كلّ عملٍ بوقته المناسب له، الموصل إلى الغاية منه على الوجه الأتمّ الأكمل.

ومن هذا تبدو لنا الحكمة البالغة: لماذا خصَّ الله ﷻ ثم النبي ﷺ: الصلاة بالذّكر من بين سائر التكاليف الكثيرة المؤقتة؛ لأنها تتكرَّر كلَّ يوم خمس مرّات، ففي زمن يسير ينطبع سلوك فاعلها بخُلق ضبط الوقت، ودقّة الوَعد، وأداء كلّ عملٍ في ميقاته المخصَّص له على الوجه الأمثل، ويصير ذلك له عادةً وطبيعةً متبعةً في سلوكه وحياته.

وقد رسم الشّرع الحنيف التّوقيت في تكاليفَ كثيرة غير الصلاة فوقَّت في أحكام الحجّ والزكاة والصوم وزكاة الفطر والأضحية والسفر والتيمّم والمسح على الخفين والرّضاع والطّلاق والعدّة والرّجعة والنّفقة والدَّين والرّهن والضّيافة والعقيقة والحيض والنفاس وغيرها. وما ذلك إلا لمعنى هامّ رتبَّ الشّرع التوقيتَ عليه، ولَحَظَ المصلحةَ والنفع به....

فيجب على المسلم أن ينتبَه إلى الوقت في حياته، وإلى تنفيذ كلّ عمل من أعماله في توقيته المناسب، فالوقتُ من حيث هو معيارٌ زمني: من أغلى ما وَهَبَ الله تعالى للإنسان، وهو في حياة العالِم وطالبِ العلم رأس المال والربح جميعاً، فلا يسوغ للعاقل أن يضيِّعه سدىً، ويعيش فيه هَمَلاً سَبَهْلَلاً...».

ومن الطّرق التي ينصح بها لكيفية استغلال الوقت والاستفادة منه ما يلي:

أولاً: اعتقاد أنّ الوقت أغلى ما يملكه الإنسان، قال العلّامة عبد الفتاح

أبو غدة ﵁[١]: «اعلم أن الزمانَ أشرف من أن يضيَّع منه لحظة، فإن في «الصّحيح» عن رسول الله ﷺ: «مَن قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غُرِسَت له بها نَخْلَة في الجنّة»[٢]، فكم يضيع الآدمي من ساعاتٍ يفوته فيها الثواب الجزيل؟! وهذه الأيام مثل المزرعة، فهل يجوز للعاقل أن يتوقَّفَ عن البذر أو يتوانى؟...».

وقال الإمامُ ابنُ الجوزي ﵁: «واعلم يا بُنيَّ، أن الأيامَ تُبسط ساعات، والساعاتُ تبسط أنفاساً، وكلّ نَفَس خِزانة، فاحذر أن يذهبَ نفس بغير شيء، فترى في القيامة خِزانةً فارغة فتَندم!

وانظر كلَّ ساعة من ساعاتك بماذا تذهب، فلا تودعها إلا إلى أشرف ما يمكن، ولا تُهمِل نفسك، وعوِّدها أشرفَ ما يكونُ من العمل وأحسنه، وابعث إلى صندوق القبر ما يسرُّك يوم الوصول إليه».

وقال الحافظ ابن رجب ﵁ في ترجمة ابن الجوزي ﵁: «لم يترك فَنّاً من الفنون إلا وله فيه مصنَّف، وسُئل عن عدد تآليفه، فقال: زيادة على ثلاثمئة وأربعين مُصنَّفاً، منها ما هو عشرون مُجلداً، ومنها ما هو كراس واحد. وقال الموفق عبد اللطيف: كان ابنُ الجوزي ﵁ لا يضيع من زمانه شيئاً، يكتب في اليوم أربعة كراريس، ويرتفع له كلّ سنة من كتابته ما بين خمسين مجلداً إلى ستين»[٣].

---

(١) في قيمة الزمن(ص٦٠).

(٢) في سنن الترمذي(٥: ٥١١)، وصحيح ابن حبان(٣: ١٠٩)، والمستدرك(١: ٦٨٠).

(٣) ينظر: قيمة الزمن(ص٦٢-٦٣) عن ذيل طبقات الحنابلة(١: ٤١٢-٤١٣).

وقال الفقيه الشاعر الأديب عُمارة اليمني (ت٥٦٩هـ):

إذا كان رأس المال عمرَك فاحترِزْ عليه من الإنفاق في غير واجب
فَبَيْن اختلاف الليل والصُّبح مَعْرَك يكُرّ علينا جيشُهُ بالعجائب!

وقال الشاعر الأديب المصري أحمد شوقي:

دقَّات قلب المرء قائلة له: إن الحياةَ دقائقٌ وثَوان
فارفَع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكرُ للإنسان عُمْرٌ ثاني

وقال الأستاذ حسن البنا رضي الله عنه في مقالة بعنوان: «الوقت هو الحياة»: «يقال: الوقت من ذهب!! وهذا صحيح من حيث القيم المادية للذين لا يقيسون الوجود إلا بها، ولكن الوقت هو الحياة للذين ينظرون إلىٰ أبعد من ذلك.

وهل حياتك أيها الإنسان في هذا الوجود شيء، غير الوقت الذي يمضي ـ بين الوفاة والميلاد؟ وقد يذهبُ الذهب وينفدُ، ولكنك تستطيع أن يكون معك منه أضعاف ما فَقَدت، ولكن الوقت الذاهب والزمَن الفائت، لا تستطيع له إعادةً أو إرجاعاً!! فالوقت إذن أغلىٰ من الذهب، وأغلىٰ من الماس، وأغلىٰ من كلّ جوهرٍ وعَرَض؛ لأنه هو الحياة...»(١).

وقال الفقيه المالكي المشهور أبو الوليد الباجي رضي الله عنه(٢):

إذا كنت أعلم علماً يقيناً بأن جميع حياتي كساعه

(١) ينظر: قيمة الزمن(ص١٢٢-١٢٣).

(٢) ينظر: وفيات الأعيان(٢: ٤٠٨-٤٠٩).

فلـــم لا أكـــون ضـــنيناً بهـــا وأجعلهـــا في صـــلاح وطاعـــه

ثانياً: ترك التّسويف، وتأجيل القراءة والمطالعة والدراسة إلى الأيام القادمة، فإن هذا من أكبر مداخل الشيطان على نفس طالب العلم، قال العلامة ابن أبي جَمْرَة[١] في معنى الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك: «معناه: اقطع الوقت بالعمل؛ لئلا يقطعك بالتسويف». وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رضي الله عنه[٢]: «ويمكن أن يقالَ معناه: إنّك إذا لم تكن يقظاً للاستفادة من الوقت والانتفاع به، هلكت كما يَهلك من وُجِّهَت إليه الضربة بالسيف، فإن لم يكن يقظاً لردِّها والسلامة منها قطعته وأهلكته، فإن الوقت سيف قاطع، وبرق لامع. ولهذا قال القائل:

وكن صارماً كالوقت فالمَقْتُ في عَسَى وإياك عَلاًّ فهي أخطرُ عِلَّة»

وقال الشّيخ عبد الفتاح رضي الله عنه[٣]: «وقد يُخَيَّلُ لبعضهم أنَّ الأيامَ ستفرُغُ له في المستقبل من الشواغل، وتصفوا له من المكدِّرات والعوائق، وأنه سيكون فيها أفرغ منه في الماضي أيام الشباب، ولكن الواقع المشاهد على العكس من هذا أيها الأخ العزيز، فأُخبرك خبرَ من بَلَغ ذلك وعرفَه:

كُلَّما كَبِرَت سِنُّك، كَبُرَت مسؤلياتك، وزادت علاقاتك، وضاقت أوقاتُك، ونَقَصَت طاقاتك، فالوقتُ في الكبر أضيق، والجسم فيه أضعف،

(١) في بهجة النفوس(٣: ٩٦).

(٢) ينظر: قيمة الزمن(ص٢٤).

(٣) في قيمة الزمن(ص١١٦).

والصّحّة فيه أقلّ، والنشاط فيه أدنىٰ، والواجبات والشواغلُ فيه أكثر وأشدّ! فبادر ساعات العمر، وهي سانحة، ولا تتعلّق بالغائب المجهول، فكلّ ظرفٍ مملوء بشواغله وأعماله ومفاجآته».

وقال الأستاذ حسن البنا رضي الله عنه: «فيا أيها الأخ العزيز، اغتنم الوقت، فالوقت كالسيف، ودع التسويفَ فلا أضرَّ منه، وسَل الله التوفيق للعمل المقبول، والوقت الفاضل»[1].

وقال الوزير الصالح يحيىٰ بن هُبَيْرة:

والوقت أنفس ما عُنيتَ بحفظه وأراهُ أسهل ما عليك يضيع![2]

ثالثاً: إعطاء العلم كلَّك ليعطيَك بعضَه، والفناءُ في طلب العلم كما سبق، فلا يَعُدّ ساعات يقضيها مع الكتاب وفي الدرس، وإنّما يتحسَّرُ علىٰ كلِّ لحظةٍ تقضىٰ بعيدة عن الاستفادة والإفادة، وهذا هو دأب علمائنا الكبار، المشار إليهم بالبنان بين أقرانهم، قال الإمام الزرنوجي رضي الله عنه[3]: «وينبغي لطالب العلم ألا يشتغل بشيء آخر غير العلم، ولا يعرض عن الفقه، قال محمد بن الحسن رضي الله عنه: «صناعتنا هذه من المهد إلىٰ اللحد، فمَن أرادَ أن يتركَ علمنا هذا ساعة فليتركه هذه السّاعة». وهكذا ينبغي للفقيه أن يشتغل به في جميع أوقاته فحينئذٍ يجد لذّة عظيمة في ذلك».

---

(١) ينظر: قيمة الزمن(ص١٢٤).

(٢) ينظر: الأعلام(٩: ٢٢٢).

(٣) في تعليم المتعلم(ص٨٦-٨٧).

فها هو أبو هلال العسكري يقول[١]: «كان الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، أحد أذكياء العالم، المولود سنة (١٠٠)، والمتوفى سنة (١٧٠هـ) يقول: أثقل السّاعات عليّ: ساعةٌ آكل فيها»[٢].

وها هو الإمام أبو يوسف أول قاضي قضاة يلازم مجلس شيخه أبا حنيفة (١٧) سنة، أو (٢٩) سنة، ما فاتته صلاة الغداة معه، ولا فارقه في فطر ولا أضحى إلا من مرض، كما مرّ سابقاً.

ولا تنسَ قصّة الحافظ المنذري ﵁ بوداعه ابنه الذي مات عند باب المدرسة لئلا يضيِّع وقته في غير العلم كما سبق.

رابعاً: تقليل النّوم؛ فعلى المسلمين عامّة لا سيما طلبة العلم أن لا يضيعوا أوقاتهم في كثرة النوم، اقتداءً بنبينا ﷺ وأصحابه الكرام ﵃ قال ﷻ: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ} [المزمل: ٢٠]، وهذا هو دأبُ أئمتنا وسلفنا الصالح، قال ابن المبارك ﵁: «بلغنا عن أبي حنيفة ﵁ أنّه صلّى الصلوات الخمس أربعين سنة بوضوء واحد، وكان نومُه جالساً ينامُ لحظةً بين الظهر والعصر، وفي الشتاء ينامُ لحظةً من أوّل الليل، وكان يجمع القرآن في ركعتين. وقال: أبو حنيفة ﵁ أفقه الناس. وقال: ما رأيت في الفقه مثل أبي حنيفة ﵁»[٣].

---

(١) في كتابه الحثّ على طلب العلم والاجتهاد في جمعه(ص٨٧).

(٢) ينظر: قيمة الزمن(ص٢٨).

(٣) ينظر: الطبقات الكبرى(١: ٤٦).

وقال الحسن بن عمارة ﷺ بعد غسل أبي حنيفة ﷺ حين توفِّي: «غفر الله لك لم تفطر منذ ثلاثين سنة، ولم تتوسَّد يمينك في الليل منذ أربعين سنة»[(١)].

وقال الحماني ﷺ: «صحبت أبا حنيفة ﷺ ستّة أشهر فما رأيته صلى الغداة إلا بوضوء العشاء الآخرة، وكان يختم القرآن كلّ ليلة عند السّحر»[(٢)].

وقال محمد بن سلمة ﷺ: «إن محمد بن الحسن الشّيباني ﷺ جزأ الليلَ ثلاثة أجزاء: جزء للنوم، وجزء للصّلاة، وجزء للدّرس، وكان كثير السهر فقيل له: لم لا تنام؟ قال: كيف أنام وقد نامت عيون المسلمين تعويلاً علينا، وهم يقولون: إذا وقع لنا أمرٌ رفعناه إليه فيكشفه لنا، فإذا نمنا ففيه تضييع للدين»[(٣)].

وقال الذّهبي عن «شيخ الإسلام محيي الدين يحيى بن شرف النووي الشّافعي، ولد سنة (٦٣١)هـ ـ في بلدة نَوَا من حَوْرَان ـ وقدم دمشق سنة (٦٤٩)، فسكن في المدرسة الرواحية يتناول خبزَ المدرسة، ـ قال: وبقيت نحو سنتين لم أضع جنبي إلى الأرض فحفظ «التنبيه» في أربعة أشهر ونصف، وقرأ ربع «المهذب» حفظاً في باقي السنة على شيخه الكمال إسحاق بن أحمد»[(٤)].

خامساً: الانتقال من علم إلى علم في المطالعة؛ لأنّ النّفسَ تملّ وتسأم من

---

(١) ينظر: أبو حنيفة طبقته وتوثيقه(ص١٤٨).

(٢) ينظر: مناقب أبي حنيفة ﷺ للذهبي (ص١٣).

(٣) ينظر: بلوغ الأماني(ص٥٩).

(٤) ينظر: قيمة الزمن(ص٧١) عن تذكرة الحفاظ(٤: ١٤٧٢).

المواظبة على فنٍّ أو علم، والعلومُ متفاوتة فمنها الجاف الصعب، ومنها السهل اليسير، فينبغي لطالب العلم إن ملَّت نفسه من القراءة في كتب الفقه أو النحو أو العقيدة أن يقرأ في كتب الآداب والتاريخ وسير العلماء؛ لقربها من النفس؛ ولما فيها من شحن لهمّة الطالب نحو العلم، وحتى لا يضيع شيئاً من أوقاته في غير الإفادة والاستفادة، قال الإمام الزرنوجي[1]: «وينبغي لطالب العلم أن يستغرق جميع أوقاته، فإذا ملَّ من علم يشتغل بعلم آخر، وكان ابنُ عباس رضي الله عنهما إذا مَلَّ من علم الكلام يقول: هاتوا ديوان الشعر».

وقال طاشكبرى زاده رضي الله عنه[2]: «كان محمد بن الحسن الكوفي... لا ينام الليل، وكان يَضَعُ عنده دفاتر ـ يعني كتباً، فإذا ملَّ من نوع نظرَ في آخر، وكان يزيل نومَهُ بالماء ويقول: إن النومَ من الحرارة».

وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رضي الله عنه[3]: «وممَّا يحسن لفتُ النظر إليه في شأن الزّمن: أن العمل العلمي ينزَّل من الوقت الملائم له، فمن الأعمال العلمية ما يصلحُ كلّ وقتٍ وذهن؛ لخفَّته ويُسر القيام به، مثل النسخ والمطالعة الخفيفة والقراءة العابرة ونحوها، ممّا لا يحتاج إلى ذهن صاف ويَقَظَة تامّة وتفكير دقيق عميق.

ومن الأعمال العلمية ما لا يكتملُ حصوله على وجهه الأتمّ، إلاّ في

---

(١) ينظر: تعليم المتعلم(ص٨٩).

(٢) ينظر: مفتاح السعادة(٢: ٢٢٠).

(٣) ينظر: قيمة الزمن(ص١٠٢).

الأوقات التي تصفو فيها الأذهان، وتَنشَطُ فيها القرائح والأفهام، وتكثُرُ فيها البركات والنفحات، كساعات الأسحار والفجر والصباح وساعات هدأة الليل والفراغ التامّ والسكون الكامل للمكان.

فينبغي أن تنتهزَ هذه الساعات الصافية، والأوقات المباركة، لحلّ المشكلات العويصة، والمعضلات الصعبة، وتنقيح المسائل المتشابكة، وتصويب التصحيفات والتحريفات المستعصية، واستفتاح العبارات المغلقة الغامضة، وحفظ النصوص المستظهرة، وأمثال ذلك».

سادساً: الابتعاد عن الناس، وقلّة المعاشرة لهم، والتقليل من الارتباطات المشغلة مع الأصدقاء والأقرباء، فلا يصاحب إلا طالب علم يحاوره فيه، ويناقشه في مسائله، ويرفع همّته في طلب العلم، ويعينه عليه، قال الإمام الزرنوجي[1]: «ولا بدَّ لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع، ولهذا اختاروا الغربة»، وقال الشيخ العلامة عبد الفتاح أبو غدة[2]: «والذي يعين على اغتنام الزمان: الانفراد والعزلة مهما أمكن، والاختصار على السلام، أو حاجة مهمة لَمن يلقى، وقلّة الأكل، فإن كثرتَه سبب النوم الطويل وضَيَاع الليل. ومن نَظَرَ في سِيَرِ السلف، وآمَنَ بالجزاء، بَانَ له ما ذكرته».

قال الشاعر:

لقاءُ النّاس ليس يفيدُ شيئاً ‌‌ سوى الهَذيان من قيل وقال

---

(١) في تعليم المتعلم (ص٨٥).

(٢) في قيمة الزمن(ص٦٠).

فأقلل من لقاء الناس إلا … لأخذ العلم أو إصلاح حال[١]

وقال العلّامة الجوهري رضي الله عنه:

لو كان لي بدٌّ من النّاس … قطعت حبل النّاس باليأس
العِزُ في العُزْلة لكنّه … لا بدَّ للناس من النّاس[٢]

سابعاً: تنظيم أوقاته، بأن يكون له برنامجٌ خاصٌ فيما يقرأ؟ وأي وقت يقرأ؟ وما هي المدّة التي يحتاجها كلّ علم؟ وعليه أن يحاسب نفسه بالتزامه بما ألزم نفسه به، فيكون عنده برنامج يومي وأسبوعي وشهري وسنوي، فيتابع نفسه بإنجاز ما حدَّده لها كلّ يوم، وفي نهاية الشهر يرى هل أنجز ما حدده لنفسه طيلة الشّهر.

ثم يرسم ما عليه في الشهر التالي، وهكذا، وفي نهاية العام ينظر ما أنجز في هذه السّنة، وما ينبغي عليه أن يفعلَ في العام المقبل، ولا يغفل عن ملاحظة مدى مقدار ما تمّ من العلوم والأعمال بالنسبة لما حدد وخطط.

قال الشّيخ عبد الفتاح أبو غدة رضي الله عنه[٣]: «وإن أهمّ ما يساعد على اغتنام الوقت: تنظيم الأعمال والانحياش عن المجالس الفارغة، وترك الفضول من كلّ شيء، ومصاحبة المجدّين النبهاء الأذكياء المتيقظين للوقت والدقائق، وقراءة أخبار العلماء الأفذاذ أصحاب التراجم الحافزة، والتذاذ المرء بحلاوة

(١) ينظر: معجم الأدباء (١٧: ٢٨٦).
(٢) ينظر: السعاية على شرح الوقاية (١: ٢٣).
(٣) ينظر: قيمة الزمن (ص١١٣).

كسب الوقت في الإنتاج العلمي، والانغمار في متعة المطالعة والاستزادة من المعرفة والاطلاع وتنقيح المعلوم. فإن ذلك يُعرِّفك بقيمة الزمن، ويُلهِبُ فيك الحِفاظَ عليه، ويجعلك تَكْسِبُه ولا تُبيده، وتحافظُ عليه ولا تُضِيعه».

ثامناً: ترك الرّاحة والدّعة، والتّشمير عن السّاعد في طلب العلم والسّعي فيه، قال العلامة عبد الفتاح رضي الله عنه(١): «ومن المؤسف أنه قد انتشرَ في صفوف طلبة العلم اليوم: الكسل العقلي، وغلب عليهم إيثار الراحة والدَّعة على الجدِّ والدَّأب، وصارت الرفاهية وأنواعٌ من الفُضُول مَقْصِداً من مقاصد الحيارى عندهم، وغَدَت المُتَعُ مطلباً من مطالبهم، فلم يبقَ لديهم وقتٌ للدرس والتحصيل، وصارت حالهم تشبه حالَ مَن عَنَاه الإمام أحمد بن فارس الرازيُّ اللغوي (ت٣٩٥هـ) بقوله:

إذا كان يؤذيك حرّ المصيف ويُبْسُ الخريفِ وبَرْدُ الشتا
ويُلهيكَ حُسْنُ زمان الربيع فأخذُكَ للعلم قُلْ لي: متى؟!»

فنفس المرء كالطفل إن لم تشغل بمكارم الأمور وعظائمها، أشغلت صاحبها بسفاسف الأشياء وأدناها، قال رجل لمنصور الحلاج: أوصني، فقال: هي نفسك، إن لم تشغلها شغلتك(٢).

وقال الإمام الزّرنوجي(٣): «فينبغي لكلِّ أحد أن يشغل نفسه بأعمال

(١) في قيمة الزمن(ص١١٦).
(٢) ينظر: الإحياء(٤: ٥٧)، وتفسير الثعالبي(٤: ٣٠٦)، وتاريخ بغداد(٨: ١٣١).
(٣) ينظر: تعليم المتعلم(ص٨٥).

الخير حتى لا تشتغل بهواها، ولا يهتمّ العاقل لأمر الدنيا؛ لأن الهمَّ والحُزنَ لا يردُّ المصيبة ولا ينفع، بل يضرّ بالقلب والعقل والبدن، ويخلّ بأعمال الخير، ويهتمّ لأمر الآخرة؛ لأنّه ينفع». والله الموفق.

فيا صاحب الهمّ للدين والهمّة العالية المشعلة صاحبها ناراً في إفناء كلّ أوقاته وأزمانه في طلب العلم باستغلال كلّ لحظة من لحظاته ولمحة من لمحاته ينبغي عليك أن تصرفها فيما يجب عليك من العلوم أولاً بأول، فإن العلوم متفاوتة الدرجات ومختلفة الأحكام على ما ستطلع عليه في الومضة التّالية:

الومضة السّادسة:

الواجب على المسلم تعلّمه...

...وحكم تعلّم العلوم المختلفة

إنّ حياتَنا ومعاشَنا في هذه الدنيا سبيلٌ لنا لنيل رضا الله ﷻ، فهنيئاً لِمَن يعيش كلَّ أوقاته لله ﷷ، وهذا لا يتحقّق إلا بمعرفة ما يجب على المسلم لتحقيق رضاه ﷻ، وأكثر الناس عن هذا غافلون، وفي شهواتهم ورغباتهم الدنيوية منهمكون، فأودّ فيما يلي لفت الانتباه، وتذكير المؤمنين: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥]، لما عليهم من الواجبات في تعلّم هذا الدّين، فأقول:

إنّ تعلّم العلوم الدّينية والدّنيوية المختلفة يندرج في الأحكام الفقهية الخمسة المشهورة، قال ابنُ نجيم ﵁[(١)]: «تعلّم العلم يكون فرض عين: وهو بقدر ما يحتاج إليه لدينه. وفرض كفاية: وهو ما زاد عليه لنفع غيره. ومندوباً: وهو التبحّر في الفقه وعلم القلب. وحراماً: وهو علم الفلسفة والشعوذة والتنجيم... والسحر... ومكروهاً: وهو أَشعار المولدين من الغزل والبطالة. ومباحاً: كأشعارهم التي لا سخف فيها».

وفي «المبتغى» : «تعلّم العلم ينقسم إلى أربعة أقسام:

---

(١) في الأشباه(٤: ١٢٥).

١. منها: ما هو فرض عين: وهو مقدار ما يحتاج إلى إقامة الفرائض.

٢. ومنها: ما هو مستحبّ: كتعلم ما لا يحتاج إليه ليعلّمه مُحتاجاً إليه كالفقير يتعلّم كتاب الزكاة والمناسك؛ ليُعَلِّمَ مَن عليه الزّكاة والحجّ.

٣. ومنها: ما هو مباح: وهو تعلّم الزائد على ذلك للإفتاء.

٤. ومنها: ما هو مكروه: وهو التعلّم ليباهي به العلماء، ويماري به السّفهاء، ويأكل أموال الأغنياء، ويستخدم الفقراء»[1].

وذكرت في «نفحات السلوك على تحفة الملوك»[2]: «والعلم أنواع أربعة:

١. فرض: وهو تعلُّم ما يحتاجُ إليه لأداءِ الفرائض، ومعرفةِ الحلال والحرام في أحوال نفسه.

٢. ومستحبّ: وهو تعلُّمُ الزائد على ما يحتاج إليه ليعلِّمَه مَن يحتاج إليه، وهو أفضلُ من نفل العبادة، قال جَلَّ جَلَالُه: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} المجادلة: ١١، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال صلى الله عليه وسلم: «أفضل الصدقة أن يتعلَّمَ المرءُ المسلمُ علماً، ثم يعلّمه أخاه المسلم»[3]، قال الحَصْكَفِيّ[4]: «النَّظرُ في كتبِ أَصحابنا من غير سماع ـ أي على

(١) ينظر: غمز العيون(٤: ١٢٥).

(٢) (ص٣١٣).

(٣) في سنن ابن ماجة(١: ٨٩)، وفي فيض القدير(٢: ٣٧): قال المنذري: إسناده حسن لو صح سماع الحسن منه.

(٤) في الدر المختار(١: ٢٦-٢٧).

الشّيوخ ـ أفضل من قيام الليل، وتعلّم الفقهِ أفضل من تعلمٍّ باقي القرآن»؛ «لأنَّ حفظَ القرآن فرضُ كفاية، وتعلّم ما لا بُدّ من الفقه فرض عين»: أي ما يحتاجه المسلم من أحكام الطهارة والصلاة والصوم وغيرها من العبادات بالإضافة إلى ما يحتاج من الأحكام في معاملاته وحياته اليومية، فإنه يجب عليه أن يتعلّمه. وفي «التاتارخانية»: «ما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أَفضل من فقهٍ في دين، وفقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشّيطان من ألفِ عابدٍ، ولكلِّ شيءٍ عماد، وعمادُ هذا الدِّين الفقه»»[1].

٣. ومباح: وهو تعلُّمُ الزائد على ذلك للزينة والكمال؛ لأنه كلّما ازداد علم العالم تزداد زينته[2].

٤. وحرام: وهو التعلُّمُ ليباهي به العلماء، ويماري به السفهاء: أي يجادل به السّفهاء، ويأكل به أموال الأغنياء ويستخدم به الفقراء؛ لأنه سبب يتوصّل به إلى ما هو حرام، فيكون حراماً[3]، فعن كعب بن مالك ﵁ قال ﷺ: «مَن طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السفهاء أو يصرف به وجوه النّاس إليه أَدخله الله النّار»[4]. وعن أبي هريرة ﵁ قال

---

(١) ينظر: حاشية الخادمي على الدرر(١: ٤).

(٢) ينظر: هدية الصعلوك(ص٢٥٥).

(٣) ينظر: شرح ابن ملك على الوقاية(ق١٢٢/ أ)

(٤) فيسنن الترمذي(٥: ٣٢)، والصمت(١: ١٠٥)، والغيبة والنميمة(١: ١٥)، والدينار(١: ٦٢).

ﷺ: «مَن تعلّم علماً ممّا يبتغى به وجه الله ﷻ لا يتعلّمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»: يعني ريحها(١).

ومدار هذا التّقسيم انقسام المعلوم كذلك، إذ قيل: إن العلم تابع للمعلوم، فما يكون من المعلوم واجباً فعلمه واجب، قال الزرنوجي ؓ(٢): «إن ما يُتوسّل به إلى إقامة الفرض يكون فرضاً، وما يُتوسّل به إلى إقامة الواجب يكون واجباً».

وقال ساجقلي زاده ؓ(٣): «اعلم أن حكمَ العلم كحكم المعلوم فإن كان المعلوم فرضاً أو واجباً أو سنّة فعلمُه كذلك إذا توقّف المعلوم على ذلك العلم، وإنّما قيّدنا به؛ لأنه إذا لم يتوقَّف عليه لا يكون حكم العلم حكم المعلوم، فإن تجويدَ القرآن قدر ما يخلص عن اللحن الجلي فرض عين، لكن العلم المدون المسمّى بعلم التجويد ليس بفرض عين، بل فرض كفاية كما صرَّح به علي القاري، وسبب ذلك أن تجويد القرآن لا يتوقّف على معرفة ذلك الفنّ، بل يمكن تحصيله بمشافهة الشيخ المجوّد.

وإن كان المعلوم حراماً قطعياً أو مكروهاً تحريمياً أو تنزيهياً، فعلمه كذلك إن لم يكن المرء ولا غيره مظنّة وقوعه في ذلك المعلوم...».

---

(١) فيسنن أبي داود(٢: ٣٤٦)، وسنن ابن ماجة(١: ٩٢)، ومسند أحمد(٢: ٣٣٨)، وصحيح ابن حبان(١: ٢٧٩)، والمستدرك(١: ١٦٠)، وصححه.

(٢) في تعليم المتعلم(ص٢٠).

(٣)في ترتيب العلوم(ص٩٠).

فاختلاف حكم العلوم تابعٌ لتفاوت فائدتها والحاجة إليها، فمنها ما يكون تعلّمه فرض عين، ومنها ما يكون فرض كفاية، ومنها ما هو مستحب، ومنها محرّم، وهكذا. وتفصيل ذلك لا سيما فيما يجب على المسلم تعلمّه ولا يعذر بتركه والجهل به فيما يلي:

الأول: فرض العين فيما يجب تعلمه؛ هو علم الحال: وهو علم ما كلّفه الله ﷻ عبده في الحال الذي هو فيه، وما كلفه ثلاثة أنواع: اعتقاد وفعل وترك... من معرفة مسائل الإيمان وما فرض من الأَخلاق والأَفعال، وما حَرُم منهما[١].

فهو شامل لكل ما يحتاج المرء في الحال لأداء ما لزمه من المفترض عليه عيناً علمه: كالطّهارة لأداء الصّلاة، فإن أَراد التجارة يُفترض عليه تعلّم ما يُحترز به عن الرّبا والعقود الفاسدة، وإن كان له مال يُفترض عليه تعلّم زكاة جنس ماله؛ ليتمكن به من الأداء، وإن لزمه الحجّ يفترض عليه تعلّم ما يؤدّي به الحجّ؛ لأن الله ﷻ حكم ببقاء الشريعة إلى يوم القيامة، والبقاء بين الناس يكون بالتعلم والتعليم، فيفترض التعليم والتعلم جميعاً[٢].

ولما كان الناس في غفلة عن فرضية ووجوب تعلّم ما لا بُدّ لهم منه في أحوالهم من الأحكام الشرعية، فإنني أورد طرفاً من نصوص العلماء الدالّة على ذلك تنبيهاً للغافلين وإيقاظاً للهمم من سباتها:

---

(١) ينظر: ترتيب العلوم(ص٩٥).

(٢) ينظر: الكسب(ص٦٦)، والمبسوط(٣٠: ٣٦١).

قال العلامي ﷺ في «فصوله»: «من فرائض الإسلام تعلّم ما يحتاج إليه العبد في إقامة دينه وإخلاص عمله لله جَلَّ جَلالُه ومعاشرة عباده.

وفرضٌ على كلّ مكلّف ومكلّفة بعد علم الدين والهداية تعلّم علم الوضوء والغُسل والصلاة والصوم، وعلم الزكاة لِمَن له نصاب، والحج لِمَن وجب عليه، والبيوع على التجار ليحترزوا عن الشبهات والمكروهات في سائر المعاملات. وكذا أهل الحرف، وكلّ من اشتغل بشيء يفرض عليه علمه وحكمه وليمتنع عن الحرام فيه»(١).

وقال الزرنوجي ﷺ(٢): «اعلم أنه لا يفترض على كلّ مسلم طلب كلّ علم، وإنما يُفترض عليه طلب علم الحال، بأن يطلب علم ما يقع له في حاله في أي حال كان، فيفترض عليه تعلّم ما لا بُدّ له من أحكام الطهارة والصلاة ممّا يقع له، ويجب عليه بقدر ما يؤدي به الواجب...، ومثل ذلك تعلّم أَحكام الصيام والزكاة إن كان له مال، والحجّ إن وَجَب عليه، وكذلك البيوع إن كان يتَّجر. وكذلك يُفرض عليه علم أَحوال القلب، من التوكل والإنابة والخشية والرضا، فإنه واقع في جميع الأحوال...».

وفي «الفتاوى الهندية»(٣): «طلب العلم فريضة بقدر الشرائع وما يحتاج إليه لأمر لا بُدّ منه من أحكام الوضوء والصلاة وسائر الشرائع ولأمور

---

(١) ينظر: رد المحتار(١: ٤٢).

(٢) في تعليم المتعلم(ص١٩-٢٠).

(٣) ينظر: الفتاوى الهندية(٥: ٣٧٧).

معاشه وما وراء ذلك ليس بفرض، فإن تعلّمها فهو أفضل وإن تركَها فلا إثم عليه...».

وقال القاري ﵁[(١)]: «ويجب على كلِّ مكلّف تعلّم ما يحتاج إليه لإقامة الفرائض والواجبات، ولمعرفة العقد الصحيح من غيره في المعاملات والحلال من الحرام من المأكولات والمشروبات؛ لقوله ﷺ: «طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم ومسلمة»[(٢)]» .

وقال زكريا الأنصاري ﵁[(٣)]: «ويتعيَّن من ظواهر العلوم التي يجب تعلّمها لا دقائقها ممّا يحتاج إليه لإقامة فرائض الدين كأركان الصلاة والصيام وشروطهما؛ لأن مَن لا يعلمها لا يمكنه إقامة ذلك... وعبارة

---

(١) في فتح باب العناية(٣: ٣٢).

(٢) في سنن ابن ماجه(١: ٨١)، والمعجم الأوسط(٤: ٢٤٥)، والمعجم الصغير(١: ٣٦)، والمعجم الكبير(١٠: ١٩٥)، ومعجم الإسماعيلي(٢: ٦٥٢)، ومسند أبي يعلى(٥: ٢٢٣)، ومسند الشهاب(١: ١٣٦)، وغيرها. قال أحمد: لا يثبت عندنا في هذا الباب شيء، قال البزار: كل ما يروى فيها عن أنس غير صحيح، وقال البيهقي متنه مشهور وإسناده ضعيف، وروي من أوجه كلها ضعيفة، قال العراقي: قد صحح بعض الأئمة بعض طرقه، وقال المزي: إن طرقه تبلغ رتبة الحسن. قال السخاوي: وقد ألحق بعض المحققين: ومسلمة؛ وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كانت صحيحة المعنى. كما في تخريج أحاديث الأحياء(١: ٥٥-٥٧)، وكشف الخفاء(٢: ٥٦-٥٧)، وقال السيوطي في تبييض الصحيفة(ص٢٩٨): وعندي إنه بلغ رتبة الصحيح؛ لأني وقفت له على نحو خمسين طريقاً وقد جمعتها في جزء.

(٣) في أسنى المطالب(٤: ١٨٢).

الأصل: وإنما يتعيّن تعلّم الأحكام الظاهرة دون الدقائق والمسائل التي لا تعمّ بها البلوى». وقال[1]: «ولا يخفى أن تعلم ما يحتاج إليه لإقامة فرائض الإسلام كالوضوء والصلاة والصوم من فرائض الأعيان».

وقال العلوي رضي الله عنه[2]: «فرض العين: ما لا رخصة لمكلف في جهله، وهو علم ما تتوقف عليه صحّة إيمانه من الأصول الدينية، وعلم ظواهر ما يتلبس به في الحال ولو نفلاً من الأحكام الفقهيّة، فعلى كلِّ مكلّف قادر ـ أي على التعلّم ولو بالسفر ماشياً إن أطاقه ـ أن يعدّ تعلّم ما لم يصحّ إيمانه بدونه وما يحتاجه في نحو وضوئه وصلاته...».

وقال ساجقلي زاده رضي الله عنه[3]: «يفترض عيناً على المكلف المسلم طلب علم ضروريات الدين، وهي على ما في «شرح المقاصد»: ما تواتر كونه من الدين بحيث يعلمه عوام المسلمين من غير حاجة إلى نظر واستدلال: كسمعيات الإيمان، ولا يتوقف افتراض طلبها بوقت فيفترض عليه طلبها حين أمكن، كما يفترض عليه طلب علم كيفية أداء المفروضات حين افتراضها، وطلب علم التحرز عن الحرام في أمر باشره حين باشره».

وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: «إن تعلم ما يحتاج إليه في دينه فرض»[4].

---

(١) في الغرر البهية(٥: ١٣٠).

(٢) في الفوائد المكية(ص١٢).

(٣) في ترتيب العلوم(ص١٠٠)

(٤) ينظر: الفروع(٢: ٥٩٦).

وسئل أحمد بن عطاء رضي الله عنه عن قول النبي ﷺ: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم» فقال: علم الحال، وعلم الوقت، وعلم السرّ، فمَن جهل وقته وما عليه فقد جهل العلم الذي أمر ربّه جل جلاله[1].

ونقتصر على ما ذكر من أقوال العلماء في تعلّم علم الحال؛ لأنه انعقد الإجماع عليه، قال الخادمي[2]: «وقد أمر الله جل جلاله ونبيّه ﷺ بطلب العلم وانعقد الإجماع على فرضية تحصيل علم الحال». وقال[3]: «قال الله جل جلاله: {فَاسْأَلُواْ} أيها المكلفون بالأحكام الشرعية الظاهرية والباطنية {أَهْلَ الذِّكْرِ}: أي العلم، {إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} الأنبياء: ٧، والأصل في الأمر الوجوب، والأصل في المطلق حمله على الكمال، فكمالُ الوجوب هو الفرض، فيفرض على غير العالم طلب العلم من العالم، وفرضية الطلب تابعة لفرضية المطلوب، فعلم الحال فرض...لكن إنما يثبت الفرض بهذه الآية بعد أن كان المراد من الذكر هو العلم قطعاً، ومن العلم علم الحال قطعاً أيضاً وكلاهما محلّ عناية فافهم».

وقال البركوي[4]: «اتفق الفقهاء على فرضية علم الحال على كل من آمن بالله واليوم الآخر من نسوة ورجال...».

وإذا تأكدت هذه الفرضية لعلم الحال بالنقول الوافرة، والبراهين

---

(١) ينظر: تاريخ بغداد(٢: ٣٩٠).

(٢) في بريقة محمودية(١: ٢٦٠).

(٣) (٢: ١١٧).

(٤) في ذخر المتأهلين(ص٦٥).

السّاطعة، فينبغي بيان ما يشتمل عليه، وهو ثلاثة على العموم: العقيدة، والتّصوف، والفقه، قال ساجقلي زاده[١]: «أهم العلوم ما هو فرض عين على المكلّف قبل كلّ شيء، وهو علم التوحيد والصفات، ثمّ ما فرض عليه عيناً بعد ذلك في كلّ وقت كمعرفة فرائض الأخلاق ومحرماتها، ثم ما فرض عليه عيناً في بعض الأوقات كعلم الصلاة والصوم...».

وفي «تبيين المحارم»: «لا شك في فرضية علم الفرائض الخمس وعلم الإخلاص؛ لأن صحّة العمل موقوفة عليه، وعلم الحلال والحرام وعلم الرياء؛ لأن العابد محروم من ثواب عمله بالرياء، وعلم الحسد والعجب؛ إذ هما يأكلان العمل كما تأكل النار الحطب، وعلم البيع والشراء والنكاح والطّلاق لَمن أراد الدخول في هذه الأشياء، وعلم الألفاظ المحرمة أو المكفرة، ولعمري هذا من أهم المهمات في هذا الزمان؛ لأنك تسمع كثيراً من العوام يتكلمون بها يُكفر، وهم عنها غافلون، والاحتياط أن يجدد الجاهل إيمانه كل يوم...»[٢].

قال العزّ بن عبد السلام رضي الله عنه: «العلم الذي هو فرض لازم ثلاثة أنواع:

الأول: علم التوحيد: فالذي يتعيّن عليك منه مقدار ما تعرف به أصول الدّين فيجب عليك أولاً أن تعرف المعبود، ثم تعبده وكيف تعبد مَن لا تعرفه بأسمائه وصفات ذاته، وما يجب له وما يستحيل في نعته، فربما تعتقد

---

(١) في ترتيب العلوم(ص٨٩).

(٢) ينظر: رد المحتار(١: ٤٢).

شيئاً في صفاته يُخالف الحقّ فتكون عبادتك هباء منثوراً.

والنّوع الثّاني: علم السِّر: وهو ما يتعلّق بالقلب ومساعيه، فيفترض على المؤمن علم أحوال القلب من التوكل والإنابة والخشية والرضا، فإنه واقع في جميع الأحوال، واجتناب الحرص والغضب والكبر والحسد والعجب والرياء وغير ذلك...؛ إذ فرضية علمها متحقّقة في كلّ زمان ومكان في كل شخص.

والنّوع الثّالث: علم الشّريعة: وهو ما يجب عليك فعله من الواجبات الشّرعية، فيجب عليك لتؤديه على جهة الشرع كما أمرت به، وكذا علم كلّ ما يلزمك تركه من المناهي الشرعية لتتركه، وذلك شامل للعبادات والمعاملات، فكلّ مَن اشتغل بالبيع والشراء، وأيضاً بالحرفة فيجب عليه علم التّحرز عن الحرام في معاملاته، وفيما يكسبه في حرفته...»[1].

وتفصيل ما يفترض عيناً من هذه العلوم الثّلاثة ما يلي:

أولاً: في علم العقيدة:

قال الخادمي رضي الله عنه[2]: «إن تصحيح الاعتقاد داخل في علم الحال... وعلم الحال فرض عين فتركه حرام».

---

(١) ينظر: تفسير حقي(٥: ١٩٩)، وقريب منه منقول عن الغزالي في روضة الطالبين وعمدة السالكين(ص٤٨).

(٢) في بريقة محمودية(٦: ٢٣٤).

وقال النّووي رضي الله عنه(١): «فرض العين... فيما يتعلق بالعقائد يكفي فيه التّصديق بكل ما جاء به رسول الله ﷺ واعتقاده اعتقاداً جازماً سليماً من كلّ شكّ، ولا يتعيّن على مَن حصلَ له هذا تعلّم أدلة المتكلمين. هذا هو الصّحيح الذي أطبق عليه السلف والفقهاء والمحققون من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم فإنّ النبي ﷺ لم يطالب أحداً بشيء سوى ما ذكرناه وكذلك الخلفاء الرّاشدون، ومَن سواهم من الصّحابة رضي الله عنهم فمَن بعدهم من الصدر الأول، بل الصّواب للعوام، وجماهير المتفقهين والفقهاء الكفّ عن الخوض في دقائق الكلام مخافة من اختلال يتطرّق إلى عقائدهم يصعب عليهم إخراجها بل الصواب لهم الاقتصار على ما ذكرناه من الاكتفاء بالتصديق الجازم...».

وقال زكريا الأنصاري رضي الله عنه(٢): «تعلم ظاهر علم صفات الصانع جل جلاله وظاهر صحة اعتقاده التوحيد، ولا يعتبر فيهما العلم بالدليل، بل يكفي فيهما الاعتقاد الجازم، ولا يعتبر التوغل في علم الكلام؛ لأنه فرض كفاية. قال الإمام: ولو بقي النّاس على ما كانوا عليه من صفوة الإسلام لما أوجبنا التّشاغل به كما لم تشتغل به الصحابة رضي الله عنهم وربما نهينا عنه، فأما اليوم فقد ثارت البدع فلا سبيل إلى تركها تلتطم، فلا بُدّ من إعداد ما يُدّعَى به إلى المسلك الحقّ، وتزول به الشّبهة فصار الاشتغال بأدلة المعقول فرض كفاية».

---

(١) في المجموع(١: ٤٩).

(٢) في الغرر البهية(٥: ١٣٠).

ثانياً: في علم السّلوك والتّزكية (التّصوف):

قال السّيوطي رضي الله عنه في «شعلة النار»: «التصوفُ علم الحال لا علم المقال، وهو أن يتخلّق بمحاسن الأخلاق التي وردت السنة النبوية بها؛ ولهذا قالوا: التّصوف ارتكاب كلّ خلق سنّي، وترك كلّ خلق دنيء»(١).

وقال الزّرنوجي رضي الله عنه(٢): «يفترض عليه علم أحوال القلب من التوكل والإنابة والخشية والرّضا، فإنّه واقع في جميع الأحوال... وكذلك سائر الأخلاق نحو: الجود والبخل والجبن، والجرأة، والتكبّر، والتواضع، والعفّة، والإسراف، والتقتير، وغيرها، فإن الكبرَ والبخلَ والجبنَ والإسرافَ حرام، ولا يمكن التحرّز عنها إلا بعلمها وعلم ما يضادها، فيفترض على كلّ إنسان علمها...».

وقال النووي رضي الله عنه(٣): «أما علم القلب: وهو معرفةُ أَمراض القلب كالحسد والعجب وشبهها، فقال الغزالي معرفة حدودها وأسبابها وطبها وعلاجها فرض عين، وقال غيره: إن رزق المكلّف قلباً سليماً من هذه الأمراض المحرمة كفاه ذلك ولا يلزمه تعلّم دوائها، وإن لم يسلم نظر إن تمكّن من تطهير قلبه من ذلك بلا تعلّم لزمه التطهير كما يلزمه ترك الزنا ونحوه من غير تعلّم أدلة الترك، وإن لم يتمكن من الترك إلا بتعلّم العلم المذكور تعيّن حينئذٍ».

---

(١) ينظر: سراج الظلمات(ص٥٠).

(٢) في تعليم المتعلم(ص٢١-٢٣).

(٣) في المجموع(١: ٤٩).

وسئل سهل رضي الله عنه عن معنى قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، فقال: يعني علم الحال. قيل: وما علم الحال؟ قال: من الباطن الإخلاص ومن الظاهر الاقتداء، فمَن لم يكن ظاهره إمام باطنه، وباطنه كمال ظاهره، فهو في تعب من البدن[1].

ثالثاً: في علم الفقه:

قال النّووي رضي الله عنه[2]: «فرض العين: وهو تعلم المكلّف ما لا يتأدّى الواجب الذي تعين عليه فعله إلا به: ككيفية الوضوء والصلاة ونحوهما... ثم الذي يجب من ذلك كله ما يتوقف أداء الواجب عليه غالباً دون ما يطرأ نادراً فإن وقع وجب التعلّم حينئذٍ... أما البيع والنكاح وشبههما مما لا يجب أصله فإنّه يحرم الإقدام عليه إلا بعد معرفة شرطه، وكذا يقال في صلاة النافلة يحرم التلبس بها على مَن لم يعرف كيفيتها... ويلزمه معرفة ما يحلّ وما يحرم من المأكول والمشروب والملبوس ونحوها ممّا لا غنى له عنه غالباً وكذلك أحكام عشرة النساء إن كان له زوجة... ونحو ذلك».

وفَصَّلَ ذلك في «المجموع»[3]، فقال: «إذا أراد سفر حجٍّ أو غزو لزمه تعلّم كيفيتهما؛ إذ لا تصحّ العبادة ممَّن لا يعرفها ويستحبّ لمريد الحجّ أن يستصحبَ معه كتاباً واضحاً في المناسك جامعاً لمقاصدها ويديم مطالعته

(١) ينظر: تفسير التستري(١: ٢١٠).

(٢) في المجموع(١: ٤٩).

(٣) (٤: ٢٦٦-٢٦٧).

ويكررها في جميع طريقه لتصير محقّقة عنده، ومَن أَخلّ بهذا من العوام يُخاف أن لا يصحّ حجّه لإخلاله بشرط من شروط أركانه ونحو ذلك، وربّما قَلَّدَ بعضُهم بعضَ عوام مكّة وتوهم أنهم يعرفون المناسك محقّقة فاغترّ بهم، وذلك خطأ فاحش.

وكذا الغازي وغيره يستحب أن يستصحب معه كتاباً معتمداً مشتملاً على ما يحتاج إليه، ويتعلّم الغازي ما يحتاج إليه من أمور القتال وأذكاره وتحريم الهزيمة وتحريم الغلول والغدر وقتل النِّساء والصبيان، ومَن أظهر لفظ الإسلام وأشباه ذلك.

ويتعلّم المسافر لتجارة ما يحتاج إليه من البيوع وما يصحّ وما يبطل وما يحلّ ويحرم ويستحبّ ويكره وما هو راجح على غيره.

وإن كان متعبّداً سائحاً معتزلاً للناس تعلّم ما يحتاج إليه من أمور دينه.

وإن كان ممَّن يصيد تعلّم ما يحتاج إليه أهل الصيد، وما يُباح منه وما يحرم وما يُباح به الصيد، وشرط الذكاة وما يكفي فيه قتل الكلب والسهم ونحوهما.

وإن كان راعياً تعلّم ما يحتاج إليه وهو ما ذكرناه في حقّ المعتزل مع كيفية الرفق بالدواب.

وإن كان رسولاً إلى سلطان ونحوه تعلّم آداب مخاطبات الكبار، وجواب ما يعرض وما يحلّ من ضيافاتهم وهداياهم، وما يجب مراعاته من النّصح وتحريم الغدر ومقامه ونحو ذلك.

وإن كان وكيلاً أو عامل قراض ـ أي مضاربة ـ تعلّم ما يُباح له من السّفر والتّصرّف، وما يحتاج إلى الإشهاد فيه».

ومن علم الحال معرفة الحيض والنفاس والاستحاضة، قال البركوي رضي الله عنه (ت٩٨١هـ)(١): «معرفة أحكام الدماء المختصّة بالنساء واجبة عليهنّ، وعلى الأزواج والأولياء ولكن هذا العلم كان في زماننا مهجوراً، بل صار كأن لم يكن شيئاً مذكوراً، لا يفرقون بين الحيض والنفاس والاستحاضة، ولا يميزون بين الصحيحة من الدماء والأطهار والفاسدة...».

هذا في زمانهم فما بالك في زماننا، فإنه أصبح نسياً منسياً، ولم يعد يدرسه أساتذة الشريعة إلا مَن رحمه الله جل جلاله مع أنه ضمن المقررات الجامعية، بذكرهم أعذار واهية لا تسقط من الفرضية شيئاً؛ لا سيما أنه لا غنى عن معرفة أحكامه، قال الشرنبلالي(٢): «الحيض من غوامض الأبواب وأعظم المهمات لأحكام كثيرة كالطلاق والعتاق والاستبراء والعدّة والنسب وحلّ الوطء والصلاة والصوم وقراءة القرآن ومسّه والاعتكاف ودخول المسجد وطواف الحجّ والبلوغ».

الثّاني: فرضُ الكفاية من العلم: وهو ما إذا قام به البعض سقط الحرج عن الباقين إن حصل المقصود بفعل البعض رخصة وتخفيفاً،... والتكليف في فرض الكفاية موقوفٌ على حصول الظنّ الغالب، فإن غلبَ على ظنٍّ

(١) في ذخر المتأهلين(ص٦٥).

(٢) في المراقي(ص١٣٨)

جماعة أنّ غيرَهم يقوم بذلك سقط عنها الطلب، ... وفرض الكفاية من العلم ما تدعو إليه ضرورة ممّا لا يتمّ أمر المعاش والمعاد بدونه من الأحكام الشّرعية بحيث يصلح مَن تعلّمه من المكلفين للقضاء والإفتاء...»[1].

قال الزرنوجي رضي الله عنه[2]: «إن حفظَ ما يقع في بعض الأحايين فرضٌ على سبيل الكفاية إذا قام به البعض في البلدة سقط عن الباقين، فإن لم يكن في البلدة مَن يقوم به اشتركوا جميعاً في المأثم، فيجب على الإمام أن يأمرهم بذلك ويجبر أهل البلدة عليه كعلم الطب والفلك وغيرهما».

فهو يشمل كلّ علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا: كالطب، والحساب، والنحو، واللغة، والكلام، والقراءات، وأسانيد الحديث، وقسمة الوصايا والمواريث، والكتابة، والمعاني، والبديع، والبيان، والأُصول، ومعرفة الناسخ والمنسوخ، والعامّ والخاص والنص والظاهر، وكل هذه آلة لعلم التفسير والحديث، كذا علم الآثار والأخبار، والعلم بالرجال وأساميهم، وأسامي الصحابة رضي الله عنهم وصفاتهم، والعلم بالعدالة في الرواية، والعلم بأحوالهم لتمييز الضعيف من القوي، والعلم بأعمارهم، وأصول الصناعات والفلاحة: كالحياكة والسياسة والحجامة[3].

قال النّووي رضي الله عنه[4]: «فرض الكفاية: وهو تحصيل ما لا بُدّ للناس منه في

---

(١) الفوائد المكية (ص١٣).

(٢) في تعليم المتعلم(ص٢٣).

(٣)كما في رد المحتار(١: ٤٢).

(٤) في المجموع(١: ٥١).

إقامة دينهم من العلوم الشّرعية: كحفظ القرآن والأحاديث، وعلومهما والأصول والفقه والنحو واللغة والتّصريف ومعرفة رواة الحديث والإجماع والخلاف، وأما ما ليس علماً شرعياً ويحتاج إليه في قوام أمر الدنيا كالطب والحساب ففرض كفاية...»[1].

وفرض الكفاية مطلقاً: هو القيام بما يحتاج إليه عامّة الخلق من جهة المعاش أو المعاد، وفرض الكفاية من العلوم المدونة على ما ذكر في «الإحياء»: علم القراءات الصحيحة وعلم تفسيرها وعلم تجويدها ... وعلم الكلام ـ والمراد بالكلام هنا مقاصده، وهي العقائد مع أدلتها المختصرة التي صنعها المتكلمون، ويدخل فيه ما أجمع عليه أهل السنة مما ليس من ضروريات الدّين... .

وفرض الكفاية من العلوم هو مرتبة الاقتصاد... وهي في الفقه ببلوغ المرء درجة الفتوى، وبيان الحلال والحرام بين النّاس...، وفي العقائد معرفة عقائد أهل السّنة مع أدلتها النّقلية أو العقلية بحيث يتمكن من مناظرة المبتدع، مع عدم الاشتغال بأقوال المبتدعة وردّ أدلتهم إلا نادراً، وقس على الفقه والكلام باقي العلوم.

---

(١) **فائدة:** قال النووي في المجموع(١: ٥١): لو اشتغل بالفقه ونحوه وظهرت نجابته فيه ورجي فلاحه وتبريزه فوجهان: أحدُهما: يتعيّن عليه الاستمرار لقلّة مَن يحصل هذه المرتبة فينبغي ألا يضيع ما حصّله وما هو بصدد تحصيله وأصحّهما لا يتعين; لأن الشروع لا يغير المشروع فيه عندنا إلا في الحجّ والعمرة.

أما مرتبة الاقتصار في الفقه فلا تبلغ إلى درجة الفتوى، وفي العقائد تكون بمعرفتها بدون الاشتغال بالدليل، ولا يخفى أن مَن لم يشتغل بأدلة العقائد لا يقدر على دفع شبهات الناس في العقائد، ولا تندفع الحاجة العامّة بمرتبة الاقتصار(١).

الثّالث: المستحبّ من العلم: وهو شامل لمرتبة الاستقصاء في العلوم وهو التّبحّر فيها كما مرَّ سابقاً أن التبحر في الفقه وعلم القلب مندوب إليه، قال النّووي رضي الله عنه(٢): «وقد يكون تعلّم الفقه نافلة، وهو التبحر في أصول الأدلة والإمعان فيما وراء القدر الذي يحصل به فرض الكفاية وكتعلّم العامي نوافل العبادات لغرض العمل لا ما يقوم به العلماء من تمييز الفرض من النّفل فإن ذلك فرض كفاية في حقّهم».

فمن المندوب الاستقصاء في العلوم التي هي فروض كفايات سوى الاستقصاء في علم الكلام...، ومن المندوب تعلّم ما هو فرض كفاية من العلوم عند وجود القائم به...، وتعلّم المرء السنن والمكروهات التنزيهية الواقعة في حاله...، ومعرفة القراءات الشّاذّة؛ إذ لا معنى لكونها فرض كفاية... وكذا معرفة ما عدا الصّحيح من الأحاديث إذا لم يكن مقطوع الوضع...وعلم تعبير الرّؤيا(٣).

---

(١) ينظر: ترتيب العلوم(ص١٠٢-١٠٥).

(٢) في المجموع(١: ٥٢).

(٣) ينظر:ترتيب العلوم(ص١٠٩-١١٠).

الرّابع: المحرم من العلم: وهو علم الحرام الذي لا يقع في حال أحد فلا يخاف وقوع أكثر النّاس فيه، وهو تعلّم السحر والفلسفة في قطر لم يفشيا فيه، ولا يخاف على أكثر النّاس وقوعهم فيهما، ومنه الاستقصاء في علم الكلام، ومنه مجادلة الفرق الضّالة الإسلامية والفلاسفة في قطر لم تفش عقائدهم فيه، ومنه علم الموسيقى(١).

ومنه الشّعوذة: وهي لعب يرى الإنسان منها ما ليس له حقيقة كالسّحر، وأفتى العلامة ابن حجر في أهل الحِلَق في الطّرقات الّذين لهم أشياء غريبة كقطع رأس إنسان وإعادته وجعل نحو دراهم من التّراب وغير ذلك بأنّهم في معنى السّحرة إن لم يكونوا منهم، فلا يجوز لهم ذلك، ولا لأحد أن يقف عليهم(٢).

الخامس: المباح من العلم: مثل الأشعار التي ليس فيها ذكر الفسق، بل ذكر الأشياء المباحة مثل الجبال والوطن والفراق، وكذا تعلم الهندسة وتواريخ الأخبار وما يجري مجراها(٣).

ونخلص ممّا سبق أنه يفترض على المسلم طلب علم الحال، وهو ما كَلَّفَ اللهُ جَلَّ جَلالُه عبدَه في الحال الذي هو فيه سواء أكان عقيدةً أم سلوكاً أم فقهاً، وأن لا يغفل بالاهتمام بمستحب العلوم وفروض الكفاية منها على فرض

---

(١) ينظر: ترتيب العلوم(ص١١١-١١٢).

(٢) ينظر: رد المحتار(١: ٤٣).

(٣) ينظر: ترتيب العلوم(ص١١٨).

العين كما يفعل أهل زماننا بالانشغال بعلم التجويد مثلاً مع استحبابه عن علم الحال من العقائد والفقه والسلوك، وقد قيل: أفضل العلم علم الحال، وأفضل العمل حفظ الحال، وليعلم أن المسلم لا يعذر بالجهل في دار الإسلام.

قال العلوي[١]: «إن الأفضلَ للإنسان في كلِّ زمان بل الواجب المتعيّن عليه الاشتغال بما هو فرضٌ على الأعيان في الوقت ... ممّا يتوقَّفُ عليه أداء الواجبات الظاهرة والباطنة واجتناب المحرمات كذلك، وذلك يختلف باختلاف الناس والأحوال والأوقات قلّةً وكثرةً وزيادةً ونقصاً، فمن الواجبات الباطنة: الإيمان وما لا بُدّ منه في الاعتقاد والإخلاص ونحو ذلك، ومن الظاهر الصلاة والزكاة والصوم والحجّ وغير ذلك، ومن المحرمات الباطنة الملابسة غالباً للشكّ والرياء والعجب وسوء الظنّ ونحوها، والظاهرة كالظلم وأكل الحرام والمقالات الفاسدة.

فمن الواجب المتعيّن على كلِّ مسلم ومسلمة تعلُّم المسائل التي يغلب وقوعها في الواجبات والمحرمات من الملابسات المذكورة وغيرها ظاهراً وباطناً سواء كان التعلّم بقراءة الكتب أو بالسماع والتلقي أو غير ذلك....».

ونختم الكلام بنظم ما سبق في أبيات قالها الحبيشي[٢]:

والعلم يا بُنىّ فيما رُسِما إدراك ما من شأنه أن يُعلَما

---

(١) في الفوائد المكية(ص٣١).

(٢) في منظومة نصيحة الطالب(ص٣٠-٣٣).

على وفاق حاله في الواقع وعكسُهُ الجهل بلا منازع
وهو كما نَصّوا على قِسمين فرضُ كفايةٍ وفرض عين
فالعين نحو العلم بالصفات والطهر والصيام والصلاة
وهكذا الزكاةُ والحجُّ لَمَن كان له مالٌ لئلا يُفْتَتِنْ
والبيعُ والنكاحُ والمعاشرة وسائر الأعمال بالمباشرة
وعلم أَدْوَاءِ القلوب والرِّيا والعُجْبُ والكِبْرُ شِعارُ الأشقيا
وغيرُ ما ذَكَرْتُهُ الكفاية على الجميع يا ذوي الدراية
فهو من الصلاة نوعان فقط صلاتنا على جنازة تُحَطّ
والآخرُ المرسومُ بالجماعة فاكشِفْ عن الوَجْهِ الجَلِي قِناعهْ
وما سوى الصلاة كالتّجهيز لميتٍ في شَرْعِنا العزيز
والردُّ للسلام إن كان على مَنْ فوق واحدٍ كما قد نُقلا
والحرب للكفار في بلادهم وكفّهم بالسيف عن عنادهم
والأمر بالمعروف ممّا ذُكِرا والنهيُ عمّا شأنُهُ أن ينكرا
وهكذا تعلّم الأحكام كذا القيام يا ذوي الأفهام
بالحجج العلمية النقلية والحجج القطعية العقلية
لدفع زنديق وَرَدِّ مُبْتَدعْ ومَن على التَلبيْس في الدّين طُبعْ

وبعد هذا البيان لأحكام العلوم في التعلّم وما يجب منها، بعد الوقوف على المهام العظام للطالب بالهمّ والهمّة واستغلاله الوقت وغيرها ممّا مرّ ذكره وعرفانه، فإن الحاجة تدعو إلى معرفة السبيل الأسمى والطريقة المثلى في طرق تحصيل العلوم وتحقيق شروطها ليتيسّر الحصول عليها في أقصر وقت وأقل جهد...، وهذا هو محلّ كلامنا في الومضة الآتية:

الومضة السّابعة:

الطريقةُ المثلى في التفقّه والتعلّم...

...وشروطها

إنّ فضلَ العلم عظيم، ومنزلَته عالية رفيعة، كما بيَّنَ ربُّنا جَلَّ جَلَالُهُ ودلَّ عليه كلام رسولنا ﷺ وبه شهد الصحابة والتابعون لهم إلى يوم الدين رضوان الله عليهم أَجمعين، وإليه أَرشد العقلُ السليم، ولسنا هاهنا بصدد الكلام عن ذلك؛ إذ سيكون له حديث خاص، نتفوّح فيه ظلاله، ونستنشق منه عطره وطيبه.

وكلامنا هنا عن السّبيل والطّريق والشّرائط التي ينبغي أن يراعيها ويأخذ فيها كلّ مَن أراد تحصيل العلم والتنعّم به، ونحن أحوج ما نكون لذلك في هذه الأيام بعد أن أُشربت النفوس الدَّعَة، واستغرقت في سُباتها، وجَعلت من الرفاهية غاية، فتَراجَع حال النشء، وضعف التحصيل.

وانقلب الأمر في كثير من العلوم من العلمية إلى الثقافية في الدراسات الأكاديمية كما سيأتي، فلم يَعُدْ يُعْرَف من العلوم إلا العناوين، والمسائل العامّة، وقُلبت كثيرٌ من حقائق الفنون، فلا تُضبط ولا تُعْرَف حَقّ المعرفة.

في خضم كلِّ هذا أَحببت أن يكون لنا وَقْفَةٌ متأنيةٌ مع نصائح وإرشادات قدَّمها لنا سادتنا العلماء السابقون كالغَزالي وابن عبد البر وابن خلدون وطاشكبرى زاده وحاجي خليفة وسيد علي زاده وساجقلي زاده

والعلوي وغيرهم ممَّن كتبوا في هذا الباب، وأَطنبوا فيه بـالجواب، فجَمعْـتُ كلماتِهم ورتبتُها ونظمتُها للقارئ الكـريم، لينهـل مـن عَبِقهـا، ويسـتروح في ظلها، وأَضفت إليها ما أَفاض به خاطري ممّا نَوَّرَ اللهُ جَلالهُ به بصـيرتي، راجيـاً منه عَجَلَّ أن ينفع بها العباد، ويشيع خيرها في البلاد.

ونستهلّ الحديث بكلمة جامعة في أسس طلب العلم قبل الاستطراد في التفصيل والبيان، قال سقراط: «ينبغي للطالب أن يكون شاباً، فارغ القلب، غير ملتفت إلى الدنيا، صحيح المزاج، مُحباً للعلم بحيث لا يختـار عـلى العلـم شيئاً من الأشـياء، صـدوقاً مُنصـفاً بـالطبع، مُتـديناً أمينـاً عالمـاً بالوظـائف الشّرعية والأعمال الدّينية غير مخلّ بواجب فيها، ويحرم على نفسه ما يحـرم في ملّة نبيّه، ويوافق الجمهور في الرسوم والعادات، ولا يكون فَظّاً سيءَ الخُلـق، ويَرحم من دونه في المرتبة، ولا يكون أَكـولاً، ولا مُتَهتِكـاً، ولا خاشـعاً مـن الموت، ولا جامعاً للمال إلا بقـدر الحاجـة، فـإن الاشـتغالَ بطلـب أسـباب المعيشة مانع عن التعلّم»(١).

فهذه العبارة حري أن تكتب بماء الذهب، ولا يَغفل عنها كلّ مَن سَلك سبيل العلم لما فيها من الدقائق والفوائد والنصح الصادق ممّن اشتهر بـالعلم وشاع ذكره رغم توالي القرون؛ لاسيما إذا استحضرـ معهـا مـا ذكـره السـيد العلوي رضي الله عنه(٢): «إنّه لا بُدّ للعبد من أربعة أشياء: العلم والعمـل والإخـلاص

---

(١) كما في الكشف(١: ٤٦).

(٢) في الفوائد المكية(ص٣).

والخوف، فمَن لم يعلم فهو أَعمىٰ، ومَن لم يعمل بما عَلِمَ فهو محجوب، ومَن لم يخلص للعلم فهو مغبون، ومَن لم يلازم الخوف فهو مغرور، كما هو مقرَّر ومشهور» حتىٰ يكون لعلمه غاية ومقصد، وهو تحصيل رضا الله ﷻ، والفوز بجنّته.

وقال بعضُهم: المختصّ بالمتعلم من التوفيق أربعة أشياء: ذكاء القريحة، وطبيعة صحيحة، وعناية مليحة، ومعلّم ذو نصيحة، وبعضهم جعلها ستة، ولذلك قال:

أخي لن تنال العلم إلا بستة سأنبئك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغة وإرشاد أستاذ وطول زمان

وإذا جمع المتعلّم ثلاث خصال فقد تمّت النعمة علىٰ المتعلّم: العقل والأدب وحسن الفهم... والحاصل أن شروطَ العلم كثيرة فكن فيها علىٰ بصيرة، فإن الراحةَ والمطاعمَ الدسيمة واختلالَ العزم وفتورَ الهمّة لا تجلب إلا الغيبة والجهالة والغرور...»[1] وأما بيان ما أُجمل وتفصيل ما أُهمل ففي النقاط التالية:

أَوّلاً: الإخلاص لله ﷻ؛ بأن يخلص لهذا العلم في الطلب والإعطاء، ويقطع رجاءه من أحد غير الله ﷻ في نفعه، قال طاشكبرىٰ زاده رضي الله عنه[2]: «ينبغي أن ينوي في التّعلّم أن يَعمَلَ بعلمِه لله ﷻ واليوم الآخر، وأن يُعَلِّمَ

---

(١) كما في الفوائد المكية (ص٣١).

(٢) في مفتاح السعادة (١: ١٨-١٩).

الجاهل، ويوقظَ الغافل، ويرشدَ الغوي، ويؤيدَ مَن ليس بقوي، فإن التعلّمَ لغير الله ﷻ حرامٌ باطل، وطالب العلم لا للعمل به ضائع؛ إذ نفعه بحسن الاهتداء به في العبادة، فمَن لم يزدد بالعلم ورعاً وزهداً لم يزدد من الله ﷻ إلا مقتاً وبُعداً، وقال بعضُ العلماء الصالحين: الكلامُ إذا لم يخرج من القلب لم يصل إلى القلب».

فأيّ عمل لم تكن النيّة خالصة فيه لله ﷻ لا خير فيه؛ لانقطاع فائدته بإرضاء الله ﷻ، واستمرار نفعه إلى ما بعد الموت، فقد قال ﷻ: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [البينة: ٥]. وقال ﷺ: «إنّما الأعمال بالنّيات»[١].

وأيّ علم لم يعطه طالبه كلّ عنايته واهتمامه فلن يعطيه هذا العلم كلّ نفعه وخيره كما سيأتي.

وأيّ علم لم يعمل به صاحبه ويبذله لغيره فأيّ خير فيه إلا التباهي والتعالي، وهي طرقٌ موصلةٌ إلى غضب الله ﷻ، ويكفيك أن تذكر قوله ﷻ: {لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُون} [الصف: ٢]، وقوله ﷺ: «مَن سُئِل عن علمٍ فكتمه أَلجمه الله يوم القيامة بلجامٍ من نار»[٢].

ثانياً: تزكية النفس عن رذائل الأخلاق؛ إذ العلم عبادة القلب وصلاة السّرّ وقربة الباطن إلى الله ﷻ، وكما لا تصحّ الصلاة التي هي وظيفة الجوارح إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصحّ عبادة

---

(١) في صحيح البخاري(١: ٣).

(٢) في سنن أبي داود(٢: ٣٤٥)، وسنن الترمذي(٥: ٢٩).

وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف، وقال بعض المحقّقين: معنى قولهم: «تعلمنا العلم لغير الله ﷻ، فأبى العلم أن يكون إلا لله ﷻ»: أن العلم امتنع وأبى أن يحصل إلا أن يحصل النية لله ﷻ، وما حصل قبلها كان حديثاً يفترى[١].[٢]

وقال مالك رضي الله عنه: «العلم ليس بكثرة الرواية، ولكنه نور جعله الله ﷻ في القلوب»[٣].

وإذا كان العلم الشرعي نوراً يقذفه الله في قلوب المؤمنين الطائعين المخلصين[٤]، فلا بُدّ في المتفقه أن يكون صافي النفس من أدران الدنيا

---

(١) فإن قلت: أرى جماعة من العلماء والفقهاء المحققين برزوا في الفروع والأصول وعدوا من جملة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها؟ فيقال: إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علماً وإنما غناؤه من حيث كونه عملاً لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى. كما في الإحياء(١: ٦٣).

(٢) كما في مفتاح السعادة(١: ١٨)، والإحياء(١: ٦٢).

(٣) كما في جامع بيان العلم(٢: ٢٥).

(٤) **فائدة:** في ردّ إنكار العلم اللدني:

أفاض في الكلام فيها كثير من السابقين، وخصّصها الإمامُ الغزالي بتأليف خاص، اسمه الرسالة اللدنية، أكتفي بذكر بعض ما فيها لعموم النفع، قال (ص٥٧-٧٤): عن بعض العلماء أنه أنكر العلم الغيبي اللدني... فكيف يعلم علم التفسير فإن القرآن هو البحر المحيط المشتمل على جميع الأشياء وليس جميع معانيه وحقائق تفسيره مذكورة في هذه التصانيف المشهورة بين العوام، بل التفسير غير ما يعلم ذلك المدعي...فإن السلمي جمع شيئاً في التفسير من كلمات المحققين...، وتلك الكلمات غير مذكورة في سائر التفاسير... وكأنه ما علم أقسام

وشوائبها، مُخلصاً في طلب الحقّ والمعرفة، لا يقصد بذلك إلا وجه الله ﷻ، وأن يكون عدلاً ديناً يلتزم الطاعات ويجتنب المعاصي... وهذا ما ذكره الشافعي رضي الله عنه فقال:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي[1]

وأفاض الحبيشي فيما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم من تزكية نفسه وملازمة محاسن الأخلاق فقال[2]:

العلوم وتفاصيلها ومراتبها وحقائقها وبواطنها، وقد جرت العادة بأن الجاهل بالشيء ينكر ذلك الشيء...

واعلم أنّ العلم اللدني وهو سريان نور الإلهام بعد التسوية كما قال ﷻ: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} [الشمس: ٧] ، وهذا الرجوح يكون بثلاثة أوجه:

أحدها: تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظّ الأوفر من أكثرها.

والثاني: الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة...

والثالث: التفكّر، فإن النفس إذا تعلمت وارتاضت بالعلم ثم تفكرت في معلوماتها بشروط التفكر ينفتح عليها باب الغيب... فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يصير من ذوي الألباب، وتنفتح روزنة ـ أي طاقة ـ من عالم الغيب في قلبه فيصير عالماً كاملاً عاقلاً ملهماً مؤيداً... **{وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}**[النور: ٤٠] .

(١) ينظر: تكوين الملكة الفقهية(ص٩١-٩٢).

(٢) في نصيحة الطلاب(ص١٤-١٦).

وأن يكون حافظاً لله مبتَهلاً للشكر للإله
محافظاً علىٰ الفروض والسنن معتمداً بمَشْيه علىٰ السَّنَن
ولا يزالُ شأنُهُ الطهارهْ فهى لِمَن لازَمَها إنارَه
أحْرَصُ ما كان علىٰ مُرُوءَتِه من قادح يَخْدِشُ في عَدَالتِه
والمَشْيُ بالوَقار والسكينهْ لأهلِهِ سَجِيَّةٌ ثمينَه
مجانِباً مجالسَ الفُسَّاق وما يَجُرُّهُ إلىٰ الشِّقاق
كالهجْر في الكلام والجدال والقَدْح والخِصام للرِّجال
ما لم يكن لله فَلْيُخاصِمْ ولا يَخَافُ فيه لوْمَ لائم
وأن يكونَ حَسَنَ الأخلاق وذا تواضُع لِمَنْ يُلاقىٰ
لا يَعْرفُ الكِبرَ ولا سُوء الأدب ولا يصدُّه الحيا عن الطلب
فالكبرُ والحيا عن السّؤال هما حِجابان عن النَوَّال
والعجبُ والريا وتَسويفُ العَمَل والشُّحُّ والهوىٰ هَوَانٌ وَزَلَل
ولْيَحْذَرِ الغيبةَ والنّميمَة وسائر القبائح الذميمَهْ
والخوضَ في الباطل والخيانَهْ وما به تَرْتَفِعُ الأمانَهْ
والميلَ عن طريقةِ الإنصاف وعن سلوكِ مسلَكِ العَفاف
والأكلَ والشربَ إلىٰ أن يَمْتَلى فإنه مفتاحُ باب العِلَل
منها فَسَادُ الفَهْم والبَلادَهْ وَفَتْرَةُ الأعضا عن العبادَهْ

ثالثاً: أن يكون قصد المتعلّم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآل القرب من الله ﷻ والتّرقي إلىٰ جوار الملأ الأعلىٰ من الملائكة والمقربين،

ولا يقصد به الرئاسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران[١].

وفي «الكشف»[٢]: «وأَمّا طلبُ المال أو الجاه أو الركون إلى اللذات البهيمية فالعلم أعزّ من أن ينال مع غيره أو على سبيل التبعية؛ ولذلك ترى كثيراً من الناس لا ينالون من العلم قدراً صالحاً يعتدّ به لاشتغالهم عنه بطلب المنصب وأمثاله، وهم يطلبونه دائماً ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، ولا يفترون، وكأن ذكرهم وفكرهم تحصيل المال والجاه مع انهماكهم في اللذات الفانية، وعدم ركونهم إلى السعادة الباقية، ومناصبهم في الحقيقة مناصب أجنبية؛ لأنها شاغلة عن الشغل والتحصيل على القانون المعتبر في طريقه». وفي هذا يقول الحبيشي رضي الله عنه[٣]:

ويبتغي في العلم وَجْهَ الله لا المالَ والدنيا وحبَّ الجاه
ولا تعزُّزَاً على الأقران ولا تقرُّباً إلى السُّلطان
أَوْ كَيْ يُقال عالِمٌ كبيرُ ليسَ له بعلمِهِ نظير

فتحقيق رضاء الله جل جلاله، والوصول إلى الكمال البشري بأنصع صورة وأجمل هيئة هو غاية الطالب، وغير عاقل مَن يشقى كلّ هذا الشقاء في العلم وتحصيله لذات فانية، ووجهات فارغة لا تدوم لصاحبها، قال العلوي رضي الله عنه[٤]:

---

(١) ينظر: الإحياء(١: ٦٦).

(٢) (١: ٤٣).

(٣) في نصيحة الطلاب(ص١١-١٢).

(٤) في الفوائد المكية(ص٥).

«عليه أن يقصد بطلبه ما وضع ذلك العلم له فلا يقصد غير ذلك كاكتساب مال أو جاه أو مغالبة خصم أو مكاثرة».

وقال حاجي خليفة رضي الله عنه[١]: «العلوم ليس الغرض منها الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق على أنه مَن تعلَّمَ علماً للاحتراف لم يأت عالماً إنما جاء شبيهاً بالعلماء، ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد أقاموا مأتم العلم وقالوا: كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء يُنتفع بهم وبعلمهم وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل فيكون سبباً لارتفاعهم».

رابعاً: أن يقلِّلَ علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن، فإن العلائق شاغلة وصارفة {مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ} [الأحزاب: ٤]، ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق؛ والفكرة المتوزّعة على أمور متفرّقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ الزرع[٢].

وقد اشتهر بين العلماء، وتناقلوه على ألسنتهم: «العلم لا يعطيك بعضَه حتى تعطيَه كلَّك، فإذا أَعطيتَه كلَّك فأنت من إعطائه إيّاك بعضه على

(١) في الكشف(١: ٢٢).
(٢) ينظر: الإحياء(١: ٦٣).

خطر»[١]، وأضاف إليه ابن برية: «العلم أشدّ المعشوقين دلالاً، لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلّك...»[٢].

فما وصل مَن وصل من الأئمة والعلماء إلا لانقطاعهم للعلم ودرسه، كما سبق ذكره.

فعلى مَن رَغِب بالعلم ابتداءً أن يتركَ مجالس السهر والسمر، ويقلّل علاقاته مع الأَقرباء والأصدقاء بقدر الضرورة، فإنّ الإكثارَ منها مَضْيَعةٌ للأوقات ومُشغلةٌ للأذهان، ومُكثرةٌ للمنغصات، فيؤدِّي ما عليه من صلة للأرحام على قدر الحاجة، ويقتصرُ على صحبةِ أَهل العلم طلبةً وعلماءً، فإنّ مجالستَهم مُنعشةٌ للقلب ورافعةٌ للهمم ورافدةٌ للعلم.

وأمّا انتهاءً فمتابعة الناس في كسب الشهوات والجاهات صارفة عن العلم ومشغلة بأسباب الدنيا، لا سيما إن اهتمّ بتولي المناصب الإدارية التي لا نفع فيها إلا تضييع الأوقات، ففي «الفوائد المكية»[٣]: «من موانع العلم ولاية المناصب فإنّها شاغلة مانعة». فينبغي أن لا يعبأ بشيء منها؛ لأنّها من زخارف الدّنيا الزّائلة؛ إلا ما اضطر إليه لخدمة الطّلبة وتحقيق المنفعة، قال حاجي

---

(١) ينظر: مرآة الجنان(١: ١٧٥)، والجامع لأخلاق الراوي(٤: ٢٥٣)، والفقيه والمتفقه(٢: ٤٦٦).

(٢) ينظر: بغية الطلب(٣: ٣٨٤).؟

(٣) (ص٦).

خليفة[1]: «وأما الإقبال على الدنيا، وتقلّد الأعمال فلا شكّ أنه يمنع صاحبه عن التعلّم والتعليم».

خامساً: ترك الكسل والتّشمير لنيل المعالي، وإيثار السّهر في الليالي، وهذا أمر ليس بالهيّن إلا للنّفوس العظام، وأكثر النّاس في بحور الكسل غارقون، وعن ضفافه بعيدون، يمنون أنفسهم بالأماني الفارغة والأكاذيب المصطنعة، فأعذار وأسباب كسلهم عديدة منها:

١. **التّسويف**، فيؤجل كلّ شيءٍ للمستقبل، فإنّ ذلك رُبّما يخرم الآمال ويمنع الأشغال، فالوثوق بالمستقبل لا ينبغي لعاقل؛ لأن كلَّ يوم آت بمشاغله فلا يؤخر شغل يومه إلى غد، والإنسانُ كلَّما كَبِرَ كثرت عوائقه، قال الشّاعر:

أليس من الخسران أن لياليا ... تمرّ بلا شيء وتحسب من

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ... ندمت على التفريط في زمن البذر

٢. **ذكر الموت والخوف منه**، لكنه ينبغي أن يكون من جملة أسباب التّحصيل؛ إذ لا عمل يحصل به الاستعداد للموت أفضل من العلم للعمل به، فلا ينبغي أن يتسلّطَ على الطالب الخوف من الموت بحيث يشغله عن الاستعداد، وقوله ﷺ: «أكثروا ذكر هادم اللذات»[2]. يدلّ

---

(١) في الكشف(١: ٤٣).

(٢) في سنن الترمذي(٤: ٦٣٩)، والمعجم الأوسط(١: ٢١٣)، وصححه ابن حبان والحاكم وابن السكن وابن طاهر كما في التلخيص(٢: ١٠١).

على أنّه: ينبغي أن يكون ذكره سبباً للانقطاع عن اللذات الفانية دون الباقية(١).

سادساً: العزم والثّبات على التعلُّم إلى آخر العمر، كما قيل: «الطلب من المهد إلى اللحد». ومن كلام الشافعيّ ﷺ: «صناعتنا هذه رقّ الأبد فمَن قَصَدَ أن يتركَها ساعة فليترك الساعة». وقال ﷻ لحبيبه ﷺ: {وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤]، وقال ﷻ: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم} [يوسف: ٧٦]. وسئل ابن المبارك ﷺ: إلى متى تتعلم؟ قال: «لعلّ الكلمة التي أنتفع بها لم أَسمعها بعد»(٢).

فالعلم ليس له حدود ينتهي عندها، وَمَن طلبه عَلِم سِعتَه حتى لو أَنفق أَضعاف عمره في طلبه فلن يَصِل إلى نهايتِه، ومصداقُ ذلك قوله ﷻ: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم} [يوسف: ٧٦]، فليس مَن أنهى الدراسات الجامعية الأولية أو العليا قد وَصَلَ إلى سدّة العلم ولم يعد له حاجة إلى القراءة والبحث، كما يفعله الكثيرون؛ إذ ما علموه ودرسوه سيؤول إلى تناقص وتراجع من يوم إلى يوم... فانظر إلى حال كبار أئمتنا ممّن خبروا العلم وعرفوه بماذا أوصوا، وإلى حال أهل زماننا ممّن تسمّوا بالعلم إلى أين وصلوا.... قال حاجي خليفة(٣) في حال أهل العلم: «أن لا يعتقد في علم أنّه

---

(١) الكشف(١: ٤٦، ٤٣)، والمفتاح(١: ٢٠)، والفوائد المكية(ص٦).

(٢) ينظر: المفتاح(١: ٢٣).

(٣) في الكشف(١: ٤٨).

حَصَلَ منه على مقدارٍ لا يُمكن الزيادة عليه، وذلك طيشٌ يوجبُ الحرمان».

سابعاً: استغلالُ أوقاته في العلم درساً وتدريساً ومطالعةً وتأليفاً، وقد خصَّصت هذه النقطة بومضة خاصة سبق ذكرها، فلا حاجة للإعادة هنا، إلا أنّ أُنبِّهَ على أن بعضَهم يقتصر على المواد والمساقات الدّراسية ويظنّها تفي في تزويده بالعلوم والمعارف الكافية لحياته، وهي بعيدةٌ كلّ البعد عن تحقيق هذا المرام، بل لا بُدّ من أن يُكثر من طلب العلم على المشايخ ومن أخذ الدورات العلميّة، ومن مطالعةِ الكتب، فكلُّ أَوقاته ينبغي أن يصرفَها في طلبِ العلم إلا ما كان لقضاء الحاجات الضرورية: كالأكل والشرب والنوم وأَشباهها بقدر الحاجة فحسب.

والحيلةُ في صرف الأوقات إلى التحصيل: أنه إذا مَلَّ من علم اشتغل بآخر[1]، كما سبق نقله عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ومحمد بن الحسن وغيرهما.

ثامناً: برمجة أوقاته اليومية والأسبوعية والشّهرية والسّنوية في طلب العلم؛ فعلى حسب حاجته للعلوم والمعارف الحياتية له، ينبغي أن يكون له مجلس من نفسه كلّ بداية سنة يضع خطوطاً عريضة بالانجازات العلميّة التي يرغب في تحقيقها في هذه السّنة، وفي كلِّ شهر يكون له وقفة في تحقيق ما خَطّط له؛ إذ أنه في الغالب يلزمه إعداد برامج أُسبوعية للمطالعة في بعضِ العلومِ بتخصيص ساعات مُعيّنة في أَيام الأسبوع لذلك، وأيضاً تخصيص أَوقات معينة للدّراسة على المشايخ وأخذ الدورات، وهكذا.

---

(١) ينظر: المفتاح(١: ٢٣)، والكشف(١: ٤٦)..

وتحقيقُ كلّ ما سبق يكون من خلال البرمجة اليومية لأوقاته من صباحه إلى مسائه، فعليه أن يستغلَّ كلَّ لحظةٍ منها بعلمٍ يعود عليه بالنفع مستقبلاً ضمن آلية رسمها ونظمها، فالقراءةُ العشوائيةُ وإن كانت نافعةً لكنّها لا تحقّقُ الغاية من بناء شخصية علميّة قوية.

وينبغي أن يفيدَ من جميع أوقاته حتى أثناء تنقّله من مكانٍ إلى مكان، فليحرص على حملِ كتاب مُعيّن عبارته سهلة فيطالعه، وفي أَوقات طعامه وشرابه فليهتم بسماع الدروس المسجّلة على الأشرطة وأقراص الكمبيوتر أو أشباهها، وهكذا.

وفي كلِّ ذلك فليكن همُّه أن لا ينقطع عن ما بدأ به من القراءةِ والسماعِ والدّراسةِ له حتى يتمَّه، فإنه إن اعتادَ القطع فلا يفلح في الطلب، وليراجع نفسَه كلّ يوم وأُسبوع وشهر وسنة؛ ولينظر مَدى إيفائه بما وَعَد، والشعور بالتقصير عن تحقيق ما أراد في يومه لا بُدّ منه لرفع الهمّة لليوم التالي والسنة التّالية.

ومَن أرادَ النجاحَ في برامجه فلا بُدّ أن يكون له أولويات في حياته، فإن حصلَ تعارض بين أمور قَدَّمَ الأَوَّلَ فالأوّل، وليكن أول أولويات طالب العلم هو حضور الدّروس لدى المشايخ، فإنّها أعظم الطرق وأنفعها في كسب العلم وتحصيله فلا ينبغي أن يقدِّمَ عليها شيء، وهكذا.

قال طاشكبرى زاده ﷺ(١): «ولا بُدَّ أن يكون مع طالب العلم محبرة في كلِّ وقت حتى يكتبَ ما يسمع من الفوائد، ويستنبطه من الزوائد، فإن العلمَ صيدٌ والكتابة قيد. وقيل: ما حُفِظَ فَرَّ وما كُتِبَ قَرّ.

وينبغي أن يحفظَ ما كتبه إذ العلم ما ثبت في الخواطر لا ما أودع في الدّفاتر، بل الغرض منه المراجعة إليها عند النسيان لا الاعتماد عليها، وينبغي أن لا يضيع الأوقات والساعات ويغتنم الليالي والخلوات، وليس كلّ ما فات يدرك».

تاسعاً: الاهتمام بالعلم والحرص عليه والحبّ له، فينبغي للطالب أن يكون مُهتماً كلَّ الاهتمام بالعلم، ومُعتنياً تمام العناية به، فبقدر اهتمامه وعنايته بالعلم يبلغ به إلى أرقى الدرجات وأعلاها، وقد سُئِلَ أحدُ العلماء أو الحكماء ما السّبب الذي يُنال به العلم، قال: «بالحرص عليه يُتَّبع، وبالحبّ له يُستمع، وبالفراغ له يَجتمع»(٢).

لا يدرك العلم إلا كلّ مشتغل   بالعلم همته القرطاس والقلم(٣)

وأما الوثوق بالذكاء في تحصيل العلم، فهو من الحماقة، وكثير من الأذكياء فاته العلم بهذا السّبب(١)؛ إذ أن مبنى تحصيل العلم على شدّة الاهتمام به ومتابعة مسائله أكثر من الذّكاء الذي يورث الغرور والإهمال.

---

(١) في مفتاح العلوم(١: ٣٥-٣٦).

(٢) ينظر: جامع بيان العلم(١: ١٠٢).

(٣) ينظر: جامع بيان العلم(١: ١٠٣).

عاشراً: الجدُّ والهمّة، فإن الإنسان يطير بهما إلى شواهق الكمالات، وأن لا يؤخر شغلَ يوم إلى غد، فإن لكلِّ يوم مشاغل[٢]، وقد أفردت الهمّة بمقال سبق ذكره، فلتراجع لِمَن أراد، ونزيد عليه هاهنا بعض الفوائد:

قال الغزاليّ رضي الله عنه[٣]: «فصل في علو الهمم ونيلها لقاصدها: اعلم أنّ الهمّةَ هي إجماعُ قلب المهتم وجمعه لنيل مقصده بالتوجه إليه دون غيره، من غير قلب قاصد لسواه، وصاحب الهمّة لا يكون همّه في مقصده لنيل أغراض متفرّقة، كمَن أراد أعمالاً لا يقع في يده غير عمل واحد، فالهمم هي فرع من فروع النّفس على قدر وضع النفس وارتفاعها، وإن همّة كل واحد على قدر نفسه في علوها وطهارتها.

ألا ترى إلى أصحاب الصنائع الخسيسة ... فهؤلاء هممهم على قدر خسائس أنفسهم النّازلة... فاكتساب الهمم ونيل مقاصدها للعلماء بالدرس والمواظبة والجوع والصّبر... فإن أردت ذلك فعليك بالجوع والعلم والخَلَوات يكشف لك العلامات بسرائر الكائنات، فاطلب وجدّ واجتهد، فنيل مقاصد الرّجال من غير تعب هذيان».

وقال السّيوطي رضي الله عنه[٤]: «ولعمري إن هذا الفنَّ لا يدرك بالتمني ولا ينال بسوف، ولعلّ، ولو أني، ولا يبلغه إلا مَن كشف عن ساعد الجدّ وشمَّر

(١) ينظر: الكشف(١: ٤٣)، والفوائد المكية(ص٦).

(٢) ينظر: الكشف(١: ٤٨).

(٣) في سر العالَمين وكشف ما في الدراين(ص٩٥-٩٧).

(٤) في الأشباه(ص٤).

واعتزل أهله وشدّ المئزر وخاض البحار وخالط العجاج ولازم التردد إلىٰ الأبواب في الليل الداجي، يدأب في التّكرار والمطالعة بكرة وأصيلاً، ... وحَلَّقَ علىٰ الفضائل واقتنص الشوارد». وقال الحبيشي رضي الله عنه[1]:

ويلزم الصبر وإدمانَ السَّهَرْ ولا يزالُ مستعيناً بالبُكَرْ
والوصلَ بينَ الليل والنهارِ والدرسَ بين الجهر والإسرارِ
فالعلم لا يُدرَكُ بالتَّوَانِ ولا ينالُهُ ذوو عصيانِ
لأنه مشكاة مصباح الورع وليس يُطْفِئ نورَهُ غيرُ الطَّمَعْ
وغَرْسُهُ في النفس حينَ يُغْرَسُ وسَقْيُهُ في الدرس حين يُدرَسُ
حتىٰ إذا تكامَلَتْ أنوارُهُ بَدَتْ لِمَنْ يَغْرِسُهُ ثِمارُهُ

وقال بعضُهم: العلم رفيع المقام شديد المراد بطيء اللزام لا يرىٰ في المنام ولا يورث عن الآباء والأعمام، فإنه شجرة تغرس في النفس وتسقىٰ بالدرس، ويحتاج طالبه إلىٰ زيادة تعب وإدامة سهر، أفيظنُّ مَن يقطعُ نهاره بالجمع وليله بالجماع أن يخرج بذلك فقيهاً؟ هيهات هيهات.

بل حتىٰ يُخلص النية ويصلح الطوية، ويعصي الأهواء الشيطانية، ويبذل الهمة القوية ويقطع كلَّ قَفَر وبريةٍ طلباً لأهله ورغبة في نيله ونيل فضله، فأجع بطنك واهجر وطنك واترك القال والقيل ولا تمّل إن كنت تريد التّحصيل[2].

---

(١) في نصيحة الطلاب (ص١٣-١٤).

(٢) ينظر: الفوائد المكية (ص٣٠).

الحادي عشر: اختيار معلّم ناصح، نقي الحسب، كريم العرق، لا يلابس الدّنيا بحيث تشغله عن دينه، وإن اقتضى الأمر أن يسافرَ في طلب هذا الأستاذ إلى أقصى البلاد، قال محمد بن سلمة ﷺ: «أول ما يُذكر من المرء أستاذه فإن كان جليلاً جَلَّ قدره»(١).

قال العلوي(٢): «لا بُدّ للطالب من شيخ فَتّاح لأقفال القلوب، وهو الذي كَمُلت أهليته واشتهرت صيانته، وكان له في العلوم الشرعية تمام الاطلاع، وله مع مَن يوثق به من مشايخ عصره كثرة بحث وطول اجتماع، يفيد التّفهم والتّعليم ويعامل الطالب بالتّأديب، يوضح له العبارة، ويجلي له الإشارة، ويجلو مرآة قلبه بلطائف المعارف الواردة من فضل الله ﷻ، لفظه دواء ولحظه شفاء يُنهض المتواني حاله، ويدلّ الجاهل على الله ﷻ مقاله؛ لأن فتحَ كلّ واحد ونوره على حسب متبوعه ونوره، وغير خافٍ أنّ المشيخةَ شأنها عظيم وأمرها عالٍ جسيم، وقد ألف العلماء في بيان آدابها الرسائل العديدة...».

وإنّ دراسة العلوم المختلفة على الأساتذة المتخصصين لا سيما العلوم الشّرعية أمر درج عليه العلماء من غابر الأزمان فتجد كتب التراجم والسير مشحونة بتسمية التّلامذة والشّيوخ، فالتّجربة الإنسانية المؤيَّدة بالوحي الرباني كما في حديث جبريل ﷺ في بيان آلية التعلّم: «فأسند ركبتيه إلى

(١) ينظر: المفتاح(١: ٢٤).

(٢) في الفوائد المكية(ص٢١).

ركبتيه»[١] دالة على الأهمية الكبيرة والفائدة العظيمة في تلقي العلم من أفواه الشيوخ لا الاقتصار في الأخذ على الكتب، ونشير إلى طرف من هذه الفوائد فيما يلي:

١. إن الذي يعتمد على الكتاب لم يَسْلَمْ من التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، فهذا أبو علي ابن سينا مع حدّة ذهنه، وما كان عليه من الذكاء المفرط والحذق البالغ، قال: «مَن اتكل على نفسه وثوقاً بذهنه لم يسلم من التصحيفات...»، قال أبو زرعة رضي الله عنه: «لا يفتي الناس صحفي، ولا يقرئهم مصحفي»، وقال ثور بن يزيد رضي الله عنه: «لا يفتي الناس الصحفيون». ولله در القائل:

من يأخذ العلم عن شيخ مشافهة ... يكن من الزّيغ والتّحريف في حرم
ومن يكن آخذاً للعلم عن صحف ... فعلمه عند أهل العلم كالعدم

٢. إنّ الذي يقتصر في علمه على الكتب يفتقد عنصر الاقتداء والتأثر بأخلاق العلماء وآدابهم، وبالتالي لا يتورّع عن القدح في العلماء والطّعن فيهم، فقد قيل في سبب سلاطة لسان ابن حزم رضي الله عنه: إنه لم يلازم الأخذ من الشيوخ ولم يتأدب بآدابهم[٢].

٣. إن الكتبَ العلمية الرّصينة لها أسلوبٌ يخصُّها فربّما يذكر العلماء كلاماً مطلقاً، ويقصدون بذلك شيئاً مقيّداً اعتماداً على ذكر تلك القيود في

---

(١) في صحيح مسلم(١: ٣٨).
(٢) ينظر: تكوين الملكة الفقهية(ص٩٨).

مواضع أخرى، أو على فهم السامع، فمجرَّد مطالعة كتب العلم ربّما يؤدي خلاف المقصود، قال ابن عابدين [1]: «يطلقون عباراتهم كثيراً في موضع اعتماداً على التقييد في محلِّه، وقصدهم بذلك أن لا يدّعي علمهم إلا مَن زاحمهم بالركب، وليعلم أنّه لا يحصل إلا بكثرة المراجعة وتتبّع عباراتهم، والأخذ عن الأشياخ». قال الشاعر:

يظن المرء أنّ الكتب تجدي أخا فهم لإدراك العلوم
وما يدري الجهول بأن فيها غوامضَ حيّرت عقلَ الفهيم
إذا رِمْتَ العلومَ بغير شيخ ضللت عن الصّراط المستقيم
وتلتبسُ الأمورُ عليك حتى تصير أَضلَّ من تُوِّما الحكيم

٤. إن الكتب العلمية مهما بلغت من الدقّة والاعتماد فإنها لا تخلو عن مؤخذات ومسامحات يقع مثلها للبشر؛ لأنها من تأليف مَن ليس بمعصوم، فعندما تقرأ على المشايخ ينبّهون على ما فيها، ويميزون الصّحيح من السّقيم، والغث من السّمين؛ لأنّهم أصحاب قدم راسخة في العلوم، وقد تلقوها على الأساتذة كابراً عن كابر، بخلاف مَن يعتمد على نفسه فلا يستطيع التمييز ويقع في حيص بيص، قال الشاعر:

أمدّعياً علماً وليس بقارئ كتاباً على شيخ به يسهل الحزن
أتزعم أنّ الذهن يوضح بلا مخبر تالله قد كذب الذهن
وإن ابتغاء العلم دون معلم كموقد مصباح وليس له دهن

---

(١) في رد المحتار (١: ٤٥٠).

٥. إنّ الطالبَ في وقت قصير يحيط بعلم كثير من الكتاب الذي درسه، ومن تجربة شيخه وشيوخه، فيجمع الفوائد الكثيرة والدرر الفريدة من مجالسة الشيخ عند فهم العبارة، ومن الملاحظ أن الذي يكثر من مجالسة العلماء يصبح له رسوخ قدم في العلم وتبحر في فنونه ودقّة في فهمه بخلاف غيره. قال العلوي رضي الله عنه[1] من شروط طلب العلم «أن يقرأ على شيخ مرشد وأمين ناصح ولا يستبدّ بنفسه وذكائه». وقال الحبيشي رضي الله عنه[2]:

ومَن تَراهُ طالباً لا شيخَ له فهو الذي في علمه لا شأن له
وشيخه الشّيطان فاحذرنه ولا تُوافِقْه وصُدّ عنه
وهكذا مَن شيخُهُ الكتاب فعلمُهُ بِقِيْعَةٍ سَرَاب
إذا أتى بعلمه مُجادلاً قَلَبْتَه بالحال قَزْماً جاهلاً

وليس كلّ مَن نصَّبَ نفسَه للتّدريس يصلح أن يؤخذَ عنه العلم، ولا ينبغي أن نغترّ بمظهر اللباس والهيئة، فمَن لم يجالس حلقات العلماء ويتلقّى من أفواههم، ويجاز منهم بالتدريس والإفادة لا يوثق بعلمه.

ومعلوم أنّ لكلِّ علم قواعد وأسس مشى عليها الأكابر جيلاً بعد جيل، فمَن يُدَرِّسُ الفقه دون أن يلتزمَ شيئاً من طرقه وضوابطه بأن يأخذ بمذهب الحنفية أو مذهب الشافعية فيفصِّل مسائله ويبيِّن دلائله ويقعِّد

---

(١) في الفوائد المكية (ص٦).

(٢) في منظومة نصيحة الطلاب (ص٢٤).

قواعده لا يعدّ مُدرساً للفقه حقيقة، ولم يعهد عن أحد من علمائنا السابقين أنه خلط بين المسائل والمذاهب والضوابط فضيّع طلابه وأَضاع نفسه كما يفعله الكثيرون ممن لم يمارسوا الفنون على أهلها، ولم يضبطوا أصولها ولا فروعها.

قال الكوثري(١): «ومَن يتذبذب بين المذاهب، منتهجاً اللامذهبية في الدِّين الإسلامي، فهو أسوأ وأردأ من الجميع، وللعلوم طوائف خاصة، تختلف مناهجهم، حتى في العلم الواحد عن اقتناع خاص، فمَن ادّعى الفلسفة من غير انتماء إلى أحد مسالكها المعروفة، فإنه يُعدُّ سفيهاً منتسباً إلى السَّفه لا إلى الفلسفة، والقائمون بتدوين العلوم لهم مبادئ خاصّة ومذاهب معيّنة، حتى في العلوم العربية، لا يُمكن إغفالها ولا تسفيه أَحلام المستمسكين بأهدابها، لمن يُريدُ أن يَكْرَعَ من ينابيعها الصَّافية، وليس ثمة علم من العلوم عُنِي به العلماء عنايةً تامّة على توالي الإسلام مثل الفقه الإسلامي».

فمَن حرص على تلقي علوم أهل السنة فلا بُدّ من أن يسعى لأخذها عن أهلها مراعياً ضوابطها ومبتعداً عن الذمّ والطعن في أحدٍ من الأئمة العلماء أصحاب المذاهب المشهورة والطرق المعروفة.

فإنّ لأهل السّنة علوماً وعلماء في الفقه والعقيدة والسلوك وغيرها، لا ينبغي أن يغفَلَ عنها ويغترّ بمَن لم يبق لهم حرمة، فإن العلوم تدرس على

(١) في مقالاته(ص٢١٩).

أهلها، وإننا صرنا في زمان، يُدَرِّسُ فيه كلّ أحد ما شاء، ويدعي فيه ما شاء، دون انتظام ومعرفة إلا الشهرة والانتماء لجماعات لم تسلك طريق أَهل السنة في حياتها ابتداءً، فليحذر كلّ الحذر من أَخذ أي علم عن غير أهله المتخصصين فيه، الضّابطين له، الملتزمين بقواعده وضوابطه؛ لما فيه من المضرّة العظيمة والعاقبة الجسيمة(١).

الثّاني عشر: تسليمُ أمره وتفويضه لأستاذه في بيان طريق العلم؛ فإذا وُجِدَ ما وصفناه، فعليه أن يلقي إليه زمام أمره في تفصيل طريق التعليم، ويذعن لنصحه إذعان المريض للطّبيب، ولا يستبدّ لنفسه اتكالاً على ذهنه، ولا يتكبّرَ عليه وعلى العلم ولا يستنكف، قال الأصعمي: «مَن لم يحتمل ذلّ

(١) **فائدة في بيان معنى الشيخ:**
الشيخ لغة من استبان به الشيب.
وفي العرف العام: العاقل أو المحنك بالتجارب، أو المرشد.
وفي العرف الخاص: الراسخ في علوم الشرع الثلاثة: الإيمان الذي هو مادة علم التوحيد، والإسلام الذي هو مادة علم الفقه، والإحسان الذي هو مادة علم المطلوب في علم السلوك والحقيقة... ويمكن الجمع بين هذه المعاني المذكورة بأن يقال: المراد به: الراسخ في العلم الذي صار يرشد بعلمه ويربي بآدابه ولو شاباً.
وشيخ التربية والتخريج هو الإنسان البالغ في العلوم الثلاثة التي هي الشريعة والطريقة والحقيقة إلى الحد الذي مَن بلغه كان عالماً ربانياً مربياً هادياً مهدياً مهذباً مرشداً إلى طريق الرّشاد معيناً لِمَن أراد الاستعانة به على البلوغ إلى رتب أهل السداد، وذلك لما رزقه الله ﷻ من العلم اللدني الرباني، والفيض المعنوي الرحماني، فهو طبيب الأرواح الشافي بما علمه الله ﷻ...كما في الفوائد المكية(ص٢٢).

التّعلّم ساعة بقي في ذلّ الجهل أبداً»[١].[٢]

قال الزّرنوجي رضي الله عنه[٣]: «وينبغي لطالب العلم ألا يختار نوع علم بنفسه، بل يفوِّض أَمرَه إلى الأستاذ، فإن الأستاذَ قد حَصَلَ له التجارب في ذلك، فكان أعرف بما ينبغي لكلِّ أحد، وما يليق بطبيعته... وكان طلبةُ العلم في الزمان الأول يفوِّضون أمورَهم في التعلّم إلى أستاذهم، فكانوا يصلون إلى مقاصدهم ومرادهم، والآن يختارون بأنفسهم فلا يحصل مقصودُهم من العلم والفقه».

الثّالث عشر: الإصغاء إلى كلام الأستاذ بالتدبّر، والتغافل عن أقوال الشّركاء إلا عند الحاجة، وإذا تكلم يوجز، وإذا تمَّت الحاجة يسكت، فهذا هو الطالب الذكي، بخلاف الحمقاء من الطلبة؛ إذ ينقسمون إلى سكيت، وهو أهون على الأستاذ، وإلى مكثار يتكلّم مع الأستاذ، ويجاوب الشركاء، ويعترض على كلامهم قبل فهم مرادهم، ويتكلّم بالظاهر البيّن، وقد يتكلم بكلام إذا استفسرته عن مراده به يتحير ولا يدري ما يقول، فمثل ذلك الطّالب يغضب المعلم الحليم، ويهلك المعلم الغضوب، ويطفئ حدّة أذهان شركائه، فعلى الأستاذ أن يسكته فإن لم يسكت يطرده عن مجلس الدرس، وإنّما يريد الحمقاء بذلك إظهار الذكاء.

---

(١) في المدخل إلى السنن الكبرى(١: ٣٠٧).

(٢) ينظر: المفتاح(١: ٢٤)، والكشف(١: ٤٧).

(٣) في تعليم المتعلم(ص٤٧-٤٨).

فعدم صبر بعض الطّلبة على السّكوت إلى أن يتمّ تقرير الأستاذ فيتكلّم في أثناء تقريره، وفي ذلك أذية للأستاذ وإخلال لإفادة الأستاذ، قال في «الوصايا القدسية»: ويترك الطالب ما طالعه وفهمه قبل مجلس الأستاذ، ويصغي بإلقاء السّمع وحضور العقل إلى ما يقرّره الأستاذ، فربما طالع وفهم ما ليس بمراد المصنّف أو الشّارح، ولا يُمَكِّن الأستاذ من التقرير والتحقيق، فمثل هذا المتعلّم لا ينتهي بل ربما يتراجع[١].

وأنشد ابن الأعرابي:

وسل الفقيه تكن فقيهاً مثله ... من يسع في علم بفقه يمهر
وتدبر الذي تعنى به ... لا خير في علم بغير تدبر[٢]

الرّابع عشر: أن يتعلّم من كلّ صغير وكبير، وغنيّ وفقير، ولا يستنكف من اقتباس الخير ممّن هو أدنى منه حالاً، فإن الحكمةَ ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها وقيّدها، فالعلمُ سبب النجاة عن سبع الجهل، ومَن يطلب مهرباً من سَبُع يفترسه لا يفرق بين أن يرشدَه إلى المهرب شريفٌ أو خامل، فكذا ينبغي للطّالب الهارب عن سَبُع الجهل أن لا يُفَرِّق بينهما[٣].

---

(١) ينظر: الترتيب(ص٢٠١).

(٢) ينظر: جامع بيان العلم(ص٩٠).

(٣) ينظر: شرح شرعة الإسلام(ص٤٥).

فعن أبي هريرة ﵁ قال ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقّ بها»[١]، وقيل: خذ ما صفا ودع ما كدر[٢]؛ لأنّ فيما يسمعه المرء خيراً وشراً، والعاقل يلتقط الخير كيفما استطاع، ويترك الشرّ ما أمكنه.

والاستفادة ممكنة من كلّ أحد؛ ولهذا قال أبو يوسف ﵁: حين قيل له: بِمَ أدركْتَ العلم؟ قال: «ما استنكفت من الاستفادة، وما بَخِلت بالإفادة»[٣].

الخامس عشر: عدم قطع مجالس العلم والتّفريق الطّويل بينهما، فقد ذكرتُ سابقاً أنه ينبغي لطالب العلم من أولويات، وأولها مجالسة العلماء والحرص على دروسهم، فلا ينبغي أن يقطعها لأي سبب؛ لأنه إن فعل ذلك ضاع عنه خير ذلك المجلس، وانقطع من قلبه حرمة القطع، فلا يأمن في لحظةٍ من تركِه واعتزاله بالاستسلام لنفسه، وهذا من أخطر ما يحرم الطالب من الاستمرار في الإفادة.

وليكن الحرص على قرب المجالس من بعضها كما قال ابن خلدون[٤]: «ينبغي لك أن لا تطوِّل على المتعلِّم في الفنِّ الواحد والكتاب الواحد بتقطيع المجالس وتفريق ما بينها؛ لأنه ذريعة إلى النسيان وانقطاع مسائل الفنّ بعضها من بعض، فيعسر حصول الملكة بتفريقها. وإذا كانت أوائل العلم

(١) في سنن الترمذي(٥: ٥١)، وسنن ابن ماجة(٢: ١٣٩٥).

(٢) ينظر: المستقصى في أمثال العرب(٢: ٧٢).

(٣) ينظر: تعليم المتعلم(ص٧٣-٧٥).

(٤) في مقدمته(ص٣٩٥).

وأواخره حاضرة عند الفكرة مجانبة للنسيان، كانت الملكة أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة؛ لأنّ الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنوسي الفعل تنوسيت الملكة الناشئة عنه».

السّادس عشر: الاعتماد على التلقين والإكثار من المشايخ؛ فإن بكثرة المشايخ تتنوع الطّرق والأساليب والفوائد والشّوارد لدى الطّالب، قال ابن خلدون(١): «إنّ الرّحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، والسّبب في ذلك أن البشرَ يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلَّون به من المذاهب والفضائل: تارة علماً وتعليماً وإلقاءً، وتارة محاكاةً وتلقيناً بالمباشرة.

إلا أنّ حصولَ الملكات عن المباشرة والتلقين أشدّ استحكاماً وأقوى رسوخاً، فعلى قدر كثرة الشّيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم، حتى قد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم، وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها، فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل.

وتنهض قواه إلى الرسوخ والاستحكام في الملكات، ويصحح معارفه ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم، وهذا لَمن يسرّ الله ﷻ عليه طرقَ العلم والهداية،

---

(١) في مقدمته (ص٣٩٩).

فالرحلة لا بُدّ منها في طلب العلم؛ لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرّجال».

السّابع عشر: أن يبتعدَ في بداية دراسته من الاطلاع على اختلاف الأقوال والآراء في المسائل؛ لا سيما في العلوم الفقهية بأن يدرس أكثر من مذهب مرّة واحدة، فإنه يشتت الذهن ويبعثر الخاطر، ويربك الطالب، ويضعف التقوى بتناقض الأقوال؛ لا سيما ممّن يرجّح ويجتهد بين آراء المجتهد رغم أنه لا يفهم عباراتهم، ولا يدرك مراميهم، ولم يدرس ولم يتعلّم على طرقهم وأساتذتهم فيرجِّح من غير مرجِّح، ويجتهد في غير محلّ الاجتهاد، فالويل كل الويل لَمن كان حاله هكذا.

وقال الكوثري رضي الله عنه(١): «مذاهب تكون بهذا التأسيس، وهذا التدعيم إذا لقيت في آخر الزّمن، متزعماً في الشَّرع، يدعو إلى نبذ التَّمذهب بها باجتهاد جديد يقيمه مقامها، محاولاً تدعيم إمامته باللامذهبية بدون أصل يبني عليه غير شهوة الظُّهور، فتبقى المذاهب وتابعوها في حيرة، بماذا يحُلُّ أن يلقب مَن عنده مثل هذه الهواجس والوساوس أهو مجنون مكشوف الأمر، غَلِطَ مَن لم يقده إلى مستشفى المجاذيب، أم مُذبذب بين الفريقين يختلف أهل العقول في عدّه من عقلاء المجانين، أو مجانين العقلاء».

---

(١) في المقالات(ص٢٢٢).

وفي التّحذير من التدريس بهذه الطريقة الممجوجة يقول الغَـزالي رضي الله عنه(١): «ينبغي أن يحترزَ الخائض في العلم في مبدأ الأمر عـن الإصـغاء إلى اخـتلاف الناس، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدّنيا أو مـن علـوم الآخـرة، فـإن ذلك يدهش عقله ويحيِّر ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع، بل ينبغي أن يتقنَ أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عنـد أسـتاذه، ثـم بعـد ذلك يصغي إلى المذاهب والشبه.

وإن لم يكن أستاذه مستقلاً باختيار رأي واحد وإنما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فإن إضلالَه أكثر من إرشاده فـلا يصـلح الأعمـى لقود العميان وإرشادهم، ومن هذا حاله يُعَدُّ في عمى الحـيرة وتيـه الجهـل، ومنع المبتدئ عن الشبه يُضاهي منع حديث العهـد بالإسـلام عـن مخالطـة الكفّار، ونَدَب القوي إلى النظر في الاختلافات يضـاهي حـثّ القـوي عـلى مخالطة الكفار؛ ولهذا يمنع الجبان عـن الـتهجم عـلى صـف الكفـار وينـدب الشّجاع له.

ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقويـاء فيما ينقل عنهم من المساهلات جـائز، ولم يـدر أن وظـائف الأقويـاء تخـالف وظائف الضّعفاء».

الثّامن عشر: التدرج في قراءة العلم من الابتداء إلى التّوسّط إلى الانتهاء وهكذا، فكما لا يجوز عـرض اخـتلاف المـذهب للمبتـدئين حتـى يضـبطوا

(١) في الإحياء(١: ٦٤-٦٥).

العلوم ويتمكنوا من أصولها وضوابطها، فينبغي أيضاً التدرج معهم في مسائل كلّ علم، فينتقل معهم من مرحلة إلى أخرى على حسب ما يقتضيه الحال.

وإنّ مَن شرع في فنّ بدقائق ذلك الفنِّ كالحواشي والشروح، لا يتضح له مقاصد ذلك الفنّ، فالمتعلم يُمنع من التشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي، فيبتدأ بشيء من العلم أقرب إلى الفهم. وتمثيل ذلك بمَن أراد بناء بيت فيضع حجراً فيصبغه وينقشه ثم آخر كذلك، فيقال له: أتمّ بناء البيت جرداً ثم إن ساعدتُك بضاعتُك على التنقيش ولم يعقك عنه عائق فافعل ذلك، فإن ذلك يقصر الطلبة عن إدراك الفنون وضبطها(١).

وقال السُّبكي رضي الله عنه(٢): «حقّ المدرّس أن يُحسنَ إلقاءَ الدرس وتفهيمَه للحاضرين، فإن كانوا مبتدئين، فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يُدَرِّبَهم ويأخذهم بالأَهون فالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق، وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات، بل يدخل بهم في المشكلات».

وقال ساجقلي زاده رضي الله عنه(٣): «وبعض الناس يظنّ أن الأولى أن يُلقيَ على المبتدئين الدقائقَ والمشكلات ليحدّ ذهنه ويقوي ذكاءه، أقول: كلا ثمّ كلا،

---

(١) ينظر: ترتيب العلوم(ص١٩٧).

(٢) في معيد النعم(ص١٠٥).

(٣) في الترتيب(ص١٩٨).

وهل يحمل الطفل الصغير ما يحمله الأقوياء؟! ثم أقول: فوجب أن لا يشارك المبتدئ والمنتهي في درس، وكذا الذكيّ والبليد».

وقال ابن خلدون رضي الله عنه(١): «اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً، إذا كان على التدريج، شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً، يلقي عليه أولاً مسائل من كلّ باب من الفنّ هي أصول ذلك الباب. ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعي في ذلك قوّة عقله واستعداده لقبول ما يورد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفنّ، وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة. وغايتها أنها هيأته لفهم الفنّ وتحصيل مسائله.

ثم يرجع به إلى الفنّ ثانيةً، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أَعلى منها، ويَستوفي الشّرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفنّ فتجود ملكته.

ثم يرجع به وقد شدا فلا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا منغلقاً إلا وضَّحَه وفتحَ له مقفلَه، فيخلصَ من الفنِّ وقد استولى على ملكته.

هذا وجه التعليم المفيد، وهو كما رأيت إنما يَحَصل في ثلاث تكرارات. وقد يحصل للبعض في أَقَلّ من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسّر عليه. وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يَجهلون طرق التعليم وإفاداته، ويُحْضِرون للمُتعلِّم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم،

---

(١) في مقدمته(ص٣٩٤-٣٩٥).

ويُطالبونه بإحضار ذهنه في حلِّها، ويَحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه، ويُكلِّفونه رعي ذلك وتحصيله، فيَخْلِطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعدَّ لفهمِها، فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجاً.

ويكون المتعلم أول الأمر عاجزاً عن الفهم بالجملة إلا في الأقلّ وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية، ثمّ لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلاً قليلاً، بمخالطة مسائل ذلك الفنّ وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التّقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتمّ الملكة في الاستعداد، ثمّ في التّحصيل ويحيط هو بمسائل الفنّ.

وإذا أُلقيت عليه الغايات في البدايات، وهو حينئذٍ عاجز عن الفهم والوعي، وبعيدٌ عن الاستعداد له، كلَّ ذهنه عنها، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وانحرف عن قَبوله وتمادى في هَجَرانه. وإنّما أَتَى ذلك من سوء التعليم.

ولا ينبغي للمُعَلّم أن يزيدَ متعلّمه على فهم كتابه الذي أكب على التّعليم منه بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره، ويُحَصِّلُ أَغراضَه ويَسْتَولي منه على ملكةٍ بها ينفذ في غيره؛ لأن المتعلِّمَ إذا حَصَّلَ ملكة ما في علم من العلوم استعدَّ بها لقبول ما بقي، وحَصَلَ له نشاط في طلب المزيد والنّهوض إلى ما فوق، حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خُلِط عليه الأمرُ

عَجَز عن الفهم، وأدركه الكلال، وانطمس فكره، ويئس من التحصيل، وهَجَر العِلْم والتّعليم».

وإذا تأكَّدَ في نفسك ضرورة التَّدرُّج في طلب العلوم طابت نفسك بالاطلاع على آليةٍ في كلِّ علم لطلبه والسير عليه، فإليك هذا التدرج اللطيف لكل فنّ في ثلاث مراحل الأولى: الاقتصار، والثانية: الاقتصاد، والثالثة: الاستقصاء، وقد ذكره الغَزالي رضي الله عنه(١)، واستدرك عليه فيه ساجقلي زاده رضي الله عنه(٢)، وهو على النحو التالي:

الاقتصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن: أي مثله في المقدار كـ«الوجيز» للواحدي، والاقتصاد ثلاثة أضعاف القرآن كـ«الوسيط» للواحدي، وما وراء ذلك استقصاء.

وهذه المراتب الثّلاث تكون في شروح الأحاديث أيضاً.

والاقتصار في الحديث تحصيل ما في الصحيحين من الأحاديث بتصحيح نسخته على رجل خبير بعلم متن الحديث، بحيث يقدر على طلب ما يحتاج إليه وقت الحاجة، ولا يلزم حفظ متون الحديث كما لا يلزم حفظ أسامي الرجال، والاقتصاد فيه أن تضيف إلى ما في الصحيحين الأحاديث المذكورة في المُسندات الصحيحة، والاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوي، ومعرفة أحوال الرجال وأساميهم.

---

(١) في الإحياء(١: ٤٣).

(٢) في ترتيب العلوم(ص٢١١-٢١٦).

والاقتصار في نظم القرآن بمعرفة رواية واحدة متواترة عن الأئمة المشهورين كرواية حفص رضي الله عنه عن عاصم رضي الله عنه، والاقتصاد فيه أن يعرفَه بجميع الروايات المتواترة عن الأئمة المشهورين، والاستقصاء فيه أن يضمَّ إلى ذلك معرفة القراءات الشاذّة، ولا يلزم الحفظ في هذه المراتب بل يكفي تصحيح المصحف على رجل حافظ خبير.

والاقتصار في العقيدة بمعرفة عقائد أهل السنة المنقولة عن السلف لا غير بلا اشتغال بالدليل، والاقتصاد فيها معرفتها مع أدلة نقلية أو عقلية بحيث يتمكّن من مناظرة المبتدع ونزع شبهته من قلب العامي[1].

---

(١) أما مرتبة الاستقصاء في علم الكلام فغير مندوبة، بل منهي عنها، قال في الخلاصة: تعلم علم الكلام والنظر فيه والمناظرة وراء قدر الحاجة منهي عنه، وقدر الحاجة: ما يقدر به على إثبات المذهب ودفع الخصم كما في البزازية، وهي مرتبة الاقتصاد، كما في الترتيب (ص١٠٩).

وقال الغزالي في الإحياء(١: ٤٣): وأما الخلافيات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها في السلف فإياك وأن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل فإنها الداء العضال... فاقبل هذه النصيحة ممن ضيع العمر فيه زماناً، وزاد فيه على الأولين تصنيفاً وتحقيقاً وجدلاً وبياناً، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فهجره واشتغل بنفسه.

وقال ساجقلي زاده في ترتيب العلوم(ص٢١٤): وأقول كما هجر الغزالي الكلام، كذلك هجرته وتبرأت وتبت منه إلى الله جل جلاله الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وأسأل الله أن لا يحشرني يوم القيامة مع المتكلمين، وهذا القول مني بعد اشتغال بالكلام وتأليفي فيه نشر الطوالع، والآن أتمنى أن أجمع نسخه المنتشرة وأحرقها بالنار ولئلا يبقى مني أثر في

والاقتصار في الفقه يكون بمثل «مختصر القدوري»، والاقتصاد فيه بمثل «الهداية»، وما وراء ذلك استقصاء مثل «فتاوى قاضي خان»، و«الخلاصة».

والاقتصار في علم البلاغة بمثل «التلخيص»، والاقتصاد مثل «الإيضاح»، وما زاد على ذلك استقصاء، كما تضمنته الشروح.

والاقتصار في المنطق بمثل «ايساغوجي» مع شرح للحسام كاتي، والاقتصاد فيه «الشمسية» مع شرحه للقطب، وما زاد على ذلك استقصاء.

والاقتصار في النحو بمثل «الأنموذج»، والاقتصاد فيه «الكافية»، بل أقول: لا بُدّ لبلوغ مرتبة الاقتصاد فيه تحصيل ما تضمّنه «مغني اللبيب»، ومَن فاته فقد فاته نصف النحو، وما زاد على ذلك استقصاء.

وبالجملة الاقتصار في كلّ فنّ ما تضمنه المتون المختصرة، والاقتصاد ما تضمنه المتون المتوسّطة، وما زاد على ذلك استقصاء، ولا تحد تلك المراتب إلا بالتّقريب.

أما من جهة المسائل فالاقتصار هو إحاطة أشهر مسائل الفن، والاقتصاد الزّيادة عليه بإحاطة مشهوراته، والاستقصاء بالزّيادة عليه

الكلام، لكني لا أقدر على ذلك... قال صلاح الدين في حاشيته على شرح العقائد: الاشتغال بتفاصيل علم الكلام يقاسي القلب ولذا نرى أكثر طلبته تاركي الصلاة، ومرتكبي الكبائر، ومضيعي العمر فيما لا يعنيهم. أما قسوة القلب فقد وجدناها بلا شكّ عند الاشتغال بها، فنسأل الله أن يقيلنا عثراتنا.

بإحاطة نوادره.

وليس المقصود من تحصيل هذه المراتب حفظ ما تضمنها من الكتب، بل تصحيح نسخها والاطلاع على ما فيها إما بالتعلّم وإما بمجرد النظر والمطالعة، بحيث يقدر على طلب ما يحتاج إليه من تلك الفنون.

التّاسع عشر: أن العلومَ الآلية لا توسع فيها الأنظار؛ وذلك لأن العلومَ المتداولة على صنفين:

علومٌ مقصودة بالذات: كالشرعيات والحكميات.

وعلومٌ هي آلة ووسيلة لهذه العلوم كالعربية والمنطق.

وأمّا المقاصد: فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الأدلة، فإن ذلك يزيد طالبها تَمَكّناً في ملكته.

وأما العلوم الآلية: فلا ينبغي أن ينظر فيها إلا من حيث هي آلة للغير ولا يوسع فيها الكلام؛ لأنّ ذلك يَخْرُجُ بها عن المقصودِ وصار الاشتغال بها لغواً مع ما فيه من صعوبةِ الحصولِ على ملكتها بطولها وكثرة فروعها، وربّما يكون ذلك عائقاً عن تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها، فيكون الاشتغال بهذه العلوم الآلية تضييعاً للعمر وشغلاً بما لا يعني.

وهذا كما فعله المتأخرون في النحو والمنطق وأصول الفقه؛ لأنهم أوسعوا دائرة الكلام فيها نقلاً واستدلالاً وأكثروا من التفاريع والمسائل بما أخرجها من كونها آلة وصيّرها مقصودة بذاتها، فيكون لأجل ذلك لغواً ومضرّاً بالمتعلمين لاهتمامهم بهذه الآلات أكثر من المقصود، فإذا أفنى العمر

فمتىٰ يظفر بالمقاصد ؟ فيجب عليه أن لا يستبحر فيها ولا يستكثر من مسائلها[١].

قال ساجقلي زاده ﷺ[٢]: «إنّ بعض الطلبة يَقْصُرُ درسَه في أوائل زمان تحصيله علىٰ العلوم الآلية، آملاً تحصيل العلوم الشّرعية في أواخر أوقات تحصيله، أو ناوياً تدريسه بدون التعلّم، اعتماداً علىٰ قوّة فهمه، لكن هذا من سوء التّدبير ووساوس الغرور... ولا يأمن أن يحدق عائق عن تحصيلها بعد تحصيل العلوم الآلية، فحينئذٍ إن تركها رأساً فهو يصير كأحد العوام الجهلة، وشاهدنا بعض مَن كان كذلك، وإن شرع في تعليمها بدون سبق تعلُّمها فلا يتيسّر له ذلك، ولا يخلص درسه عن تعمُّد الكذب.

والطالب البصير يكون له درسان في كل حين: درس من العلوم الشّرعية، ودرس من العلوم الآلية، ويعظم الأول ويهتم فوق تعظيمه الثاني والاهتمام به...». وهذا الكلام فيمن لم يتخصص في أحد العلوم الآلية، إذ عليه أن يتبحر بها، وإنما أراد دراسة العلوم الشرعية.

العشرون: ضبط ما قرأه مستوعباً لمسائله من مبادئه إلى نهايته بتفهّم واستثبات بالحجج، وأن يقصدَ فيه الكتب الجيدة[٣]، ففي كلِّ علم يوجد كتب معتمدةٌ وغيرُ معتمدة، فلا بُدّ في بدايةِ أَمره من قراءة الكتب المعتمدة ومراجعتها ليتمكّن من الضّبط الصّحيح لمسائله وضوابطه.

---

(١) ينظر: الكشف(١: ٥٠).

(٢) في الترتيب(ص٢٠٧).

(٣) ينظر: الكشف(١: ٤٨).

أما أن يقرأه من أي كتاب لأي كان كما يفعلُه الكثيرون في الدراسات الأكاديمية، فإن هذا من الطامّات والبلايا العظام. قال العلوي رضي الله عنه[1] فيما يجب على الطّالب: «أن يستوعب ذلك العلم من أوّله إلى آخره تصوّراً وتصديقاً، وأن يقصد فيها الكتب الجيدة المستوعبة لجميع الفنّ».

وعليه أن يهتم بفهم وضبط كلّ ما يدرسه أولاً بأول خير من حفظ كثير بلا فهم، وفي هذا يقول الحبيشي رضي الله عنه[2]:

فالفهم عن حفظ الكثير ينبُو   والفكرُ إن عانى العويص يكبو
وليس يَخْفَى أنّ ما قلّ وقَر   أولى وأحرى من كثير عنه فرّ

الحادي والعشرون: أن لا يدع فناً من فنون العلم إلا وينظر فيه نظراً يطّلع به على غايته ومقصده وطريقته، فعلمه بغاية العلم يجعله على ثقة من أمره.

فينبغي أن لا يطيل الاشتغال بفنّ بحيث يعوق عن تحصيل فنّ يساويه في الحاجة أو هو أهم منه، وبعد المطالعة في الجميع أو الأكثر إجمالاً إن مال طبعه إلى فنّ عليه أن يقصده، ولا يتكلّف غيرَه فليس كلّ الناس يصلحون للتعلم، ولا كلّ مَن يصلح لتعلّم علم يصلح لسائر العلوم، بل كلٌّ ميسّرٌ لما خُلِقَ له، وإن كان ميله إلى الفنون على السّواء مع موافقة الأسباب ومساعدة الأيام طلب التبحّر فيها، فإنّ العلومَ كلها متعاونة مرتبطة بعضها ببعض،

(١) في الفوائد المكية(ص٦).

(٢) في نصيحة الطلاب(ص٢٨).

قيل:

احرص على جمع العلوم مجاهداً ... ولا تموتن بعلم واحد كسلا
النحل لما رعت من كل فاكهة ... أبدت لنا الجوهرين: الشمع
الشمع في الليل نور يستضاء به ... والشهد يبرئ بإذن الباري العللا

لكن عليه أن لا يرغب بالآخر قبل أن يستحكم الأوّل لئلا يصير مُذَبْذَباً فيحرم من الكلّ، ولا يكن ممَّن يميل إلى البعض ويعادي الباقي؛ لأن ذلك جهل عظيم، وإيّاه أن يستهينَ بشيء من العلوم تقليداً لما سمعه من الجهلة، بل يجب أن يأخذَ من كلٍّ حظاً، ويشكر مَن هداه إلى فهمه، ولا يكن ممّن يذم العلم ويعدوه لجهله مثل ذمهم المنطق الذي هو أصل كلِّ علم، وتقويم كل ذهن، ومثل ذم مقالات الصوفية لاشتباهها عندهم.

وينبغي لطالب العلم أن يُفوِّضَ ترتيب العلوم في التحصيل إلى رأي الأستاذ الناصح، كما سَبَق؛ إذ الناشئ أمهر من الدخيل، وهو أعرف بما يليق بطبعك منك، ولا يدخر نصحه عنك؛ لأن الأستاذَ قد حصل له التجارب وكيفية الاهتداء إلى المطالب والمآرب[1].

الثاني والعشرون: مراعاة مراتب العلوم في القرب والبعد من المقصد، فلكلّ منها رتبة يجب رعايتها في التحصيل؛ إذ البعض طريق إلى البعض، ولكلِّ علم حدّ لا يتعدّاه فعليه أن يعرفه فلا يتجاوز ذلك الحد فمثلاً: لا

(١) ينظر: المفتاح(١: ٢٨-٣٠)، والكشف(١: ٤٨)، والإحياء(١: ٦٥)، والترتيب (ص١٩٩)، والفوائد المكية(ص٦).

يقصد إقامة البراهين في النحو ولا يطلب، وأيضاً: لا يقصر عن حده كأن يقنع بالجدل في الهيئة، وأن يعرف أيضاً: أن ملاك الأمر في المعاني هو الذوق وإقامة البرهان عليه خارج عن الطوق وَمَن طلب البُرهان عليه أَتْعَبَ نفسَه.

قال السكاكي رضي الله عنه: قبل أن نمنحَ هذه الفنون حقّها في الذكر ننبهك على أصل ليكون على ذكر منك، وهو أَنْ ليس من الواجبِ في صناعةٍ وإن كان المرجعُ في أُصولها وتفاريعها إلى مجردِ العقل أن يكون الدخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها فكيف إذا كانت الصناعة مستندة إلى تحكّمات وضعية واعتبارات أليفة؟ فلا بأس على الدخيل في صناعة علم المعاني أن يقلّد صاحبها في بعض فتاواه إن فاته الذوق هناك إلى أن تتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق(١).

وقال ابنُ شهاب رضي الله عنه: «لا تُكابر العلم، فإنّ العلمَ أودية بأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن مَن رامَ أخذه جملة ذهبَ عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «العلم أكثر من أن يحاط به فخذوا منه أحسنه»، وأنشد محمد بن مصعب لابن عباس رضي الله عنهما:

ما أكثر العلم وما أوسعه مَن ذا الذي يقدر أن يجمعه

---

(١) ينظر: الكشف(١: ٤٩-٥٠)، والمفتاح(٣٦-٣٧).

إن كنت لا بُدّ له طالباً محاولاً فالتمس أنفعه[١]

الثّالث والعشرون: أن لا يخوض في فنٍّ حتى يستوفي الفنّ الذي قبله؛ فإنّ العلومَ مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلىٰ بعض، والموفقُ مَن راعىٰ ذلك التّرتيب والتّدريج؛ وليكن قصده في كلِّ علم يتحراه الترقيَ إلىٰ ما هو فوقه[٢].

وعجلة بعض الطلبة إلىٰ الفراغ عن مشقّة التحصيل تحمله علىٰ تطويل قدر الدّرس علىٰ قراءة عدة علوم معاً فوق طاقته، وعلىٰ ترك بعض الفنون المهمة قبل إتقانه، بل قبل إتمام علم منه.

وأمثال هؤلاء لا ينالون الكمال في العلم؛ إذ الكمال فيه لا يتأتىٰ إلا بالفهم والإتمام، وذلك ظاهر، قال في «تعليم المتعلم»: ينبغي للطالب أن يثبت علىٰ أستاذ وعلىٰ كتاب حتىٰ لا يتركه أبتر، وعلىٰ فنّ حتىٰ لا يشتغل بفنٍّ آخر قبل أن يتقن الأولىٰ...»[٣].

وذكروا من موانع العلوم الانتقال من علم إلىٰ علم قبل أن يَحْصُلَ منه قدراً يُعْتَدُّ به، بأن يستحكم الأول، إذ هو سبب حرمان عن الكل فلا يجوز، ومن شيخ إلىٰ آخر قبل إتقان ما بدأ به عليه، فإنه هدم لما قد بني، وكذا الانتقال من كتاب إلىٰ كتاب كذلك[٤].

---

(١) ينظر: جامع بيان العلم(١: ١٠٤-١٠٦).

(٢) ينظر: الإحياء(١: ٦٦).

(٣) ينظر: الترتيب(ص٢٠٠-٢٠١).

(٤) ينظر: الكشف(١: ٤٣)، والفوائد المكية(ص٦).

وقال ابنُ خلدون[1]: «ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معاً، فإنه حينئذٍ قلَّ أن يظفر بواحد منهما؛ لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كلٍّ واحد منهما إلى تفهم الآخر، فيستغلقان معاً ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبة، وإذا تَفَرَّغَ الفكرُ لتعليم ما هو بسبيله مُقتصراً عليه، فربما كان ذلك أجدر بتحصيله». وفي هذا يقول الحبيشي رضي الله عنه[2]:

والفَنُّ ما أضحى به مشتغل إلى سواه لم يكن ينتقل
قبل تبَحّر له بالأول والعلم في أسراره عن كُمَّل

الرّابع والعشرون: طلب تشحيذ الخاطر، وتحصيل ملكة المطالعة بالتّحضير للدّرس، وهذا أمر يغفل عنه كثيرٌ من الطلبة إذ لا بُدَّ أن يكون لديه تصور كامل عن المسائل قبل دراستها على الأستاذ، والأفضل أن يسعى لضبطها وفهمها والتمكّن منها قبل الدّرس.

ثم لينظر لفهمه ودقته بالنسبة لما يطرحه الأُستاذ، فتمام التحضير أن يذهبَ للأستاذ لطرح الاستشكالات التي وردت عليه من تحضيره ومطالعته لمسائل الدرس، ونذكر هاهنا بعض النماذج والتجارب العملية التي مشى عليها العلماء في تحضيرهم ليكون القارئ على بصيرة بذلك.

قال ساجقلي زاده رضي الله عنه[3]: «فلا ينظر في الشّروح قبل اليأس من معرفة

---

(١) في مقدمته(ص٣٩٥).

(٢) في نصيحة الطلاب(ص٢٦-٢٧).

(٣) في ترتيب العلوم(ص٢٠٤-٢٠٧).

المتن؛ إذ مَن فعل ذلك قلَّما تحصل له ملكة المطالعة، قال في «الوصايا القدسية»: «يطالع متن الكتاب قبل الشرح مراراً فإن فهم كلمتين من المتن خير من فهم سطرين من الشّرح».

ولا يستعدّ الطّالبِ للمطالعةِ إلا بعد تحصيلِ اللغةِ والتصريفِ والنحوِ والمنطقِ والمناظرةِ والكلامِ والمعاني وأُصول الفقه، فينبغي للطالب أن لا يشرع في قراءة المؤلفات الدقيقة لتحصيل ملكة المطالعة إلا بعد تحصيل ما ذكرته من الفنون.

وأَمّا طول نظر الطالب فيما لا سبيل له إلى فهمِه، وذلك إمّا بأن يكون متعلّقُ نظره من اصطلاحات فنٍّ لم يَعْثُرْ عليه، أو لغة لم يعرف معناها، فطول النّظر فيه ونصب المرفق عليه لا يُنْتج شيئاً، بل طريقُ فهمِه ليس إلا أن يستفسرَه عمّن يعرفه، أو يراجع إلى كتاب يفسره كـ«تعريفات الجرجاني» أو «صحاح الجوهري».

وإما أن يكون متعلّق نظره مجملاً يفسّره ما بعده أو فسّره ما قبله، وقد فاته درسه أو نسيه فلا يكاد ينكشف قبل العثور على مفسّره، فينبغي للطالب إذا شرع في مقالة أن يلاحظها إلى منتهاها ملاحظة خفيفة، فيطلب معرفة معاني كلماتها وكيفية تركيبها، والاطلاع على تمام حاصل تلك المقالة اطلاعاً في الجملة، ثم يشرع في المطالعة العميقة والاستطلاع على الوجوه الدقيقة وإثارة الأسئلة والأجوبة.

وإما أن يكون متعلّق نظره ساقط أو زائد أو محرّف، فطريق الانكشاف في مقابلة النسخة بنسخة مصححة، فيجب على الطالب أن لا يطالع الدرس إلا بعد المقابلة والتصحيح.

وإذا علمت هذا فاعلم أنه إنما يفيد التأمّل في كلام استقرّ المراد به لضيق العبارة، أو خفاء مرجع الإشارة، أو بعد المتعلّق، أو تقديم ما حقّه التأخير، أو العكس، أو على بعض مقدمات الدليل وما يشبه ذلك ممّا شأنه أن يعرفَ بالتأمل، فحينئذٍ يرجى الانكشاف بالنظر، ومراتب الناس فيه متفاوتة تفاوتاً عظيماً.

وقد يطلب الطالب ما يرجى انكشافه لكن لا ينكشف، فعليه حينئذٍ أن يتبتل إلى ذكر الله جل جلاله والصلاة على نبيه ﷺ ويقول: حسبي الله ونعم الوكيل على الله توكلت. متجهاً بقلبه إليه مستمداً منه عز وجل ويقول: {رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا} طه: ١١٤، {قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ٣٢]، ويدعو بما استطاع فإن لم ينكشف بعد ذلك يراجع إلى الشّرح...

وإن بعض مَن يقرأ الكتب الدقيقة لتحصيل ملكة المطالعة يطيل قدر الدّرس، ويطلب إتمام الكتاب، ولا يهتم بتدقيق النظر فيها، ومثل ذلك الطّالب يرجع كما بدأ.

وبالجملة: إن غرضَ الطالب أمران: أحدهما: معرفة قواعد الفنون. والآخر: تشحيذ الذهن.

وبعض الكتب يقرأ لمعرفة القواعد، فينبغي للطالب أن لا يطلب عند قراءته الوجوه الدقيقة لئلا يعوقه عن إتمامه، وعن فهم أصول مسائله.

وبعض الكتب يقرأ لتشحيذ الذهن، فينبغي للطالب أن لا يطلب إتمامه بالدرس، بل بطلب الغوص إلى أعماقه، وإعمال قوته الناظرة بدرك الوجوه الخفيفة، فإن قراءة كرّاس موجز منه إلى تمام سنة خير من قراءة جميعه إلى تمام السَّنة».

وقال ابن بدران رضي الله عنه(١): «واعلم أنّ للمطالعة والّتعليم طرقاً ذكرها العلماء وإننا نثبت هنا ما أخذناه بالتجربة... فاعلم أننا اهتدينا بفضله تعالى أثناء الطلب إلى قاعدة: وهي أننا كُنّا نأتي إلى المتن أولاً فنأخذ منه جملة كافية للدّرس، ثم نشتغل بحلّ تلك الجملة من غير نظر إلى شرحها ونزاولها حتى نظن أننا فهمنا، ثم نقبل على الشرح فنطالعه المطالعة الأولى امتحاناً لفهمنا، فإن وجدنا فيما فهمناه غلطاً صحّحناه.

ثم أقبلنا على تفهم الشرح على نمط ما فعلناه في المتن، ثم إذا ظننا أننا فهمناه راجعنا حاشيته إن كان له حاشية مراجعة امتحان لفكرنا، فإذا علمنا أننا فهمنا الدّرس تركنا الكتاب واشتغلنا بتصوير مسألة في ذهننا، فحفظناه حفظ فهم وتصوّر لا حفظ تراكيب وألفاظ.

---

(١) في المدخل(ص٤٩٠).

ثم نجتهد على أداء معناه بعبارات من عندنا غير ملتزمين تراكيب المؤلّف ثم نذهب إلى الأستاذ للقراءة، وهنالك نمتحن فكرنا في حلّ الدرس، ونقوّم ما عساه أن يكون به من اعوجاج ونوفر الهمّة على ما يورده الأستاذ ممّا هو زائد على المتن والشرح.

وكنّا نرى أن مَن قرأ كتاباً واحداً من فنٍّ على هذه الطريقة سهل عليه جميع كتب هذا الفن مختصراتها ومطولاتها، وثبتت قواعده في ذهنه وكان الأمر على ذلك».

الخامس والعشرون: مراجعة درسه وضبطه وتمكينه في نفسه؛ فكما ينبغي على الطالب التحضير بالآلية السابقة، كذلك ينبغي عليه مراجعته وضبط مسائله والتأكد من فهمه الصّحيح له، فإن استشكل شيئاً سأل عنه الأستاذ، فالتّحضير والتّيقظ والانتباه للدّرس والمراجعة له هي الأطراف الثلاثة لِمَن أراد أن يستفيدَ من مجالس أستاذه ويتمكّن من العلم الذي يدرسه.

قال الرياشي رضي الله عنه: قيل للأصمعي رضي الله عنه: «كيف حفظت ونسي أصحابك؟ قال: درست وتركوا»[1].

والأولى المواظبة على الدرس والتكرار لما قرأه أول الليل وآخره، فإن ما بين العشاءين مبارك، ووقت السحر أبرك، وقيل:

---

(١) ينظر: جامع بيان العلم (١: ١٠٣).

يا طالب العلم باشر الورعا وجانب واحذر الشبعا
داوم علىٰ الدرس لا تفارقه فالعلم بالدرس قام وارتفعا(١)

السادس والعشرون: كثرة المطالعة المنظمة؛ فينبغي للطالب أن يجتهدَ علىٰ نفسه بكثرة القراءة والمطالعة ضمن برامج عملية يضعها بإرشاد من أساتذته، حتىٰ لا ينحرف ببعض ما يكتب ويقال؛ لأن الكتب تجمع الرطب واليابس، فلا بُدّ من توجيه المعلّم فيما يقرأ ولِمَن يقرأ، ومَن يذق لذّة المطالعة يفضلها ويقدمها علىٰ غيرها من المجالس، وما ذكره العلماء في شرف مجالسة الكتب دون الناس وما في ذلك من السلامة في الدين يطول ذكره، ومنه:

قال بعضهم: متىٰ رأيت بستاناً يحمل في ردن، وروضة تنقل في حجر، ينطق عن الموتىٰ، ويترجم عن الأحياء، الكتاب لك مؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوىٰ، آمن من الأرض، وأكتم للسرّ من صاحب السرّ، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة، ولا أعلم جاراً أبر ولا خليطاً أنصف ولا رفيقاً أطوع ولا معلماً أخضع ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ولا أقل إبراماً وإملالاً ولا أبعد من مراء ولا أترك لشغب ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال من كتاب... فإذا أردت محادثة الحقّ أخذت المصحف فلا أزال أناجيه ويناجيني، وإذا أردت محادثة الرسول ﷺ أخذت كتاب حديث، وكذلك كلّ مَن أردت مناجاته من الأولين والآخرين.

لنا جلساء لا نملّ حديثهم ألفاء مأمونون غيباً ومشهداً

---

(١) ينظر: الفوائد المكية(٢٧).

إذا ما خلونا كان خير حديثهم معيناً علىٰ نفى الهموم مؤيداً
يفيدوننا من عندهم علم مَن مضىٰ وعقلاً وتأديباً ورأياً مسدّداً
فلا ريبة تخشىٰ ولا سوء عشرة ولا تتقى منهم لساناً ولا يداً

وقيل:

حبيبي من الدنيا الكتاب فليس إلىٰ غيره ما بي إليه من الفقر
فكرسيه حجري إذا كنت قاعداً وإن اضطجع أفرشه مستلقياً صدري[1]

السّابع والعشرون: المذاكرةُ مع الأقران ومناظرتُهم؛ لما قيل: العلم غرس وماؤه درس لكن طلباً للثواب وإظهاراً للصّواب، وقيل: مطارحة ساعة خير من تكرار شهر، ولكن مع منصف سليم الطّبع.

وينبغي للطّالب أن يكون متأمّلاً في جميع الأوقات في دقائق العلم، ويعتاد ذلك، فإنما تدرك بالتأمل، خصوصاً قبل الكلام فإنّه كالسهم فلا بُدّ من تقويمِهِ بالتأمّل أَوّلاً[2].

وقال العلوي رضي الله عنه[3] من شروط طلب العلم: «أن يذاكر الأقران والأنظار طالباً للتحقيق لا المغالبة، بل للمعاونة مع الفائدة، بل للاستفادة».

وقال ابن أبي ليلىٰ: «إن إحياءَ الحديث مذاكرتُه»[4].

---

(١) ينظر: الفوائد المكية(ص٢٦-٢٧).

(٢) ينظر: الكشف(١: ٤٨)، والمفتاح(١: ٣٤-٣٥).

(٣) في الفوائد المكية(ص٦).

(٤) ينظر: جامع بيان العلم(ص١٠٢).

وأنشد الأبهري:

إذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ولم يستزد علماً نسى ما تعلما
وكم جامع للعلم في كلِّ مذهب يزيد على الأيام في جمعه علما[١]

وهذه المذاكرة تستلزم أن يصطفي له شريكاً في الطلب، وفياً أميناً، ذكياً نزيهاً، حريصاً على العلم، عالي الهمة، رفيع الخلق؛ ليكون عوناً له على طلب العلم، ومعيناً عليه من عثرات الزمان، ونكبات الأوان، قال الحبيشي رضي الله عنه[٢]:

ويصطفى له شريكاً حاذقا بَرّاً عفيفاً ناصحاً موافقاً
ذا فِطنةٍ مُباحثاً مذاكرا مُناهِماً بجمعه مُكاثرا
منزهاً عن وهمات الكسل ليس بمكثار ولا مُعَطِّل
فالخُسرُ في مقارِنٍ كذوب يسبَحُ في بحر من العيوب

الثّامن والعشرون: أن يتعلَّمَ في صغره قبل البلوغ وبعده، فمثل الذي يتعلّم في صغره كالوشم على الصخرة، والذي يتعلّم في الكبر كالذي يكتب على الماء المنجمد وغيره، فإنه يزول سريعاً[٣]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «مَن تعلّم العلمَ وهو شاب كان كوشم في حجر، ومَن تعلّم العلم بعدما يدخل في السّنّ كان كالكاتب على ظهر الماء»[٤]، وله شواهد[٥]، وأنشد نفطويه لنفسه:

---

(١) ينظر: جامع بيان العلم(١: ١٠٤).

(٢) في نصيحة الطلاب(ص١٣).

(٣) ينظر: شرح شرعة الإسلام(ص٤٥).

(٤) في جامع بيان العلم(ص٨٢).

(٥) في تذكرة الموضوعاتللفتني(ص٢٢)، واللآلئ المصنوعة(١: ٢٤١).

أراني أنسى ما تعلمت في الكبر ولست بناس ما تعلمت في الصغر
وما العلم إلا بالتعلّم في الصِبا وما الحلم إلا بالتحلّم في الكبر
ولو فلق القلبَ المعلمُ في الصبا لألفى فيه العلم كالنقش في الحجر
وما العلم بعد الشيب إلا إذا كَلّ قلب المرء والسّمع والبصر[1]

التّاسع والعشرون: أن يسافرَ في طلب العلم إلى أقصى البلاد البعيدة، ولو مسح كلّ الأرض بقدمه، وإن كان في طلب مسألة واحدة، وحَكى الشّعبيّ رضي الله عنه أنّه قال لابنه: لو أن رجلاً سافرَ من المشرق إلى المغرب فاستفاد في طريقه كلمةً واحدةً من عالم ما قلت: إن سفرك قد ضاع[2].

وقال سعيد بن المسيب رضي الله عنه: «إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد»[3].

فلا ينبغي لطالب العلم أن يتوانى عن الاغتراب عن وطنه، والتنقل من مكان إلى مكان كطالب الرعي، وليقس نفسه بطالب المال في الآفاق، والمتحولين من دار الذلّ طلباً للعزّ[4]. قال الحبيشي رضي الله عنه[5]:

فليرتحل لأخذه العلم على مَن في محلّ نازح قد نزلا

---

(١) ينظر: جامع بيان العلم(ص٨٤-٨٥).

(٢) ينظر: شرح شرعة الإسلام(ص٤٦).

(٣) في جامع بيان العلم(ص٩٤).

(٤) ينظر: الفوائد المكية(ص٣٠).

(٥) في نصيحة الطلاب(ص٢٧).

تأسياً وقدوة عَمَّن سَلَف   وهذه طريقةٌ لمن خَلَف

الثلاثون: تدريس ما درَّسه، وتعليم ما تعلّمه، فتدريس العلم من أعظم الوسائل في ترسيخ العلم في نفس صاحبه، وتمكينها من ضبطه، وفيه إعانة على نفسه بالتحضير والإعداد لما سيلقيه على مَن يدرسهم، ولمكانة هذا المنهج، فإنه متبع في أكثر المدارس العريقة في تدريس العلوم عند علمائنا كما هو مشهور.

ويتكلَّم اللكنوي ﵁ عن سبب نبوغه بين أقرانه باتباعه هذه الطريقة في التدريس لما تعلّمه، فيقول[١]: «وقد ألقى الله ﷻ في قلبي من عنفوان الشباب، بل من زمان الصبا محبّة التدريس والتأليف، فلم أقرأ كتاباً إلا دَرَّسته بَعده».

وعن إسماعيل بن رجاء ﵁: «أنه كان يجمع صبيان الكتاب فيحدثهم لئلا ينسى حديثه»[٢].

الحادي الثلاثون: الإنفاق على التعلّم والكتب؛ فينبغي للطالب أن لا يبخلَ مطلقاً على شراء الكتب واقتنائها، ولا يعتمد في مطالعته على الاستعارة والمكتبات العامة، فإنه يقرأ الفائدة في الكتاب ويؤشر عليها إن كان في ملكه، ويستطيع أن يعودَ إليها ويراجعها كلّما احتاجها، في حين إن لم يكن الكتاب له فكيف يؤشر؟ ويصعب الرجوع إليه عند الحاجة والاستفادة منه عند الطّلب، فكأنّه لم يطالع ولم يخرج الفوائد والدرر.

---

(١) في دفع الغواية(١: ٤١).

(٢) ينظر: جامع بيان العلم(١: ١٠٢).

فإذا اهتمّ بفنّ لا بُدّ أن يُلِمَّ بكلِّ كتبه ويجمعها فلا يُطبع كتابٌ فيه إلا ويشتريه، وعليه أن يأخذَ الكتاب عندما يراه، ولا يؤجِّلَه لمرّة أُخرىٰ خشية أن يُفْقَدَ وينفدَ من الأسواق كما هو المعتاد في الكتب العلمية الرائقة.

فوجودُ مكتبة متخصّصة جيدة لديه يمكِّنه من بحث المسائل علىٰ أتمّ وجه، ومراجعة ما يطرح وما يقال بأسرع وقت وأفضل صورة، فالكتاب وإن لم يستفد منه عند شرائه، فسيأتيه يوم يرجع فيه إليه، وينهل من عبقه وخيره.

وقد سئل جالينوس: بم كنتَ أَعلم قُرنائك بالطب؟ قال: لأني أنفقت في زيت المصباح لدرس الكتب مثل ما أنفقوا في شرب الخمر(١).

الثّاني والثّلاثون: الاهتمام بمطالعة سير وأخبار العلماء السابقين؛ فإنها تنقل قارئها من عالمه إلىٰ عالمهم، وتبثّ في نفسه الهمّة العالية والجدّ في السير علىٰ طريقهم، ومحاكاتهم في طلبهم ودراستهم وتدريسهم وسهرهم، فإن الإنسانَ يتأثّر بالعمل أكثر من الكلام، وهؤلاء القوم أحقّ مَن يقتدىٰ بهم؛ لأنّهم طليعة هذه الأمة ونقلة هذا الدّين، وهم النموذج الحيّ لما كان عليه رسول الله ﷺ.

قال بعض العلماء: الحكايات جندٌ من جنود الله، يثبِّتُ الله ﷻ بها قلوب أوليائه. قال: وشاهدُه قولُه ﷻ: {وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ} [هود: ١٢٠]، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: الحكايات عن العلماء

---

(١) ينظر: جامع بيان العلم(١: ١٠٣).

ومحاسنهم أحبّ إليّ من كثير من الفقه؛ لأنها آداب القوم. وشاهدُه قوله ﷻ: {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام: ٩٠]، وقوله ﷻ: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ} [يوسف: ١١١].

ومجالسة العلماء الصّالحين، أو سماع أخبارهم، أو قراءة وقائعهم وسيرهم، من أهم مقاصد الحياة عند العقلاء الصّلحاء، فما تُتَحبَّبُ الدنيا لعاقل إلا لتكميل صفاته، وتكثير حسناته، وتزوُّدِه لآخرته، وفي هذا يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها: لولا أن أَحمِلَ أو أُجَهِّزَ جيشاً في سبيل الله ﷻ، ولولا مُكابدةُ الليل ـ يعني قيام الليل والعبادة فيه ـ، ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب التمر»(١).

وأفضل مَن جمع اللطائف من سير العلماء وأخبارهم في تحفيز الطلبة والكملة على مواصلة طريق العلم هو الشيخ المربي عبد الفتاح أبو غدة رضي الله عنه، فله عدّة كتب في ذلك منها: «قيمة الزمن عند العلماء»، و«صفحات من صبر العلماء»، و«العلماء العزاب»، فعلى طالب العلم قراءتها وأمثالها من كتب السّير والتّراجم في الأوقات التي تضعف نفسه عن المطالعة في العلوم المتينة الصّعبة، فإن مثل هذه الكتب سهلة قريبة من النفس، تروح عنها وترفع همّتها.

(١) ينظر: نماذج من رسائل الأئمة(ص٧٢).

الثّالث والثّلاثون: تحقيق الكتب العلمية فيما تخصّص من علم؛ وذلك بجمع بعض مخطوطات كتاب في علم درسه وتعلّمه، وطباعته ومقابلة نسخه، وضبط ما يُشكل منه، وترقيمه وتقطيع فقراته، وتخريج أحاديثه، وعزو نصوصه إلى مظانها، والتعليق عليه بما تيسر خدمة له ولهذا العلم.

فإن مثلَ هذا العمل يجعله يقرأ العبارة الواحدة مَرَّات ومَرَّات ليتأكّد من سلامتها وصحّتها حتى يتمكّن من ضبطها وترقيمها وتفقيرها، ويمكّنه من التّعرف على مناهج العلماء في التأليف وتنقيح المسائل، ويُعرِّفُه بكتب كل فنٍّ لضرورة رجوعه إلى كلِّ نصّ كَتَبه المؤلِّفُ في الكتاب الأصلي الذي ذُكِر فيه؛ ليتأكّد من عدم تحريفه من النساخ، ويبصِّره بتخريج الأحاديث والآثار، فيتعرَّف على صحيحها من سقيمها.

فعمل الطالب بالتحقيق مرآة له يتعرّف بها على نفسه ومدى قوته بالعلوم المختلفة من نحو وإملاء وأدب وفقه وحديث وغيرها، فيسعى لإتمامه وإكماله.

الرّابع والثلاثون: التّخصّص بأحد علماء أهل السُّنة الكبار؛ بأن يعمل دراسة علمية وافية عن حياته العلمية الحافلة، ويجمع مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة، ويَنْكَبُّ على دراستها وطباعتها وتحقيقها وخدمتها فيما تيسر له من أوقات.

وسيلاحظ بعد مدّة أنه من خلال هذه الشخصية العلميّة سينفذ إلى العلوم الشرعية كافّة، ويتعرّف على فنونها ودقائقها، وسينهل من علمه،

ويجعله على بصيرة من أمره في النظر إلى المسائل المختلفة، وسيأخذ بيده للترقي فيها. فينبغي للطالب أن يهتمّ ويتخصَّصَ بدراسة أحد العلماء نفعاً لنفسه وخدمة لدينه بنشر معارف وعلوم هذا العالم.

الخامس والثّلاثون: الاعتناء بالأبحاث العلمية الرصينة؛ بأن يجمع كلّ ما قيل وذُكِرَ في مسألة علميّة ويحرّرها ويبيّنها ويفصّلها بما يزيل الغموض عنها، ويرفع الالتباس، وهذا يتطلّب منه مراجعة العديد من الكتب، والاطلاع على ما فيها من الاختلاف بين العلماء، والتمكّن من إخراج الدقائق من بطون المؤلّفات، وكلّ هذا يفتح أذهان الطالب، ويوسع صدره، ويصقل شخصيته العلمية بالموضوعية، ويخرج التعصّب من قلبه، ويزيد في مكانة العلماء في نفسه.

السادسُ والثلاثون: الاهتمام بدراسة وضبط ما يلزمه من التكنولوجيا العصرية؛ لا سيما بالتعرّف على الكمبيوتر والبرامج التي تفيد مجاله وتخصّصه، وفي علم الشريعة عليه أن يعتني بضبط برنامج الورد، وإتقان الطّباعة عليه؛ لكثرة حاجته لذلك، كما يتعرّف على كلّ الموسوعات والمكتبات الالكتروينة التي تصدر أولاً بأول لما فيها من العلم الكثير.

ولا يخفى على أحد الحاجة الماسة إلى التعرف على الانترنت والمواقع العلميّة التي تفيد الطالب، وكيفية التعامل معها، فينبغي الإفادة من كلِّ تقنية عصرية تخدم علمنا الشّرعي.

السّابع والثلاثون: الزّواج ممّن يطلب العلم ويرغب فيه؛ إذ بكثرة التّوافق والاهتمام بين الزّوج والزّوجة يسعد كلّ منها بالآخر، فزواجُ طالب العلم من طالبة علم يعينه على مواصلة طريقه في الطلب؛ لعدم وجود مَن يصرفه عن ذلك، بل إن زوجته ستشجعه عليه إن تقاعسَ، وترفعُ من همّته، وتطالع المسائل معه، وتناقشه فيها، وبذلك تتوفّر له بيئة علمية رائقة في بيته وبين أولاده.

وإن لم تكن زوجته كذلك، فعليه أن يبذلّ قصارى جهده في تحبيبها وترغيبها في العلم وأهله، وأنه أفضل سبيل لِمَن أرادَ أن يحيا حياة هانئة مطمئنة؛ لتمكّنه من ضبط أحكام دينه، وانتظام حياته عليها، ومعلوم أن سعادتَنا بقدر التزامنا بأوامره ﷻ، وأن تعلمّ العلم وتعليمه من أفضل القُرَب لله ﷻ، وأنها هي الصدقة الجارية التي تبقى للإنسان في هذه الدار الفانية، ومثل ذلك على طالبة العلم أن تفعله إن لم يكن زوجها كذلك.

وحاصل ما سبق أنّ على طالب العلم إخلاص نيّته لله ﷻ والتخلّص من كلّ خلق ذميم والتخلّق بكلّ خلق حميد، والإقبال على العلم بكلّ طاقته، وصرف أوقاته وأمواله وجهوده فيه، ورفع همّته لطلبه ونيله، والأخذ بأسباب ذلك من المعلم الصادق الناصح المنضبط، والتحضير الكامل، والتيقظ والانتباه لمدرسه، والمراجعة والمتابعة لمسائله، ومناظرة الأقران فيه، والكتابة والبحث في مسائله، والتحقيق لكتبه، والاهتمام بعلمائه، وسلوك كلّ سبيل موصل إليه، والابتعاد عن كلّ ما يصرف عنه، حتى تتكوَّن له ملكة علمية فيه، فينفع البلاد والعباد.

وفي أنواع الملكات العلمية لطالب العلم يقول العلوي رضي الله عنه[١]: «إن الإلحاح والإكثار من طلب العلم وتحصيله؛ لأن طلب الشيء من وجه واحد مع الإلحاح أقرب لنواله، والعلمُ بالمداومة والإلحاح يصير ملكةً: أي هيئةً راسخةً في النَّفس. والملكات ثلاث:

١. ملكة الاستحصال: وهي كيفية راسخة في النفس تستعدّ بها النفس استعداداً قريباً لقبول ملكة الاستخراج، وتحصل هذه الملكة بأخذ أوائل العلوم ومبادئها الأولية من أفواه الرجال.

٢. وتليها ملكة الاستخراج: وهي التي تستخرج بها المعاني من العبارات الواردة عليها بسهولة من غير مشقّة، وتحصل هذه الملكة بإتقان العلوم الآلية وبالمواظبة على المطالعة.

٣. وتليها ملكة الاستحضار: وهي التي بها تستخرج النفس المعاني والعلوم الغائبة عنها متى شاءت بسهولة من غير تجشم مراجعة إلى محلها من الكتب، وهي أعزّ الملكات».

فهنيئاً لِمَن حصَّل هذه الملكات، فإنه في الدرجات العلا، ومن أصحاب المناقب العظمى، وهم قلائل في هذه الزمان.

وفي خاتمة الكلام أحببت أن أخصَّ علم الفقه وأصوله بزيادة عناية وأقدم فيه برامج أخرى من تجارب علمائنا ليكون طالبه على بصيرة به وبتنوع

---

(١) في الفوائد المكية(ص٢٧).

مسالكه وكتبه، فيختار ما يناسبه على حسب وقته وزمانه، فإنها مؤدية إلى المقصود، ورافعة صاحبها إلى المقام المحمود.

قال ابن بدران رضي الله عنه(١): «وحيث إن كتابي هذا مدخل لعلم الفقه أحببت أن أذكر من النصائح ما يتعلّق بذلك العلم فأقول: لا جرم أن النصيحة كالفرض وخصوصاً على العلماء.

فالواجب الديني على المعلّم إذا أراد إقراء المبتدئين أن يقرئهم أولاً كتاب «أخصر المختصرات» أو «العمدة» للشيخ منصور متناً إن كان حنبلياً، أو «الغاية» لأبي شجاع إن كان شافعياً، أو «العشماوية» إن كان مالكياً، أو «منية المصلي» أو «نور الإيضاح» إن كان حنفياً.

ويجب عليه أن يشرح له المتن بلا زيادة ولا نقصان بحيث يفهم ما اشتمل عليه ويأمره أن يصوّرَ مسائله في ذهنه، ولا يشغله بما زاد على ذلك... فلا ينبغي لِمَن يقرأ كتاباً أن يتصوّرَ أنه يريد قراءته مرّة ثانية؛ لأن هذا التصوّر يمنعه عن فهم جميع الكتاب، بل يتصوّر أنه لا يعود إليه مرّة ثانية أبداً، ... وكلّ كتاب يشتمل على مسائل ما دونه وزيادة، فحقق مسائل ما دونه لتوفّر جدّك على فهم الزيادة.

فإذا فرغ الطالب من فهم تلك المتون نقله الحنبلي إلى «دليل الطالب»، والشافعي إلى «شرح الغاية» والحنفي إلى «ملتقى الأبحر» والمالكي إلى

---

(١) في المدخل(ص٤٨٨-٤٨٩).

«مختصر خليل»، وليشرح له تلك الكتب على النمط الذي أسلفناه فلا يتعدّاه إلى غيره؛ لأن ذهن الطالب لم يزل كليلاً ووهمه لم يزل عنه بالكلية.

ثم إذا شرح له تلك الكتب وكان قد اشتغل بفنّ العربية أوقفه هنالك وأشغله بشرح أدنى مختصر في مذهبه في فنّ أصول الفقه كـ«الورقات» لإمام الحرمين وشرحها للمحلي دون ما لها من شرح الشرح لابن قاسم العبادي والحواشي التي على شرحها، فإذا أتمّها نقله إلى «مختصر التحرير» إن كان حنبلياً مثلاً، ويتخيّر له من أصول مذهبه ما هو أعلى من «الورقات» وشرحها.

فإذا أَتمّ شرح ذلك أقرأه الحنبلي «الروض المربع بشرح زاد المستنقع»، والحنفي «شرح الكنز» للطائي، والمالكي أحد شروح «متن خليل المختصرة»، والشافعي «شرح الخطيب الشربيني للغاية» ولا يتجاوز الشروح إلى حواشيها ولا يقرئها إياه إلا بعد اطلاعه على طرف من فنّ أصول الفقه.

واعلم أنه لا يمكن للطالب أن يصيرَ متفقهاً ما لم تكن له دراية بالأصول، ولو قرأ الفقه سنينَ وأعواماً، ومَن ادّعى غير ذلك كان كلامه إمّا جهلاً وإمّا مكابرة، فإذا انتهى من هذه الكتب وشرحها شرح مَن يفهم العبارات ويدرك بعض الإشارات نقله الحنبليّ إلى «شرح المنتهى» للشيخ منصور و«روضة الناظر وجنة المناظر» في الأصول، والشافعيّ إلى «التحفة» في الفقه، و«شرح الأسنوي على منهاج البيضاوي» في الأصول، والمالكي إلى «شرح مختصر ابن الحاجب الأصولي» و«شرح أقرب المسالك لمذهب مالك»،

والحنفي إلى «الهداية» و«شرح المنار» في الأصول، فإذا فرغ من هذه الكتب وشرحها بفهم واتقان قرأ ما شاء وطالع ما أراد فلا حجر عليه بعد هذا».

ولَمَّا كان الفقه الحنفي أكثر فقه مذاهب أهل السنة عنايةً واهتماماً ودراسةً وتدريساً رَغِبْتُ في إضافة بعض الفوائد التقطتها من «ترتيب العلوم» لما فيها من النفع لدارسه وقارئه، قال ساجقلي زاده رضي الله عنه[1]: «ومن المؤلَّفات في علم الأحكام «مختصر القدوري» مناسب لطبائع المبتدئين، معروف باليمن والبركة، لكن يستخفّه بعض مَن تزيا بزي الطلبة وغلبت عليه الشقوة.

ومن المؤلّفات في الفقه «الهداية» ونعمت هي ذات عبارات منوّرة، فخر لمذهب أبي حنيفة رضي الله عنه. ولا ينبغي للطلبة أن يستغنوا عنها بغيرها، ورحم الله تعالى بعض السلاطين، بنى مدرسة وشرطها لِمَن يُدرِّس فيها «الهداية» مع شرحها الأكملي، لكن لا يستأهل للاطلاع عليها إلا مَن برع في أصول الفقه.

وفنُّ الفقه أصعب الفنون وأطولها، وهو علم الأئمة المجتهدين، وأغلب ما يحتاج إليه العالمون، بحرٌ لجُيٌّ، لا يغوص فيه إلا ذكيٌّ أوحديٌّ ماهرٌ في أُصوله، ولا تحصل البضاعةُ فيه إلا بسعي بليغٍ في مدّةٍ مديدة بهمّة عالية، بدراسة مثل كتاب «الهداية» مع شرحها الأكملي، وأما التبحّر فيه، فهو يكاد أن يستغرق العمر.

---

(١) في الترتيب(ص١٥٩-١٦١).

وكاشف المشكلات فيه، فهو أعز من الكبريت الأحمر، ولا تُحصىٰ مسائلُه التي تَحيَّر فيها العلماء.

والعجبُ من بعض الطلبة أنه يهمل الاشتغال به زعماً منه أنه هَيِّن يتحصّل بأدنىٰ سعي، فإن كان زعمه هذا حين لم يطّلع عليه أَصلاً فاعذروه، وإن بعد اطلاع ما فاعلموا أنّ العلوم كلَّها هينٌ علىٰ أَمثاله.

ثم ما تضمنه مثل «الهداية»، فهو المسائل المعروفة التي يغلب وقوعها، وأما نوادر الفقه التي تضمنها مثل «فتاوىٰ قاضي خان»، و«الخلاصة»، والمؤلف الذي تضمن نوادره يسمّىٰ في عرف الناس كتاب الفتوىٰ. وأحسن ما تضمن النوادر وأدقه كتاب «الأشباه والنظائر» لابن نجيم ﵁، وهو قَمِنٌ ـ أي جدير وحقيق ـ أن يكتب بالتبر الأحمر علىٰ صفحات الشمس والقمر، لا بُدّ أن يستصحبه ويطّلع عليه كلّ مَن انتصبَ للجواب عن استفتاء العامة».

وقال أيضاً[(١)]: «واعلم أنّ هذا الفنَّ طويلٌ عميقٌ، لا تحصل البضاعة منه إلا في مدّةٍ متطاولةٍ باشتغالٍ بمثلِ «التنقيحِ» وشرحِهِ وحاشيتِهِ، لكن أكثر المشتغلين بهذه الثلاث لا تحصل لهم البضاعة من هذا الفنّ؛ لاضطراب سوق المتن والشرح، وقد أصلحهما ابن الكمال، لكن لا يؤول إصلاحه إلىٰ منافع كثيرة، وما رأينا في هذا الفنّ متناً أحسن وأجمع من «الوجيز» ليوسف الكرماستي ﵁ لكن لم نر له شرحاً...

---

(١) (ص١٥٧-١٥٨).

فمَن أَرادَ الاشتغال بمثل «الهداية» و«شرح صدر الشريعة للوقاية»، فلا ينبغي له أن يشتغلَ به إلا بعد تحصيل علم الأصول.

وبالجملة ينبغي أن يشرع طالب هذا الفنّ في «مختصر القدوري»، وفي سائر ما يستمد منه قبل تحصيل هذا الفنّ، ثم بعد تحصيل هذا الفنّ يشرع في «الهداية»، وفي «شرح صدر الشريعة»، وهذا طريق مستقيم».

وقال أيضاً[1]: «اعلم أن الرسوخَ في الفقه وأصوله والعلم بدقائقهما لا يكون إلا بعد معرفة النحو والمعاني، والراسخ فيهما يحكم في علم التفسير والحديث، فإذا ذكر العالِم فليذكر ذلك، وإذا افتخر أحد بعلم فذا أحرىٰ بأن يفتخر؛ لأنه هو العالِم الحكيم والطود العظيم، لكن قلَّما يوجد ذلك الراسخ في مشارق الأرض ومغاربها... ».

وبعد الصّلاة والسّلام علىٰ النّبيّ المصطفىٰ ﷺ نذكّر القارئ الكريم بأهمية ما ذكرناه لدرجة العلم الرفيعة ومنزلته، ويَكفينا هاهنا هذه الأبيات:

لا خير في المرء إذا ما غدا لا طالب العلم ولا عالما[2]

وقيل:

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمَن هو
وإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت إليه المحافل[3]

---

(١) (ص١٦١-١٦٢).

(٢) ينظر: جامع بيان العلم(١: ١١٠).

(٣) ينظر: جامع بيان العلم(١: ١٥٩).

وبعد هذه الإفاضة في بيان الطرق والوسائل والشروط التي ينبغي لطالب العلم مراعاتها عند طلبه ليكتمل بدره ويتحقَّق مراده، فإن طرفاً من هذه الوسائل راجعٌ للعالِم، وتأثيره في شخصية طالبه، فلا بُدّ للطالب حتى ينالَ النفع من معلّمه، وينهلَ من معارفه، أن يحسن النظر إليه، ويبجلَه ويعظّمَه ويقدرَه وإلا حُرم من علمه، وعوقب بإغلاق قلبه، وتفصيل هذا في الومضة التّالية:

الومضة الثّامنة:

احترام المعلم وتوقيره

وحقّ الشيخ حقّ يلزم وهو الذي به النقول تجزم
وليس يخفى القول باللزوم حتماً على الخصوص والعموم
وحقّه لي يا معشر الطّلاب وسائر الإخوان والأحباب
على جميع الناس أن يجلا وأن يكون أمرُهُ ممتثلا
بالسمع والطاعة والتعظيم والشكر والقبول والتسليم
مكرماً بأهله وولده موقّراً معزّزاً في بلده
والذبّ عنه حاضراً أو غائباً وردُّ مَن له يكونُ عائباً
فعرضُه محترم معصوم ولحمه محرمٌ مسموم
وقُل لمن بسبِّه قد اعتنى الحرّ مَبْلُوٌ بأولاد الزنا
فمَن تراه مطلقاً لسانَه بشيخه فأمّه خَوَّانه
وإن تكن مُفَتِّشاً عن سببه وجدتَه لعلّة في نسبه[1]

فمن كثرة الجهلِ وقسوةِ القلبِ وجلافةِ الطبعِ وعدمِ الاستفادة من الأستاذ بين طلبة العلم أسباباً كثيرة يطول المقام في عرضها هنا، وإنّما أكتفي بذكر أحدها، وهو احترام المعلم وتوقيره، قال الإمام الزرنوجي رضي الله عنه[2]: «اعلم أنّ طالبَ العلم لا ينال العلم، ولا ينتفع به... إلا بتعظيم العلم وأهله، وتعظيم الأستاذ وتوقيره، فقد قيل: ما وصل مَن وصل إلا بالحرمة، وما

(١) ينظر: نصيحة الطلاب(ص١٨-٢٠).
(٢)في تعليم المتعلم(ص٣٩).

سقط مَن سقط إلا بترك الحرمة ـ أي حرمة الخُلق والأدب بتحري حرمة مَن يتعلّم منهم ـ.

رأيت أحق الحقّ حقّ المعلم وأوجبه حفظاً على كلّ مسلم
لقد حُقّ أن يهدى إليه كرامة لتعليم حرفٍ واحد ألف درهم»

وقال العلامة الخادمي رضي الله عنه(١): «ومن أسباب انقراض العلم عدم مراعاة حقِّ المعلم قيل: مَن تأذّى منه أستاذه يحرمُ بركة العلم ولا ينتفع به إلا قليلاً».

ومن احترام الطالب وتوقيره لمعلِّمه:

١. أن يُقَدِّمَ حقّ معلمه على حقِّ أبويه، قال الإمام الزرنوجي رضي الله عنه(٢): «فإن مَن علمك حرفاً ممّا تحتاج إليه في الدّين فهو أبوك في الدّين».

آباء أجسامنا الذين مضوا قد أوقعونا في موقع التلف
من علم العلم كان خير أب وهو أبو الروح لا أبو النطف

وفي «غذاء الألباب»(٣): «ينبغي احترام المعلم الذي هو الشّيخ وتوقيره والتّواضع له، وكلام العلماء في ذلك معروف. وذكر بعض الشّافعية أنّ حقَّه آكد من حقِّ الوالد؛ لأنَّه سبب لتحصيل الحياة الأبدية، والأب سبب لحصول الحياة الفانية، فعلى هذا تجب طاعته وتحرم مخالفته... وقد قال علماء المصطلح: الأشياخ آباء في الدين، وقال لي شيخي أبو التقي الشيخ عبد

(١) في بريقة محمودية(٣: ٢٥٧).
(٢) في تعلم المتعلم(ص٣٩).
(٣) (١: ٣٩٠).

القادر التغلبي الشيباني: شيخك أبوك، بل أعظم حقّاً من والدك; لأنه أحياك حياة سرمدية، ولا كذلك والدك أو كلاماً هذا معناه وقال لي: الناسُ يقولون فلان يعني نفسه لا ولد له، وهل لأحد من الولد مثل ما لي يعني تلامذته رضوان الله عليه»[1].

٢. أن لا يتبع زلّة المعلم وهفوته، ويحمل ما سَمِعَ منه من الهفوات على أحسن المحامل والتأويلات. قال الإمام الغزالي رضي الله عنه[2]: «ولا يسيء الظنَّ به في أفعال ظاهرها منكرة عنده، فهو أعلم بأسراره، وليذكر عند ذلك قول موسى عليه السلام للخضر عليه السلام: {أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا} [الكهف: ٧١]، وكونه مخطئاً في إنكاره اعتماداً على ظاهره».

٣. أن يتبعَ الأستاذَ وإن ظنَّ كون الصواب في خلافه؛ لأن سالك الطريق قد يظنّ خطأ مَن يهديه، ثم يظهر أن الصوابَ عنده، ألا يرى أن موسى عليه السلام لم يصبر وراجع الخضر عليه السلام حتى حُرِمَ من صحبته، قال الله جل جلاله: {قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ} [الكهف: ٧٨].

٤. أن لا يردَّ كلام المعلّم عليه، ولو كان كلام المعلّم فاسداً، قيل: مَن قال لأستاذه: لم؟ حين رآه في أمر غير مشروع لا يفلح أبداً، وإن احتيج إلى الردّ لا محالة فبالتعريض لا بالتصريح. قال الحبيشي رضي الله عنه[3]:

---

(١) ومثله في الآداب الشرعية لابن مفلح (١: ٤٤٠).

(٢) في بداية الهداية (ص١٠٩).

(٣) في نصيحة الطلاب (ص٢١-٢٢).

وإن يَكُنْ مـن بحثـه لاح الغَلَـط قابَلَـه بحسـن وجـهٍ وانْبَسَط
مُراجعـاً بـألطف العبـارة كالمستفيد منـه بالإشـارة
مُتَّقِيـاً زَلَّتَـه التـى تـرد منتظـراً فَيْئَتَـه كـما ورد
حتـى إذا ثـاب لـذاك فهمُـهُ فليحمـد الله الـذي ألهَمَـه
ولا يسـئ ظنّـه بـما ظهـر فحالةُ القصور من طبع البشر
والخبر الصحيح في رفع الخطأ عـن هـذه الأمّـة كشـاف الغطـا
وشـيخه لـه عليـه الفضـل فـلا يُظَـنّ فيـه إلا النُّبـل

٥. أن لا يفتتح الجاهلُ الكلامَ عند العالِم، والتلميذ عند الأستاذ، أو الأعلم، أو الأفضل منه بشيء. قال الإمام الزرنوجي رضي الله عنه(١): «ومن توقيرِ المعلم... أن لا يبتدئ الكلامَ عنده إلاّ بإذنِه، ولا يُكثر الكلام ولـو مُباحـاً عنـده؛ لأنه يُفضي للخروجِ عـن الأدب». وفي «الطريقـة المحمودية وشرحها للخادمي»(٢): «وقد صرَّحوا في الفتـاوى بكراهـةِ أن يقـولَ الرجـل لِمَن فَوْقَه في العلم والفضل الديني: حان ـ أي حضر ـ وقت الصلاة، أو قوموا نصل، أو نحوهما ممّا فيه تركُ الأدب، لعلَّ ذلك عند علمه وقتها مثلاً، وأما عند عدم علمه فيحظر إن [لم] يغلب رضاه؛ لأنه تركُ أدب وتوقير».

(١) في تعليم المتعلم(ص٤٠).
(٢) (٣: ٢٥٦).

٦. أن يتواضعَ ويتملَّقَ ويخدمَ وينصرَ ويدعو لأُستاذه سرّاً وجهراً، فقد كان الإمام أحمد رضي الله عنه يكثر من الدعاء لشيخه الإمام الشافعي رضي الله عنه(١)، قال الحبيشي رضي الله عنه(٢):

ولا يزال داعياً مستغفراً لشيخه معظماً موقراً
خوفاً من العقوق للشيخ فما أفلح مَن بذمه أرخى فَماً

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه(٣): «فلا يُنال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع، قال جل جلاله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد} [ق: ٣٧] ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلاً للعلم فهماً، ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السّمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كلّ ما أُلقى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشّكر والفرح وقَبول المنة، فليكن المتعلّم لمعلّمِه كأرض دمثة نالت مطراً غزيراً فتشرّبت جميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله.

ومهما أشار عليه المعلمُ بطريق في التعليم فليقلده، وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه؛ إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها... وبالجملة كلّ متعلّم استبقى لنفسه رأياً واختياراً دون اختيار المعلّم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران».

---

(١) ينظر: الانتقاء(ص١٢٥).

(٢) في نصيحة الطلاب(ص٢٢-٢٣).

(٣) في الإحياء(١: ٦٤).

٧. أن يقبلَ يدَه، ففي «التبيين»[١] و«درر الحكام»[٢]: «ورخَّص شمسُ الأئمة السَّرَخْسيّ رضي الله عنه وبعضُ المتأخرين تقبيل يد العالم أو المتورع على سبيل التبرك»، قال العلامة الشُّرُنْبُلاليّ رضي الله عنه: «وعلمت أن مفادَ الأحاديث سنيته أو ندبه كما أشار إليه العَيْنيّ»[٣]، وفي «البحر الرائق»[٤]: «عن سفيان رضي الله عنه أنه قال: تقبيل يد العالم والسلطان العادل سنة»، وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «قبلنا يد النبي صلى الله عليه وسلم»[٥].

٨. أن لا يخذلَه، ولا يؤثر عليه أحداً، قال العلامة سيد علي زاده رضي الله عنه[٦]: «ولا ينبغي أن يخذله ـ أي يتركَ عونَه ونصرتَه ـ ولا يستأثر ـ أي لا يختارَ عليه أحداً، فإن فعلَ ذلك الخذلان والاستئثار، فقد قصم عروة من عرى الإسلام».

٩. أن لا يجلس مكانه وإن غاب عنه إن علم مجيئه وجلوسه مرّة أخرى، فإن غابَ ولم يجئ فيجوز، وكذا أن لا يَتَكَلَّمَ عنده إلا بإذنه، وأن لا يتقدَّمَ عليه في مشيه إلا للدلالة. قال الحبيشي رضي الله عنه[٧]:

(١) (٦: ٢٥).

(٢) (١: ٣١٨).

(٣) ينظر: رد المحتار(٦: ٣٨٣).

(٤) (٨: ٢٢١).

(٥) في سنن ابن ماجة(٢: ١٢٢٣)، وسنن أبي داود(٣: ٤٦).

(٦) في شرح شرعة الإسلام(ص٤٣-٤٤).

(٧) في نصيحة الطلاب(ص٢٠).

وليحـــذَر الجلــوس في مكانـــه تأدُّبـــاً عـــلى علـــوّ شـــأنه
أو يبتـدي الكـلام عنـد حضرـته إلا بـــإذن منـــه في حكايتـــه
ولـــيس يمشيـــ أبـــداً أمامـــه حفظـــاً لحقّـــه مـــن الكرامـــة

١٠. أن يقوم عند مجيئه وذهابه. وقد نُقِلَ عن القُهُستاني ﷺ: القيام لغير المعلّم إنما يكره إذا أحبّه مَن يقام له[1]. قال الحبيشي ﷺ[2]:

ويـنهضُ التلميـذ فـوراً للقيـام إذا أتـى الشـيخ ويـدنو للسـلام

وبعد أن لاحظنا الحقّ العظيم للمدرس على تلميذه، والتوقير الكبير الذي يجب أن يقابله به، والابتعاد عن كلِّ ما يؤذيه ويزعجه؛ لا سيما فيما تعلّق بإساءة الظنّ به، فينبغي أن ينتبه إلى المنزلة الرفيعة لعلمائنا علينا، فهم نقلة هذا الدين، وهم ورثة الأنبياء والمرسلين، وهم الآباء والأجداد الروحانيون لنا، فمَن آذى آباءه وأجداده، مَن هو؟ وإلى أي نسب ينحدر؟ ويليق به ما قاله الحبيشي فيما سبق؛ لذلك سيكون هذا موضوع الكلام في الومضة التّالية:

---

(١) ينظر ما سبق: بريقة محمودية شرح الطريقة المحمودية(٣: ٢٥٦-٢٥٧، ٤: ٣)، وتعليم المتعلم(ص٣٩-٤١)، وشرح شرعة الإسلام(ص٤٣-٤٤)، وغيرها

(٢) في نصيحة الطلاب(ص٢٠).

الومضة التّاسعة:

لحوم العلماء مسمومة

إنّ مَن يغمزُ ويلمزُ في أئمةِ الدِّينِ من كبارِ الفقهاءِ والمتكلمينَ وأهلِ السّلوك، ممَّن شاع ذكرُهم وانتشر صيتهم في البلاد وبين العباد كالإمام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم ﷺ، فإنه يرتكب فعلاً قبيحاً لا يصدر عادةً إلا عمَّن لم يتبحَّر في العلوم، فلم يعرف حقيقتَها؛ ولذا لم يُنْزِل أهلَها منزلتَهم من التّقديرِ والاحترام، ويَظنُّ أنه بقراءةِ كتابٍ أو كتابين بلغ ما لم يبلغه الأَوّلون والآخرون، فيا ليت هذا الفاضل يُكثر من ملازمةِ المشايخ المعتبرين، ممَّن أَخذوا العلمَ عن الشيوخ؛ ليتأدّب بأدبهم ويَسلك سلوكَم.

وحفظ الله شيخنا العلامة محمد رمضان عبد الله حيث قال: «إن أَسْعَدَ أَحوالنا أن نفهمَ ما يقول سادتنا الفقهاء والمتكلّمون»، ومَن خَبِرَ العلمَ وتَفَحَّصَه أدركَ حقيقةَ ذلك؛ لأنهم سبروا الفنون وحَقّقوها ونقحوها، فأوجزوها لنا بعبارة مختصرةٍ جزلةٍ لا يفهمُها ولا يعرفُ مرادَها إلا مَن أَسْهَرَ ليلَه وأظمأَ نهارَه، ومَن وصل إلى هذا كان من أَكثرِ الناسِ أَدباً وتواضعاً أَمامَ هؤلاء العلماء.

قال الإمام النّووي رضي الله عنه[1]: «في النهي الأكيد والوعيد الشديد، لمن يؤذي

---

(١) في المجموع(٤: ٤٧-٤٨).

أو ينتقص الفقهاء والمتفقهين، والحثّ على إكرامهم، وتعظيم حرماتهم، قال جَلَّالِهُ: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوب} [الحج: ٣٢]، وقال وَعَجَلَّ: {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ} [الحج: ٣٠]، وقال جَلَّالِهُ: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِين} [الحجر: ٨٨]، وقال وَعَجَلَّ: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا} [الأحزاب: ٥٨].

وثبت في «صحيح البُخاري»[١] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «إنّ الله وَعَجَلَّ قال: مَن آذى لي وَليّاً فقد آذنتُه بالحرب»، وروى الخطيب البَغدادي[٢] عن الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما قالا: «إن لم يكن الفقهاء أولياء الله فليس لله وليّ»، وفي كلام الشافعي رضي الله عنه: «الفقهاء العاملون»[٣].

وعن ابن عَبّاس رضي الله عنهما: «مَن آذى فقيهاً فقد آذى رسول الله ﷺ، ومَن آذى رسول الله ﷺ فقد آذى الله وَعَجَلَّ» وفي «الصحيح» عنه ﷺ: «مَن صَلّى الصبح فهو في ذمّة الله فلا يطلبنكم الله بشيء من ذمّته»[٤]، وفي رواية: «فلا تحقروا الله في ذمّته»[٥].

---

(١) (٥: ٢٣٨٤).

(٢) في تاريخ بغداد(١: ١٥٦٦).

(٣) في تاريخ الإسلام(١: ١٥٦٦).

(٤) في صحيح مسلم(١: ٤٥٤)، وسنن الترمذي(١: ٤٣٤)، وغيرها.

(٥) في سنن الترمذي(١: ٤٣٤)، وسنن ابن ماجة(٢: ١٣٠١)، ومسند أحمد(٢: ١١١)، وغيرها.

وقال الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر ﵁: اعلم يا أخي وَفَّقني الله ﷻ وإيّاك لمرضاته، وجعلنا ممَّن يخشاه، ويتقيه حقّ تقاته: إن لحومَ العلماء مسمومة، وعادة الله ﷻ في هتك أستار منتقصهم معلومة، وإن مَن أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله ﷿ قبل موته بموت القلب، {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: ٦٣] »(١).

وقال العلامة ابن الحاج المالكي ﵁(٢): «قال بعض السلف: لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله ﷿ فيمن آذاهم أبداً معلومة. وكيف لا وهو سبحانه الناصر لهم والمقاتل عنهم قال الله ﷻ في كتابه العزيز: {وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ} الحج: ٤٠، وقال ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧]: أي إن تنصروا دينه، وقال ﷿: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]، فضمن سبحانه وتعالى نصرة من نصر دينه. وقد ورد عنه ﵇ أنّه قال: «ليس المؤمن بالطعّان، ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذيء»(٣)، أو كما قال ﵇. ولا شك أن هذا الذي ذكره من بذاءة اللسان، وهي ممنوعةٌ في حقِّ آحاد عامّة الناس، فكيف بها في حقِّ العلماء العاملين ورثة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم».

---

(١) وينظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر(١: ١٨٧)، ومواهب الجليل(١: ٤)، وغيرها.

(٢) في المدخل(٤: ٣٥١-٣٥٢).

(٣) في صحيح ابن حبان(١: ٤٢١)، وسنن الترمذي(٤: ٣٥٠)، والمستدرك(١: ٥٨)، وغيرها.

وقال شيخنا العلامة وهبي سليمان غاوجي رضي الله عنه(١): «كانت سنّةُ السلف الصّالح عدم التعرّض للعلماء المشهود لهم بالخير والبر والتقوى بظنون وأوهام وجهالات، فإن لحومَ العلماء مسمومة، ويخشى على صاحبها كما قيل من سوء الخاتمة، ولعمر الله جل جلاله إن الإمام أبا حنيفة وأئمة المذاهب المعتبرة من السلف الصالح، الذين اختار الله عز وجل بقاء ذكرهم الجميل، وأن يجعلَ مذاهبهم مذاهب الأمّة في التقرب إليه سبحانه بالعبادات وسائر الطاعات...

وإن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه قد تجاوز القنطرة، وهو من كبار الأئمة المشهود لهم بالعدالة والضبط، فلا يضرّه قول القائلين فيه، ولا تؤثِّر عليه شبهات المشتبهين، لقد أجمع السلف من التابعين ومَن بعدهم من قادة المتكلّمين في الرجال وكبار النقاد فيه، وأمراء المؤمنين في الحديث، على الثناء عليه في الفقه والزهد وخوف الله عز وجل، والصدق والحفظ والنصح لهذه الأمّة.

فقد أثنى عليه شيوخ البُخاري وشيوخ شيوخه رضي الله عنهم، مثل: علي بن المديني، ويحيى بن معين، ويحيى بن سعيد القطان، ومكي بن إبراهيم، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجّاج، والفضل بن دكين، وسفيان الثوري، ومالك، والشّافعي، وأحمد بن حنبل، وجعفر الصادق، وعبد الله بن المبارك، وخلق كثير لا يحصون بسهولة».

فإذا علمت أنّ لحوم العلماء مسمومة فما هو تأويل ما وقع بين بعض

---

(١) في كتابه النافع الماتع أبي حنيفة النعمان بن ثابت(ص٢٠٣-٢٠٦).

العلماء من التّنافر والتّنابز؟ وهل يحقّ لطلبة العلم نقل كلام العلماء بعضهم في بعضهم؟ والإجابة على ذلك تتطلب منا الوقوف على قاعدة عظيمة وضعها أئمتنا في هذا الباب فلا ينبغي التغافل عنها لأولي الألباب كما في الومضة التالية:

الومضة العاشرة:

قاعدة ذهبية

جرح الأقران المتعاصرين لبعضهم بلا حجّة مردود

يلفت انتباه كثيرين ما يكون من الغمز واللمز بين أهل كلّ علم أو حرفة أو فنٍّ، فإذا ذكر أحدهم أمام الآخر همزه أو ألان الكلام فيه أو عرّض به على حسب ما بينهما من التنافس والتأدب وما شابه ذلك.

وهذا مندرج إجمالاً في سنة الله جَلَّ جَلالُه في خلقه من التدافع فيما بينهم ليعمر هذا الكون وتستمر الحياة البشرية عليه، وتزدهر العلوم، قال جَلَّ جَلالُه: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: ٢٥١]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} [الحج: ٤٠].

فهاتان الآيتان تقرران حقيقة يغفل عنها كثيرون من أن استمرار الحياة البشرية وتطورها وازدهارها منوط بالتدافع بين الأفراد والجماعات والدول.

فعلى المسلم أن لا يغفل في النّظر إلى ما وقع بين الأئمة من كلام عن هذه القاعدة، فيحمل كلامهم على حسن الظنّ بهم جميعاً، وأن ذلك طريق حفظ العلم ووصوله إلينا لا غير، فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: «خذوا العلم حيث

وجدتم ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغايرون تغاير التُّيوس في الزريبة»[١].

وعن مالك بن دينار ﷺ: «يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض، فإنهم أشد تحاسداً من التيوس تصب لهم الشاة الضّارب، فينبّ هذا من هاهنا وهذا من هاهنا»[٢].

وبعد كثرة النّظر والتثبت والسّبر لسير الأئمة حقَّق العلماء هذه القاعدة، وأكدوها وأقاموا عليها البراهين العملية مما حدث بين الأعلام من الكلام والتنابز، وسطروها في أسفارهم التاريخية والحديثية، وتناقلوها واحداً بعد الواحد لما فيها من الفائدة العظيمة لِمَن راعاها، ولم يغتر بما وقع من القدح بين الأقران.

فهاهو مؤرخ الإسلام الشمس الذهبي ﷺ يقررها في مواضع كثيرة من كتبه منها: ما في «سير أعلام النبلاء»[٣]: «كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلا من عصم الله ﷻ، وما علمت أن عصراً من الأعصار سَلِمَ أهله من ذلك سوى الأنبياء». وقال أيضاً فيه[٤]: «كلام الأقران يطوى ولا يروى، فإن ذُكِر

(١) ينظر: جامع بيان العلم وفضله(٢: ١٥١).

(٢) ينظر: جامع بيان العلم(٢: ١٥١).

(٣) (١: ٥٩).

(٤) (٥: ٢٧٦).

تأمَّلَه المحدِّث، فإن وَجَدَ له متابعاً، وإلا أعرض عنه».

وقال أيضاً[١]: «وقد علم أن كثيراً من كلام الأقران بعضهم في بعض مهدرٌ لا عبرة به ولا سيما إذا وثق الرجل جماعة يلوح على قولهم الإنصاف». وقال أيضاً[٢]: «كلام الأقران إذا تبرهن لنا أنه بهوى وعصبية، لا يلتفت إليه، بل يطوى ولا يروى، كما تقرَّر عن الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين»، وقال أيضاً[٣]: «وبكل حال كلام الأقران بعضهم في بعض يحتمل، وطيه أولى من بثه إلا أن يتفق المتعاصرون على جرح شيخ، فيعتمد قولهم».

فانظر كيف اهتمّ الذهبي رضي الله عنه بهذه القاعدة وأخذ يُردِّدُها ويؤكدها كلما لاحت لها مناسبةٌ، وقد تابعه على ذلك الحافظ ابن حجر رضي الله عنه فقال[٤]: «إن كلام الأقران غير معتبر في حق بعضهم بعضاً إذا كان غير مفسّر لا يقدح».

وما حَقَّقه الذّهبيُّ من هذه القاعدة الذهبية وتابعه عليه ابن حجر رضي الله عنه فقد اعتبره جلال الدّين السّيوطي من المسلّمات العلمية فقال[١]: «وقد تقرّر في علم الحديث أنَّ كلامَ الأقرانِ في بعضهم لا يقدح».

---

(١) (٧: ٤٠).

(٢) (١٠: ٩٢).

(٣) في السير(١١: ٤٣٢).

(٤) في تهذيب التهذيب(٨: ٧١).

ووضح الإمام اللكنوي رضي الله عنه أنّ هذه القاعدة خاصة بالمتعاصرين من الأقران وأنه لا يُقبلُ كلام بعضهم في بعض من غير دليل، فقال[٢]: «قد صرّحوا بأن كلمات المعاصر في حقّ المعاصر غير مقبولة، وهو كما أشرنا إليه مقيّدٌ بما إذا كانت بغير برهان وحجّة، وكانت مَبنيَّةً على التعصّبِ والمنافرة، فإن لم يكن هذا ولا هذا فهي مقبولةٌ بلا شبهة، فاحفظه فإنه ينفعك في الأُولى والآخرة»، وقال أَيضاً[٣]: «كلام الأقران بعضُهم في بعض غيرُ مقبول عند الماهرين لا سيما إذا ظهرَ أنّه لتعصُّب ومنافرة، ولم يخلَ عن وجود الأقوال المعدّلة».

وبسبب ما تقرَّر من هذه القاعدة نرى أن علماءنا ينصحون عند قراءة كتب التاريخ والجرح والتعديل عدم الاغترار بما وقع بين المتعاصرين الأقران من الردود والكلام، وفي ذلك يقول التاجُ السُّبكيُّ رضي الله عنه: «ينبغي لك أيُّها المسترشد أن تسلُكَ سبيل الأدب مع الأئمة الماضين، وأن لا تنظرَ إلى كلامِ بعضهم في بعض، إلاَّ إذا أتي ببرهان واضح، ثمّ إن قدرت على التأويل وحسن الظنّ، فدونك، وإلاَّ فاضربْ صفحاً عَمَّا جرى بينهم.

وإيّاك، ثمّ إيّاك أن تصغي إلى ما اتفق بين أبي حنيفة وسفيان الثوري، أو بين مالك وابن أبي ذئب، أو بين النسائي وأحمد بن صالح، أو بين أحمد

---

(١) في المزهر (ص٣٠).

(٢) في الرفع والتكميل (ص٤٣١).

(٣) في غيث الغمام (١٤٥-١٤٦).

والحارث بن أسد المحاسبي، وهلمّ جرّاً، إلى زمان العز بن عبد السلام والتقيّ بن الصّلاح، فإنّك إذا اشتغلت بذلك وقعت على الهلاك، فالقوم أئمة أعلام، ولأقوالهم محامل، وربَّما لم نفهم بعضها فليس لنا إلاَّ الترضي والسّكوت عمَّا جرى بينهم، كما نفعل فيما جرى بين الصّحابة ﷺ»[1].

فعليك أيها القارئ الكريم العظة والعبرة من سيرة هذه الأمة وتجربة علمائها بعدم الاهتمام بما يقع بين المتعاصرين الأقران من الكلام كالمدرسين والمهنيين وغيرهم.

وطالما وصل بنا الكلام إلى هذا المقام من معرفة ما يجب أن يكون عليه طالب العلم من الهمّة والهمّ والتوقّد والأدب والاستغلال لأوقاتهم والطرق الجميلة في طلبهم للعلم والتوقير الكبير لمدرسيهم وأساتذتهم والتبجيل العظيم لعلمائهم وأئمتهم، فيحسن أن تكون لنا وقفة مع الدراسة العصرية في مدراسنا وجامعاتنا الأكاديمية، والنقلة النوعيّة التي حصلت فيها من ترك ما سبق ذكره والإشارة إليه، وعدم الاستفادة من تجربة أمّتنا الحضارية في التربية والتعليم ، فنبيّن الثغرة والمشكلة الحاصلة في هذه الدراسة وكيفية معالجتها، وهو محلّ الكلام في الومضة الآتية:

---

(١) ينظر: مقدمة التعليق(١: ١٢٣)، ومثله قال الحافظ السخاوي في الإعلام بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ(ص٦٥).

الومضة الحادية عشر:

التّجربة الحضارية... والرّقي بالمدارس

ظهرت في العصر الحديث الدراسة الأكاديمية من خلال المدارس التي شاعت وانتشرت في المدن والقرىٰ، ولسنا بحاجة إلىٰ وصفها فكلّ هذه الأجيال درست فيها وتعرفها حقَّ المعرفة، وقد كان لهذه المدارس أثرها الكبير في تثقيف المجتمع والنّهوض بمستواه التعليمي لا سيما في علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء والجغرافيا وغيرها.

إلا أنه يلاحظ في ضوء هذه الإباحية والمجون عبر الفضائيات المختلفة والانترنت والمجلات وغيرها تضاءل دور المدرسة في التأثير في مقابل هذه الوسائل المقنعة والمضيعة للأوقات ممّا جعل الطلبة في المدارس يتبادلون هذه المعارف السلبية عند التقائهم ويتأثرون ببعضهم البعض أكثر من تأثرهم بالمدرس والكتب المنهجية التي يدرسونها، وهذه المشكلة تعاني منها دول العالم في الشرق والغرب، فالمستوىٰ التعليمي والتربوي تراجع بصورة ملحوظة عند التربويين، والكلّ يبذل قصارىٰ جهده وما بوسعه لحلها.

والمخرج منها من خلال تجربتنا الحضارية ومدارسنا القديمة، تتمثل في نقطتين:

الأولىٰ: زيادة التأهيل الديني عند المدرسين في كافّة التخصّصات؛ ليكونوا مؤهلين علىٰ توجيه هذا الجيل وتوعيته بالمشكلات العصرية وزيادة

الإيمان في قلبه بكلّ ما يدرس من العلوم والمعارف؛ لأن أساس هذه المشكلة هو الفراغ النفسي الذي يعاني منه المجتمع، والذي لا يملأه إلا الإيمان بالله ﷻ، والتّمسّك بأوامره والابتعاد عن نواهيه.

وفاقد الشيء لا يعطيه، فلا بُدَّ أن يكون المدرسون على إيمان عميق والتزام تام بالشريعة ليكونوا القدوة الحسنة والطيبة لطلابهم.

ولا يتمُّ ذلك إلا من خلال زيادة التوعية الدينية لهم بعقد الدورات الشّرعية المستمرة، وزيادة المواد الدينية أثناء دراستهم في الجامعة، وهذا الأمرُ إن تمَّ يذكرنا بعلمائنا السابقين المشهورين في العلوم المختلفة من الطب والهندسة والتاريخ والجغرافيا والفلك والرياضيات والاجتماع وغيرها؛ إذ ضبطهم لهذه العلوم واشتهارهم بها لم يكن على حساب بعدهم عن دينهم ومعرفتهم بأحكامه، بل كان له التأثير الكبير في قربهم من الله ﷻ، وحسن دعوتهم له؛ لأنّه لا انفصام بين العلوم الشرعيّة والعلوم الأُخرى، فالدينُ هو الرّوح التي تجري في العلوم المختلفة وأهلها.

فمتى رأى الطلبة في أساتذتهم الأسوة الحسنة في آخرتهم ودنياهم، ازداد احترامهم وتوقيرهم لهم، وكان أحرى في قَبول علومهم، وارتفعت همَّتهم في طلب العلم، وتخلَّصوا من الفراغ النفسي الذي يعانون منه، وكانوا على قدر المسؤولية في القيام بواجباتهم، وحمل رسالة دينهم إلى غيرهم، والارتقاء بمجتمعهم إلى مصافّ المجتمعات المتقدِّمة؛ لأنّ طاقاتهم ستسخَّر في رفع مستواهم العلمي والديني، مما يجعلهم مؤهلين في قيادة مجتمعاتهم إلى برّ الأمان؛ لأن من أكبر المشكلات التي تواجهها الدول النّامية عدم المبالاة

المفرطة بين أبنائها، وتضييع أوقاتها في غير محلها، فإذا استطاع أبناء هذه المجتمعات أن يتحمّلوا مسؤلياتهم، ويستغلوا أوقاتهم، فإنهم سينهضون بأمتهم.

الثّانية: عدمُ إغفال تجربة أمّتنا الإسلامية في تعليم أبنائها وتربيتهم، فمن خلال هذه القرون العديدة التي كانت فيها دولة الإسلام هي الأقوى والأعظم والأكبر في العالم، ولم تكن كذلك إلا لصحّة المنهجية التي ساروا عليها في تعليمهم وتربيتهم، وإلا لما صلحت أجيالهم على هذه القيادة للعالم، فمثلاً الدولة العثمانية استمرت سبعة قرون، وهي الدولة الأولى في العالم، وقد كانت الدول الأوروبية من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا تتسابق في تقديم الولاء للباب العالي فيها.

فنحن أمة لها حضارتها التي تباهي بها الأمم بسبب دينها الذي اهتدت به والتزمته، فاللهث وراء الحضارة الغربية الملحدة، والمحطمة لجميع القيم البشرية، والمشيعة للفحشاء والفجور، والمدمرة للبشرية، مضيعة للأمة وتيه ما بعده تيه، فهذه الحضارة أذاقت مجتمعاتها من الويلات الاجتماعية ما لا يخفى على كل عاقل ناظر ومتأمّل فيها، حتى ارتفعت نسب الانتحار في بعض دول أوروبا لتصل إلى ما يقارب (١٠٪)، وما هذه إلا لفشل هذه الحضارة في إسعاد أبنائها، إضافة إلى الغطرسة والظلم الذي ساد في العالم بسببها.

ومع ذلك فإننا لا ننكر ما كان لهذه المدنية من تطور في الصناعات المختلفة والتكنولوجيا العصرية، لكننا نريد الإفادة من خيرها والابتعاد عن

شرّها، فما كان منها لخدمة البشرية ولم يخالف أحكام شريعتنا قبلناه، وما خالفها تركناه غير آسفين.

فعلينا أن نقبل منهم العلوم العلمية المحضة دون الإلحاد والفجور والإباحية التي يمارسونها، ونضيفها إلى علومنا السابقة التي ورثناها عن سلفنا وخلفنا، فنُوَفِّق بذلك بين هاتين الحضارتين بما يكون فيه رقينا وارتقاؤنا.

ويتحصّل ذلك من خلالِ التزام طريقةِ علمائنا في تدريسِهم في المدارس القديمة؛ لأنها خلاصةُ تجربة الأمة في إعداد أَبنائها الإعداد الصحيح مع إضافة العلوم العصرية التي فاق بها أَهل هذا الزمان مَن سبقهم، واستخدام جميع التقنيات العصرية في سبيل ذلك، فالجمع بين الطريقتين العصرية والقديمة هو السبيل للنهوض بهذه الأجيال، وكلّ منّا اطلع على الطريقة العصرية في التعليم فلنعرض أيضاً لنموذج من الطريقة القديمة في المدارس؛ لتكتمل الصورة.

فقد كان المنهج يجري ضمن اثنتي عشرة سنة، وهي مراحل خمس يمرّ فيها الطالب على سلم العلوم الشرعية، وهي:

١. **الكتابي**: يقرأ فيها الطالب حروف الهجاء ويتعلّم فيها قراءة القرآن الكريم، كما يتعلّم فيها الكتابة والخط.

٢. **المبتدئ**: يقرأ فيها الطالب مقدمات صغيرة جداً ليتوجّه ذهنه إلى معرفة أن هذا نحو، وهذا صرف، وهذا فقه، وهذا كذا.

٣. **المتعلّق**: يقرأ فيها الطالب بعض العلوم والمقدمات حتى يصل إلى الملا جامي في النحو مثلاً، أو «البهجة المرضية» للسيوطي، وبعض العلوم الصرفية والمنطقية، ويأخذ بعض المقدمات الوصفية والبلاغية.

٤. **المستعدّ**: وهو مَن يقرأ «شرح الجامي» أو «شرح التلخيص» المسمى بـ«المختصر»، ويهتم بعلم الأصلين: أصول الفقه وأصول الدين.

٥. **وينتهي** بقراءة المواد الكبرى مثل «جمع الجوامع» و«المطول» و«البرهان» وغير ذلك، وينال صفة العالمية، ويحصل فيها على الإجازة العلمية، ويشبّ عن طوق التلمذة إلى الأستاذية(١).

وتفصيل المواد التي يأخذها في كلّ علم على هذا المنهاج كالآتي:

علم النّحو: اعتيد «آجرومية» أولاً، ثم إحدى شروح «الآجرومية»، مثل: «زيني دحلان»، أو «شرح خالد الأزهري»، أو «شرح مكودي على آجرومية»، ثم «شرح الكفراوي على آجرومية» مثلاً مع حفظ متن الآجرومية، ثم «البهجة المرضية شرح الألفية»، أو «شرح ابن عقيل» مع حفظ «الألفية» لابن مالك، ثم «الأشموني على الألفية»، ثم «مغني اللبيب» لابن هشام.

علم الفقه: يبدأ بـ«نور الإيضاح»، ثم «مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح» مع حفظ المتن، ثم «الاختيار لتعليل المختار»، ثم «الهداية» مع

---

(١) ينظر: الإمداد شرح منظومة الإسناد(٨: ٣٤).

دراسة «شرح السّراجية»، ثم بعض شروح «الهداية»، ثم متابعة شروح «صدر الشريعة».

علم الصرف: «الأمثلة» مع توضيح لذلك خلال الدرس، ثم «المقصود»، ثم «شرح عزي» للتفتازاني، ثم «الأساس في البناء»، ثم «شرح مراح» مع مراجعات في «شرح الشافية».

علم الحديث: «الأربعين النووية» حفظاً وشرحاً، ثم «معالم السنن شرح سنن أبي داود» للخطابي.

علم التفسير: «تفسير النَّسَفي»، ثم «تفسير البيضاوي».

علم أصول الفقه: «المنار» للنسفي، ثم شروح «المنار» لابن نُجيم أو للحصكفي مع «حاشية نسمات الأسحار»، ثم «المرقاة شرح المرآة» مع حواشي وتعليقات، ثم «كشف الأسرار شرح المنار»، ثم «شرح التوضيح» مع متابعة الحواشي عليه.

علم العقيدة: متن «الشيبانية» وشرحها، ثم «شرح الخريدة» للدردير مع «حاشية الصاوي»، ثم « تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد» للباجوري، وعلى مذهب الماتريدية: «شرح العقيدة النَّسَفية» للتفتازاني، ثم «شرح الخيالي على النَّسَفية»، وقسم منهم يقرأ مسألة الصفات فقط بعد كتاب «المسامرة شرح المسايرة» عوضاً عن «تحفة المريد»، ثم بعد ذلك «شرح المواقف» للإيجي، أو «شرح المطالع»، وقد يقرأ «شرح كلنبوي» في العقيدة مع «حواشي الخلخالي» وغيرهم.

علم الفلسفة والمنطق: «ايساغوجي» للأبهري، ثم «مغني الطلاب»، أو «حسام كاتي على ايساغوجي»، ثم «شرح فناري» مع حواشٍ عليه منها «قول أحمد»، ثم «شرح الشمسية» مع مراعاة التعليقات والحواشي، ثم «كلنبوي» مع «شرح قرداغي» وحواشيه.

علم البلاغة: «الاستعارة» لملا أبي بكر مع حواش، ثم «شرح التلخيص» للتفتازاني، ثم «المطول شرح التلخيص» للتفتازاني.

علم الوضع: «شرح السمرقندية على الرسالة الوضعية قوشجي» مع متابعة الحواشي عليها، ثم «شرح الوضعية» لمولانا عصام وأبي علي وحواشي الشرانشي وإبراهيم الحيدري.

علم المناظرة: «آداب المناظرة» المسماة بالحنفية مع شرحها، ثم «حواشي آداب المناظرة الحنفية» للفاضل مير أبو الفتح مع حواشيه المشهورة، ثم «آداب المسعودي»، ثم «حاشية الوغ بيك وعبد اللطيف»، و«المناظرة» لإسماعيل الكلنبوي مع حاشية بنجويني وقره داغي ومتابعة تعليقات الحيدريين.

علم الحكمة والفلسفة: «شرح هداية الحكمة» المسماة بمير حسين.

كما أن بعض العلوم الأخرى مثل علم الطب وعلم الهيأة أو الفلك أو ما يسمى الآن بالجغرافية الطّبيعية وغيرها من العلوم كانت تدرس أيضاً مع

تدريس بعض كتب اللغة أمثال «المصباح المنير»[١].

وبناءً على ذلك فإن الأمر يتطلّب منا إعادة النظر للانتقال من التدريس الثقافي والسّطحي للعلوم الشّرعية وما يتعلّق بها في مرحلة المدرسة إلى التعليم العميق المثمر فيها، فلا بُدّ أن يجدّ الطالب ويجتهد ويتعب في ضبطها وإدراكها كما يحصل له ذلك في الرياضيات والفيزياء وغيرها من العلوم، فالعلمُ الديني حقيقة من أصعب العلوم على الإطلاق وأَدقّها وأَوسعها، حتى خَصَّ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ الرسلَ بتعليمه للناس؛ لأهميته وصعوبته وحاجته للمتخصصين المؤهلين، بخلاف غيره من العلوم، فقد تناقلها البشر بتجاربهم الحياتية فيما بينهم.

فينبغي أن يكون لنا في هذا عظة بالاعتناء بهذا العلم والاهتمام به، وبمَن يدرسونه، وإعطائهم الوقت الكافي لشرحه وبيانه، وترسيخه في النفوس بجميع الوسائل والتقنيات العصرية حاله في ذلك كالعلوم الأُخرى إن لم يكن أكبر وأكثر؛ لأنّ تمكن الدين في القلوب، وفهمَه الفهم الصحيح السّليم يُخرج الأمة من كثير من نكباتها بسبب خروج جماعات وفئات منتسبة للدّين بفهم سقيم تفهمه له، مما يخرجها عن طريق النجاة والصواب، وتوقع مجتمعاتها في الويلات والدمار؛ لإباحتها وتحليلها لدماء المسلمين وأَموالهم وأَعراضهم.

---

(١) ينظر: الإمداد(٦: ٥٣-٥٦).

هذه المعاناة الكبيرة التـي نعانيهـا في الدراسـة المدرسـية لا تَقِـلُّ عنهـا المعاناة أيضـاً في الدراسـة الجامعيّـة، بسـبب عـدم الاسـتفادة مـن التجربـة الحضارية لأمتنا الإسـلامية، والاعـتماد عليهـا في إعـداد المنهـاج والـبرامج الدراسية، وهذا ما سنتحدث عنه في الومضة التالية:

الومضة الثّانية عشر:

مشكلة الدّراسة الجامعية وسبيل معالجتها

ليس كلامنا عن دور الجامعات ككلّ في رفد المجتمعات بالمتعلمين القادرين على حمل الأمانة في كافّة المجالات الحرفية والتقنية والمعلوماتية والمهنية؛ لأنّ هذا ظاهر للعيان.

وإنما حديثنا عن كليات الشريعة التي انتشرت في البلاد العربية والإسلامية والغربية أيضاً، فكثيرٌ من الجامعات الغربية فيها أقسام لدراسة العلوم الشّرعية الإسلامية، وتخرج حملة درجة الدكتوراه في العلوم الإسلامية.

وإنّ القائمين على هذه الكليات استطاعوا أن يواكبوا التطوّر الحضاري في العلوم المختلفة من خلال الدراسة الأولية والعليا، فنظموا المواد الشرعية في تخصّصات مختلفة، وبرامج دراسية متعددة، في مراحل متدرجة يرتقي فيها الطّلبة ليحصلوا على أعلى الشهادات الجامعية، وهي الدكتوراه في العلوم الشّرعية.

فتطبيق هذا النظام العصري على العلوم الشرعية لا شكَّ أنه استغرق جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً، وسار عليه مجموعة من الفضلاء كيلا تضيع العلوم الشرعية في خضم هذه الحضارة العصرية؛ إلا أننا بعد هذا التطبيق الطويل في

عدّة عقود لهذه المنهجية الأكاديمية على العلوم الشرعية ظهرت لنا مشكلات وعيوب لها لا بُدَّ من معالجتها؛ لإتمام المسير وتحقيق المراد والمقصود، ومنها:

أولاً: انتقال المواد من العلمية إلى الثقافية؛ فبعد أن كان الطالب في العصور السّابقة يدرس الفقه فيصير فقيهاً، والحديث فيصير محدثاً، والعقيدة فيصير متكلّماً، وهكذا، فإنه بدراسته الجامعية في أحد هذه التخصصات يبقى يحوم حول الثقافة الفقهية أو الحديثية أو الكلامية، دون أن يضبطها ويتمكّن منها، ومرجع ذلك أسباب أَهمّها عدم تدريس الكتب الأصيلة في كلّ تخصّص، وإنّما الاعتماد فيها على كتب عصريّة أو ما شابهها ممّا لا يعطي المادّة حقّها من العمق والعرض الصّحيح.

فمثلاً في المقررات الفقهيّة صار التدريس معتمداً إلى حدٍّ كبيرٍ على المقارنة بين المذاهب الفقهية والترجيح بينها، فالطالبُ بهذه الطريقة لا يدرس في المادة إلا أمهات المسائل الفقهية مع الخلاف فيها وأدلتها الإجمالية، فلا يتمكّن من ضبطها؛ لأن الفقه هو الفروع التفصيلية، وهو لا يدرسها أيضاً، وإنّما الذي درسه مسائل كلية عامّة، لا تكوِّن عنده الملكة الفقهية الكاملة في إدراك الجزئيات؛ لعدم معرفته بالفروع، ويهون الفقه عليه لما احتواه من خلاف، وعدم إدراكه لدقّة فهم المجتهدين بجعلهم الفروع المتشابهة في سلك واحد، ويتجرّأ على الفتوى في الدين لجهله بحقيقة العلم ووعورته، فيقع عليه النهي الوارد: «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على

النّار»(١)، ويهون الطالبُ على نفسه، فيهون على النّاس؛ لضعفه العلمي الظّاهر، وعدم تميّز نفسه عن الآخرين بالعلم الرافع لها: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩].

ويضعف الورع والتّقوىٰ في قلبه؛ لأنّ في دراسته إعانة لشيطان نفسه عليه، ففي كلِّ مسألةٍ لديه أقوال للفقهاء تميل نفسه مع أيسرها وأَخفّها عليه إن لم تتركها مطلقاً، وتقول: في المسألة خلاف وسعة، وفي ذلك رخصة لي بعدم التزامها وتطبيقها في حياتي.

وكذلك لا ينزل أئمتنا المجتهدين منزلتهم من الاحترام والتقدير والتوقير، فيعد حاله مثلهم، ويُرجِّحُ بلا مُرجِّح لضعفه الظاهر في الحديث بعدم قدرته علىٰ تخريج حديث، وقلّة بصيرته بعلم الأصول وقواعده لكلّ مذهب، وإنما يميل مع ظاهر العبارات والنصوص وإن كانت ضعيفة أو ما شابه ذلك.

في حين نجد الطالب الدارس علىٰ طريقة سلفنا وخلفنا في ظاهره وجوهره واحد، فهو ذو استقامة معروفة، وعلم غزير، وملكة فقهية دقيقة، وأدب جمّ مع علمائنا، وغير جريء علىٰ دين الله، وغير متأرجح بين المذاهب لا إلىٰ هؤلاء ولا إلىٰ هؤلاء، وإنما هو صاحب شخصية علمية مستقلّة يفتخر بها، وتعزّ عليه نفسه لما احتوىٰ من علوم وفنون، فلا يحقِّرها ويذلّها.

وإنّما يتواضع مع النّاس؛ لكمال نفسه العلمية وخلوه من الفراغ

---

(١) رواه ابن عدي عن عبد بن جعفر مرسلاً. كما في كشف الخفاء(١: ٥١).

الرّوحي، وما ذاك إلا لدراسته العلم على أصوله الصحيحة التي سار عليها السّابقون واللاحقون، من كتبه القديمة الموثوقة على مذهب فقهيّ معتبر في الإسلام، له قواعده وأسسه التي تمكّن دارسه من ضبط الفقه وإدراك جزئياته الدقيقة التي يحتاج المرء إليها في حياته ويسأله عنها الناس، فيجلّ هذا العلم بعين متعلّمه؛ لإفادته منه وإفادة غيره، وإطلاعه على دقّة مدرك فقهائه، وعدم إتاحة الفرصة لنفسه للتشهي والتلاعب وغيرها من الأسباب التي يطول ذكرها.

وعلى ذلك ينبغي لنا الثقة التامة بعلمائنا، والافتخار بحضارتنا العريقة، والإفادة من علمهم ومنهجيتهم في الدراسة والتدريس، وتطبيقها بقدر الوسع على هذه الأجيال الناشئة، حتى يعود للأمّة مجدها، وتخرج ممّا هي فيه، فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولا طريق لنا إلى التغيير إلا بسلوك سبيل نبينا ﷺ وصحابته ﵃، ومَن تبعهم من أئمة الهدى الذي ساروا على نهجه، فسدد الله ﷻ خطاهم وشرح قلوب الأمّة لهم، فتلقتهم بالقبول التام، حتى كان لهم ما كان من المجد والعزة، فالتنكب عن سبيلهم هو الضّياع: {لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد} [ق: ٣٧].

ثانياً: ضعف العمل بالعلم، فمن الملاحظ عدم التزام بعض الدارسين للعلوم الشّرعية بأحكامها، والانفصام بين سلوكهم وتخصّصهم، ومعلوم أن ديننا دين علم وعمل، ولا نتعلّم إلا لنعمل ونُعَلِّم، لا مجرد المجادلة والمناقشة والرّياء والجاه وغيرها، قال ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُون} [الصف: ٢].

فمغريات الحياة العصرية غـرَّرت بهـم، واسـتهوت قلـوبهم، ومـلأت نفوسَهم، وإقبالهم عـلىٰ دراسـة تخصـص لا يرغبونـه لقلّـة فرصـه بالعمـل وكسب المال، وإنما حملهم عليه ضعف تحصيلهم الثانوي.

ودفعهم للرّسوم الجامعيـة وأثـمان مـا يدرسـون مـن المـواد قلَّـل مـن إخلاصهم للعلم واحترامهم لأهله، ومشاهدتهم لسلوك بعض المدرسين بما لا يتوافـق مـع نظـرتهم لأسـاتذة الشريعة، وعـدم اعتنـاء الدراسـة بـالمواد الروحانية المربية والمهذِّبة للنفس من علم التصـوف والتربيـة وغيرهـا يـترك فراغاً كبيراً كذلك؛ لهذه الأسباب وغيرهـا لم نعـد نـرىٰ في طالـب الشريعة الصّورة المثالية له التي يريدها المجتمع منه.

في حين أن دراسة الطّلبة علىٰ أيدي المشايخ الفضـلاء يكسـبهم الأدب والالتزام قبل العلم، فلا يتعلمون شيئاً حتىٰ يعملوا به، ويـرون في شـيخهم الشّخصية المثالية في العلم والعمل؛ لما يجدون فيه من الإخلاص والتفـاني في تدريسهم، وسلوكه المستقيم في المعاملة، وبـرّه وإحسـانه لهـم، وعـدم تلقيـه الأجر منهم جزاء تدريسه، وصدق نصحهم وإرشـادهم، فيكونـون نبراسـاً حيّاً لعلمهم، وأُنموذجاً خيراً لدينهم ودنياهم.

ومن السُبُل لنا في معالجةِ ما سَبَق:

١. العنايةُ بتدريس العلـوم الشرعية عـلىٰ حقيقتهـا الصـحيحة مـن خـلال مذهب فقهي أو عقدي أو سلوكي مـن بدايـة دراسـة الطّالـب الجامعيـة

حتىٰ انتهائه، كي يتمكن من ضبط الفقه بدقائقه وأسسه المتينة، ويعمل بما علم وينقله لغيره، دون فوضى واضطراب.

٢. اعتماد الكتب الأصيلة القديمة في الفقه والعقيدة وغيرها في التدريس، أو ما أُلِّف علىٰ منوالها من الكتب العصرية المتينة، فيحفظ الطالب المتون الشّرعية ويطالع الشّروح، ويعود في كلّ علم إلىٰ كتبه الأساسية، فيتمكّن من حَلِّ عباراته وفهم إشاراته وبيان مراد مصنِّفيه، والمعتمد في الفتوىٰ من غيره.

٣. تكثيف دورات التقوية المتخصِّصة في مختلف التخصُّصات الشرعية لا سيما في العلوم الفقهيّة والعقديّة والسلوكيّة؛ لإتمام ما بناه في الدراسة الجامعية أو تأسيسه الأساس القوي في هذه العلوم، فيقرأ المتن فيها تلو المتن حتىٰ يرتقي إلىٰ أرفع المستويات.

فلا غنىٰ لنا عن الدّراسة الجامعية، ولا بُدّ للطالب من الاجتهاد والجدّ بالدراسة الخاصّة في الدّورات الشّرعية السائرة علىٰ نهج علمائنا السابقين في التّدريس، وبعبارة أُخرىٰ علىٰ الطّالب أن يوفِّقَ بين الطريقة العصرية والقديمة حتىٰ يكتمل بدره؛ لأنّ الطّريقة القديمة في التّدريس كانت ناجحة جداً في إخراج علماء أفذاذ في جميع الميادين، فاخرت بهم الأمّة غيرها، وانتشر نورهم في البلاد شرقاً وغرباً.

وأذكر هاهنا مثالاً لمنهاج واحد من المناهج القديمة والتي ما زالت تطبق وتدرس إلىٰ يومنا هذا منذ أكثر من أربعمئة سنة في الهند وغيرها، وقد

تخرَّجَ بها ملايين العلماء الكبار المشهود لهم بالفضل والعلم، وهذا المنهاج يسمّىٰ بالدرس النظامي يدرس في اثنتي عشرة سنة، وخلاصة ما يدرس فيه من العلوم والكتب ما يلي:

«في الصرف: «الميزان»، و«المنشعب»، و«ينح كنج»، و«زبدة»، و«صرف مير»، و«الفصول الأكبرية»، و«الشافية».

وفي النحو: «النحو مير»، و«شرح المئة»، و«هداية النحو»، و«الكافية»، و«شرح الكافية» للجامي إلىٰ مبحث الحال.

وفي البلاغة: «المختصر»، و«المطوَّل».

وفي المنطق: «الصغرىٰ»، و«الكبرىٰ»، و«الايساغوجي»، و«التهذيب»، و«شرح التهذيب»، و«قطبي»، و«مير قطبي»، و«سلم العلوم»، و«مير زاهد رسالة»، و«مير زاهد ملا جلال».

وفي الحكمة: «شرح هداية الحكمة» للميذي، وشرحها للصدر الشيرازي إلىٰ مبحث المكان، و«الشمس البازغة» للجونبوري.

وفي الرياضية: «خلاصة الحساب» باب التصحيح، والمقالة الأولىٰ من «تحرير الإقليدس»، و«تشريح الأفلاك»، و«القوشجية»، والباب الأول من «شرح الجغميني».

وفي الفقه: النصف الأول من «شرح الوقاية»، والنصف الثاني من «هداية الفقه».

وفي أصول الفقه: «نور الأنوار»، و«التلويح» إلى المقدمات الأربع، و«مسلم الثبوت» إلى المبادئ الكلامية.

وفي الكلام: «شرح العقائد» للتفتازاني إلى السمعيات، والجزء الأول من «شرح العقائد» للدوّاني، و«مير زاهد شرح المواقف» مبحث الأمور العامة.

وفي التفسير: «الجلالين»، و«البيضاوي» إلى آخر سورة البقرة.

وفي الحديث: «مشكاة المصابيح» إلى كتاب الجمعة.

وفي المناظرة: «الرشيدية»[1].

وفي عرضي لهذه المناهج العريقة وددت تفتيح ذهن الطّالب إلى الكتب المعتمدة في التّدريس والعلوم التي تدرس والتّدرج الذي يسير الطالب فيه في دراسة كل علم؛ للاقتداء بها واتباعها والاستفادة منها، والله الموفق.

وطالما وصل بنا الكلام إلى هاهنا في التدرج لما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم من الصفات والسلوكيات، وما يجب عليه من الطرق في تحصيل العلوم، مع التّنبيه على المعاناة في مدارسنا وجامعتنا؛ لئلا يغترّ بها مغترّ، ويظنّ أن هذا هو العلم، ولا سبيل آخر للحصول عليه.

فإني رأيت اختصار كلِّ ما سبق بعبارة موجزة نافعة في آداب طالب العلم، وهي أشبه بالمتن لما سبق، وذلك بتلخيص من الكتاب العظيم الذي

---

(١) ينظر: معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف(ص١٦).

عمَّ نفعه وذاع صيته المسمَّى بـ«تعليم المتعلم» للإمام الزرنوجي مع إضافة فوائد وشوارد تليق بالمقام، وقد ذكرت كثيراً من عباراته في الومضات السابقة؛ لدقّتها وعظيم نفعها، وكبر شأن كاتبها، فهي أشبه بالدرر، وشبيهة بالحكم، وحقّ لكلّ طالب أن يحفظَها ويدقِّقَ النظرَ فيها، ويتأدّب بها، ويجعلَها نبراساً لحياته، ونوراً لطريقه، وبها سيكون الختم في الومضة الآتية:

الومضة الثّالثة عشر:

اختصار آداب تعليم المتعلم للزرنوجي

- **فرض العين في العلم الشرعي:**

اعلم أنّه لا يفترض علىٰ كلِّ مسلم طلب كلّ علم، وإنّما يفترض عليه طلب علم الحال، بأن يطلبَ علم ما يقع له في حاله في أي حال كان، فيُفترض عليه تَعلُّمُ ما لا بُدّ له من أحكامِ الطهارةِ والصلاةِ مما يقع له، ويجب عليه بقدر ما يؤدي به الواجب؛ لأنّ ما يُتوصَّلُ به إلىٰ إقامة الفرض يكون فرضاً، وما يُتوصَّلُ به إلىٰ إقامةِ الواجبِ يكون واجباً، ومثل ذلك تَعلّمُ أَحكام الصيام والزّكاة إن كان له مال، والحجّ إن وجب عليه وكذلك البيوع إن كان يتَّجر. وكذلك يفرض عليه علم أحوال القلب، من التوكّل والإنابة والخشية والرضا، فإنه واقع في جميع الأحوال، قال ﷺ: «طلب العلم فريضة علىٰ كلّ مسلم ومسلمة»(١).

- **فرض الكفاية في العلم الشّرعي:**

إنّ حفظَ ما يقع في بعض الأحايين فرض علىٰ سبيل الكفاية إذا قام به البعض في البلدة سقط عن الباقين، فإن لم يكن في البلدة مَن يقوم به اشتركوا

---

(١) سبق تخريجه.

جميعاً في المأثم، فيجب على الإمام أن يأمرهم بذلك ويجبر أهل البلدة عليه كعلم الطب والفلك وغيرهما.

- **ثمرة الفقه:**

قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها، وقال: ما العلم إلا العمل به، والعمل به ترك العاجل للآجل.

- **شرف العلم:**

وشرف العلم لا يخفى على أحد إذ هو المختص بالإنسانية؛ لأن جميع الخصال سوى العلم يشترك فيها الإنسان وسائر الحيوانات كالشجاعة والجرأة والقوّة والجود والشّفقة وغيرها سوى العلم. وبه أظهر الله تعالى فضل آدم عليه السلام على الملائكة وأمرهم بالسجود له، وإنّما شرف العلم لكونه وسيلة إلى التّقوى التي يستحقّ بها المرء الكرامة عند الله تعالى والسعادة الأبدية.

تعلم فإن العلم زين لأهله ... وفضل وعنوان لكل المحامد
وكن مستفيداً كل يوم زيادة ... من العلم واسبح في بحور الفوائد
تفقه فإن الفقه أفضل قائد ... إلى البر والتّقوى وأعدل قاصد
هو العلم الهادي إلى سنن الهدى ... هو الحصن ينجي من جميع الشّدائد
فإنّ فقيهاً واحداً متورعاً ... أشد على الشّيطان من ألف عابد

النّية في حال التّعلم

- **أصالة النّية:**

ثم لا بُدّ لطالب العلم من النية في زمان تعلّم العلم؛ إذ النيّة هي الأصل في جميع الأحوال؛ لقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات»(١).

- **النّية للعلم:**

وينبغي أن ينوي المتعلّم بطلب العلم: رضاء الله تعالى، والدار الآخرة، وإزالة الجهل عن نفسه وعن سائر الجهال، وإحياء الدين، وإبقاء الإسلام، فإن بقاءَ الإسلام بالعلم، ولا يصحّ الزهد والتقوى مع الجهل، وينوي به الشكر على نعمة العقل وصحّة البدن.

- **محترز النّية:**

ولا ينوي به إقبال الناس عليه، ولا استجلاب حطام الدنيا والكرامة عند السّلطان وغيره.

قال محمد بن الحسن رضي الله عنه: «لو كان الناس كلهم عبيدي لأعتقتهم، وتبرأت عن ولائهم»؛ وذلك لأنّ مَن وجد لذّة العلم والعمل به قلّما يرغب فيما عند النّاس.

---

(١) في صحيح البخاري(١: ٣)، وغيره.

أنشدنا الشيخ الإمام الأجلّ قوام الدين حماد بن إبراهيم بن اسماعيل الصّفار الأنصاري إملاء لأبي حنيفة رضي الله عنه:

مَن طلب العلم للمعاد فاز بفضل من الرشاد
فيا لخسران طالبيه لنيل فضل من العباد

اللهم إلا إذا طلب الجاه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحقّ، وإعزاز الدين، لا لنفسه وهواه!! فيجوز ذلك بقدر ما يقيم به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- **التّفكر بالدنيا:**

وينبغي لطالب العلم أن يتفكر في ذلك، فإنّه يتعلّم العلم بجهد كبير فلا يصرفه إلى الدنيا الحقيرة القليلة الفانية.

هي الدّنيا أقل من القليل وعاشقها أذلّ من الذليل
تُصِم بسحرها قوماً وتعمى فهم متحيرون بلا دليل

- **رفعة العالِم:**

وينبغي لصاحبِ العلم ألا يذلَّ نفسَه بالطمع في غيرِ مطمع، ويتحرَّز عمّا فيه مذلّةُ العلم وأهله، ويكون متواضعاً، والتواضع بين التكبّر والمذلَّة والعفّة. أَنشد الشيخُ الإمامُ ركنُ الإسلام الفرغاني:

إنّ التَّواضع من خصال المتقى وبه التقيّ إلى المعالي يرتقي
ومن العجائب عجب مَن هو في حاله أهو السعيدُ أم الشقيُّ!
أم كيف يختم عمرَه أو روحَه يوم التَّوىٰ متسفِّلٌ أو مُرتقى

والكبريـــاء لربِّنـــا صـــفةٌ بـــه مخصوصـــةٌ فتجنَّبهـــا واتقـــى

قال الإمـام أبـو حنيفـة رضي الله عنه لأصـحابه: «عظمـوا عمائمكـم، ووسـعوا أكمامكم»، وإنّما قال ذلك لئلا يستخف بالعلم وأهله.

اختيار العلم والشّريك والثّبات

- **اختيارُ العلم:**

ينبغي لطالب العلم أن يختارَ من كلِّ علم أحسنه ممّا يحتاج إليه في أمر دينه في الحال، ثمّ ما يَحتاج إليه في المآل، ويقدّم علم التوحيد والمعرفة، ويعرف الله جَلَّلاله بالدّليل، فإنّ إيمان المقلِّد وإن كان صحيحاً عندنا، لكنه يكون آثماً بترك الاستدلال.

وطلب العلم من أعلى الأمورُ وأصعبها فكانت المشاورةُ فيه أهمُ وأوجب، وقيل: الناس على ثلاث مراتب:

١) رجل: مَن له رأي صائب ويشاور.

٢) نصف رجل: مَن له رأي صائب، ولكن لا يشاور، أو يشاور ولكن لا رأي له.

٣) لا شيء: مَن لا رأي له، ولا يشاور.

- **أساس النّجاح:**

اعلم أنّ الصّبر والثّبات أصلٌ كبير في جميع الأمور، ولكنه عزيز، كما قيل:

لكلّ إلى شأو العلا حركات ... ولكن عزيز في الرجال ثبات

فينبغي لطالب العلم أن يثبت ويصبر على ما يلي:

١) الأستاذ.

٢) الكتاب حتى لا يتركه أبتر ـ أي مقطوع البركة، والمراد عدم إتمامه ـ.

٣) الفنّ، حتى لا يشتغل بفنّ آخر قبل أن يتقن الفن الأول.

٤) البلد، حتى لا ينتقل إلى بلد من غير ضرورة، فإن ذلك كله يُفرِّق الأمور ويشغل القلب، ويضيع الأوقات، ويؤذي المعلم.

٥) عن ما تريده نفسه وهواه. قال الشاعر:

إن الهوى لهو الهوان بعينه   وصريع كلّ هوى صريع هواه

٦) على المحن والبليات، فقد قيل: خزائنُ المنن على قناطر المحن.

ألا لا تنال العلم إلا بستةٍ   سأنبيك عن مجموعِها ببيان

ذكاء، وحرص، واصطبار وبلغة   وإرشاد أستاذ، وطول زمان

- **اختيار الشّريك:**

فينبغي أن يختار المجدّ والورع وصاحب الطبع المستقيم، ويَفرُّ من الكسلان والمعطّل والمكثار والمفسد والفتّان، قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه   فكلّ قرين بالمقارن يقتدي

فإن كان ذا شرّ فجانبه سرعة   وإن كان ذا خير فقارنه تهتدي

تعظيم العلم وأهله

- **سرّ الانتفاع بالعلم:**

اعلم أن طالبَ العلم لا ينال العلم، ولا ينتفع به... إلا بتعظيم العلم وأهله، وتعظيم الأستاذ وتوقيره. فقد قيل: ما وصل مَن وصل إلا بالحرمة، وما سقط من سقط إلا بترك الحرمة ـ أي حرمة الخلق والأدب بتحري حرمة مَن يتعلّم منهم ـ.

رأيت أحقّ الحقّ حقّ المعلم ... وأوجبه حفظاً على كلّ مسلم
لقد حُقّ أن يهدىٰ إليه كرامة ... لتعليم حرفٍ واحد ألف

فإن مَن علمك حرفاً مما تحتاج إليه في الدين فهو أبوك في الدين.

- **توقير المعلم:**

١. أن لا يمشي أمامه.

٢. أن لا يجلس مكانه.

٣. أن لا يبتدئ بالكلام عنده إلا بإذنه.

٤. أن لا يكثر الكلام عنده إلا بإذنه.

٥. أن لا يسأل شيئاً عند ملالته، ويراعي الوقت.

٦. أن لا يدقّ الباب، بل يصبر حتىٰ يخرج.

وفي الجملة يطلب رضاه، ويجتنب سخطه، ويمتثل أَمره في غيرِ معصيةِ الله ﷻ، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وكان القاضي الإمام فخر الدِّين الأرسابندي ﷺ رئيس الأئمة في مَرْوَ ـ وكان السلطان يحترمه غاية الاحترام ـ يقول: إنّما وُجدت في هذا المنصب بخدمة الأستاذ، فإنّي كنت أخدم الأستاذ القاضي أبا زيد الدبوسيّ، وكنت أخدمه وأَطبخ طعامَه ثلاثين سنة، ولا آكل منه شيئاً.

وحُكي أن الخليفة هارون الرشيد ﷺ بعث ابنه إلى الأصمعي ﷺ ليعلمه العلم والأدب، فرآه يوماً يتوضّأ ويغسل رجله، وابن الخليفة يصبّ الماء على رجلِه، فعاتب الأَصمعي في ذلك بقوله: إنما بعثته إليك لتعلمه الأدب، فلماذا لم تأمره بأن يصبّ الماء بإحدى يديه، ويغسل بالأخرى رجلك؟!.

تعظيم الكتاب والشركاء والتفويض للأستاذ

- **تعظيم الكتاب:**

ينبغي لطالب العلم أن يأخذ الكتاب على طهارة، وحكي عن شمس الأئمة الحلواني رضي الله عنه أنه قال: إنما نلت هذا العلم بالتعظيم، فإني ما أخذت بالكاغذ ـ أي الورق ـ إلا بالطهارة.

ومن تعظيمِ الواجبِ ألا يمدَّ رجلَه إلى الكتاب، ويضع كتب التفسير فوق سائر الكتب تعظيماً، ولا يضع على الكتاب شيئاً آخر، قال فخر الإسلام قاضي خان رضي الله عنه: إن لم يرد بذلك الاستخفاف، فلا بأس، والأولى أن يتحرزَ عنه.

- **تعظيم الشّركاء:**

ومن تعظيم العلم تعظيم الشركاء في طلب العلم والدرس، ومن يتعلّم منه، والتملّق مذموم إلا في طلب العلم، فإنّه ينبغي أن يتملّق لأستاذه وشركائه ليستفيد منهم.

- **تعظيم العلم:**

وينبغي لطالب العلم أن يستمعَ العلم والحكمة بالتعظيم والحرمة، وإن سمع المسألة الواحدة، أو الكلمة الواحدة ألف مرة.

- **التّفويض للأستاذ:**

وينبغي لطالب العلم ألا يختار نوع علم بنفسه، بل يفوِّض أمره إلى الأستاذ، فإن الأستاذ قد حصل له التجارب في ذلك فكان أعرف بما ينبغي لكل أحد، وما يليق بطبيعته. وكان الإمام برهان الدين ﵁ يقول: كان طلبة العلم في الزّمان الأوّل يفوّضون أمورهم في التعلم إلى أستاذهم فكانوا يصلون إلى مقاصدهم ومرادهم، والآن يختارون بأنفسهم فلا يحصل مقصودهم من العلم والفقه.

- **الابتعاد عن التكبّر:**

على طالب العلم أن يحترزَ عن التكبّر، فمع التكبّر لا يحصل العلم.

العلم حرب للفتى المتعالي كالسيل حرب للمكان العالي

وأوصانا فضيلة شيخنا العلامةُ محمدُ رفيع العثماني حفظه الله تعالى بأن العلم عزيزٌ لا ذُلَّ فيه فلا يُنال إلا بذلٍّ لا عزّ فيه، وأَخبرنا أن معنى الذل هنا التّواضع.

الجدّ والمواظبة والهمّة

- **الحاجة إليه، وثمرته:**

ثم لا بُدّ من الجدِّ والمواظبةِ والملازمةِ لطالبِ العلم، وإليه الإشارةُ في القرآن الكريم في قوله ﷻ: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}**[1].

وقد قيل في ثمرته: مَن طلب شيئاً وجدّ وجد، ومَن قرع الباب ولجّ ولج، وقيل أيضاً: بقدر ما تتعنّى تنال ما تتمنّى.

قيل: يحتاج في التعلم والتفقه إلى الجدّ ثلاثة: المتعلّمُ والأستاذ والأب.

تمنيت أن تمسي فقيهاً ... بغير عناء والجنون فنون

وليس اكتساب المال دون مشقة ... تحملها فالعلم كيف يكون

- **سهر الليالي والمواظبة والرفق:**

ولا بُدّ لطالب العلم من سهر الليالي ومن المواظبة على الدرس، والتكرار في أوّل الليل وآخره، فإنّ ما بين العشاءين ووقت السحر وقتٌ مبارك.

ولا يجهد نفسه جهداً، ولا يضعف النفس حتى ينقطع عن العمل، بل يستعمل الرفق في ذلك، والرفق أصل عظيم في جميع الأشياء.

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

- **علو الهمّة:**

ولا بد لطالب العلم من الهمة العالية في العلم، فإن المرءَ يطير بهمّته كالطير يطير بجناحيه، والرأس في تحصيل الأشياء: الجدّ والهمّة العالية.

- **الحض على العلم:**

فينبغي للمتعلم أن يبعث نفسه على التحصيل والجدّ والمواظبة بالتأمّل في فضائل العلم، فإن العلم يبقى ببقاء المعلومات والمال يفنى كما قال سيدنا علي رضي الله عنه:

رضينا قسمة الجبار فينا ... لنا علم وللأعداء مال
فإن المال يفنى عن قريب ... وإن العلم يبقى لا يزال

- **أعلى الرّتب:**

إذا ما اعتز ذو علم بعلم ... فعلم الفقه أولى باعتزاز
فكم طيب يفوح ولا كمسك ... وكم طير يطير ولا كبازي

طرق ضبط الدّرس والتّمكن من العلم

- **أولاً: مقدار الدّرس للمبتدي:**

قال الإمام بكر الزَّرَنْجَري رضي الله عنه(ت٥٨٤هـ): قال مشايخنا رضي الله عنهم: ينبغي أن يكون قدر السَّبق ـ أي الدرس ـ للمبتدئ قدر ما يمكن ضبطه بالإعادة مرتين بالرفق، ويزيد كلّ يوم كلمة حتى إنه وإن طال السبق وكثر... يمكن ضبطه بالإعادة مرّتين.

ويزيد بالرفق والتدريج، فأما إذا طال السبق في الابتداء واحتاج إلى الإعادة عشرة مراتٍ، فهو في الانتهاء أيضاً يكون كذلك؛ لأنه يعتاد ذلك، ولا يترك تلك العادة إلا بجهد كثير، وقد قيل: السبق حرف، والتكرار ألف.

- **ثانياً: الابتداء بالأسهل:**

ينبغي أن يبتدئ بشيء يكون أقرب إلى فهمه؛ ليمكنه أن يضبطه ويبعده عن الملالة.

- **ثالثاً: كتابة الدّرس:**

ينبغي أن يعلِّق ـ أي يدوِّن ـ الدرس بعد الضبط والإعادة كثيراً، فإنه نافع جداً، ولا يكتب المتعلّم شيئاً لا يفهمه، فإنه يورث كلالة الطبع، ويذهب الفطنة، ويضيع الأوقات.

- **رابعاً: التركيز للفهم:**

ينبغي أن يجتهد في الفهم عن الأستاذ، أو بالتأمّل والتفكّر وكثرة التكرار، فإنه إذا قلّ الدرس وكثر التكرار والتأمّل يدرك ويفهم، فقد قيل: حفظ حرفين خير من سماع وِقْرَين، وفهم حرفين خير من حفظ وِقْرَين.

وإذا تهاون في الفهم ولم يجتهد مرّة أو مرتين فإنه يعتاد ذلك، فلا يفهم الكلام اليسير، فينبغي ألا يتهاون في الفهم، بل يجتهد ويدعو الله تعالى، ويتضرع إليه، فإنه يجيب من دعاه، ولا يخيّب مَن رجاه. وأنشد القاضي الخليل بن أحمد السِّجزي ﷺ (ت٣٨٣هـ):

اخدم العلم خدمة المستفيد	وأدم درسه بعقل حميد
وإذا ما حفظت شيئاً أعده	ثم أكده غاية التأكيد
ثم علّقه كي تعود إليه	وإلى درسه على التأبيد
وإذا ما أمنت منه فواتاً	فانتدب بعده لشيء جديد
مع تكرار ما تقدم منه	اعتناء بشأن هذا المزيد
ذاكر الناس بالعلوم لتحيا	لا تكن من أولي النهى ببعيد
إن كتمت العلومَ أنسيت حتى	لا ترى غير جاهل وبليد
ثم ألجمت في القيامة ناراً	وتَلَهَّبت في العذاب الشديد

- **خامساً: المناظرة:**

وهي المباحثة بين مختلفي الرأي لاستخراج الصواب، إذ لا بُدّ لطالب العلم منها، وعليه أن يُراعي فيها ما يلي:

١. أن يحترزَ عن الغضبِ والشّغبِ بأن يسعىٰ للفوضى ورفع الصوت بما لا فائدة فيه، فإنّ المناظرةَ والمذاكرةَ مشاورة، والمشاورةُ إنما تكون لاستخراج الصواب، وذلك يحصل بالتأمّل والتأني والإنصاف، ولا يحصل بالغضب والشغب.

٢. أن لا تكون النية إلزام الخصم، وإنّما لإظهار الحقّ بلا تمويه، بأن يتلوَّنَ ويتلاعب لإخفاء الحقّ، وكان الفقيه محمد بن يحيىٰ الجرجاني (ت٣٩٨هـ) شيخ القُدُوريّ والناطفيّ إذا توجَّه عليه الإشكال، ولم يحضره الجواب يقول: ما ألزمته لازم، وأنا فيه ناظر، وفوق كلّ ذي علم عليم.

٣. أن لا يتجوز الحيلة فيها إلا إذا كان الخصم متعنتاً، لا طالباً للحقّ.

- **سادساً: المذاكرةُ والمطارحة:**

والمذاكرة: هي التداول والمراجعة بين الطالب وكتابه وبينه وبين صديقه، وقد قيل:

وأدم للعلم مذاكرة ... فحياة العلم مذاكرته

وقيل:

إذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ... ولم يستزد علماً نسيـ ما تعلما
وكم جامع للعلم من كل مذهب ... يزيد علىٰ الأيام في جمعه عمىٰ

والمطارحة: هي البحث في المسائل المطروحة بين الأقران وأصدقاء الطّلب.

وفائدة المطارحة والمناظرة أقوىٰ من فائدة مجرَّد التكرار؛لأن فيها تكراراً وزيادة، فقد قيل: «مطارحة ساعة خير من تكرار شهر»، ولكن إذا كان مع منصف سليم الطبع بخلاف المتعنِّت غير مستقيم الطبع فيحذر من مذاكرته؛ لأنّ الطّبيعة مُتَسَرِّبة، والأخلاق متعدِّية، والمجاورة مؤثّرة. قال الخليل ﷺ:

العلم من شرطه لَمَن خدمه ... أن يجعلَ الناس كلَّهم خدَمَه

- **سابعاً: التأمّل:**

فإنّه ينبغي لطالب العلم أن يكون متأمّلاً في جميع الأوقات في دقائق العلوم ويعتاد ذلك، فإنما تدرك الدقائق بالتأمل، ولها قيل: «تأمل تدرك».

ويكون التّأمّل قبل الكلام حتىٰ يكون صواباً، فإن الكلام كالسهم فلا بُدّ من تقويمه بالتّأمل قبل الرّمي حتىٰ يكون مصيباً، وقيل: «رأس العقل أن يكون الكلام بالتّثبت والتّأمّل». وقد قيل:

أوصيك في نظم الكلام ... إن كنت للموصى الشّفيق مطيعاً
لا تغفلن سبب الكلام ووقته ... والكيف والكمَّ المكانَ جميعاً

- **ثامنا: الاستفادة في جميع الأحوال والأوقات من جميع الأشخاص:**

فعن أبي هريرة ﷺ قال ﷺ: «الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»[1]. وقيل: خذ ما صفا ودع ما كدر[2]؛ لأنّ فيما يسمعه المرء خير

---

(١) في سنن الترمذي(٥: ٥١)، وسنن ابن ماجة(٢: ١٣٩٥)، ومصنف ابن أبي شيبة(٧: ٢٤٠).

(٢) ينظر: المستقصىٰ في أمثال العرب(٢: ٧٢).

وشرّ، والعاقل يلتقط الخير كيفما استطاع، ويترك الشرّ ما أمكنه.

والاستفادة ممكنة من كلّ أحد؛ ولهذا قال أبو يوسف ﵁ حين قيل له: بِمَ أدركْتَ العلم؟ قال: ما استنكفت من الاستفادة، وما بَخِلت بالإفادة.

- **تاسعاً: كثرة السؤال:**

قيل لابن عباس ﵄: بِمَ أدركت العلم؟ قال: «بلسان سئولٍ، وقلب عقول»؛ ولأنه لا ينال العلم مستحي ولا مستكبر، مستحي عن السؤال، أو مستكبر على مَن يسأله. ولذلك سمّي طالب العلم في الزمان الأول: ما تقول!!؛ لكثرة ما كانوا يقولون: ما تقول في هذه المسألة؟.

- **عاشراً: عدم العزوف عن العلم للكسب:**

إنه لا بد لطالب العلم من الكسب لنفقة نفسه وعياله وغيرهم فليكتسب، وليكرر وليذاكر، ولا يكسل، وليس لصحيح البدن والعقل عذر في ترك التعلّم والتفقه، فإنه لا يكون أفقر من أبي يوسف ﵁، ولم يمنعه ذلك من التّفقه!!.

سألت الفقر أين أنت مقيم ... فقال لي في عمائم الفقهاء
إن الفقير هو الفقيه وإنما ... الفقير تجمّعت أطرافها

أما إن كان غنياً ذا مال كثير، فنعم المال الصالح للرجل الصالح المنصرف في طريق العلم. وقيل لعالم: بِمَ أدركت العلم والفضل؟ قال: بأبٍ غنيّ؛ لأنّه كان يصطنع به أهل العلم والفضل، فإنّه سبب زيادة العلم؛ لأنّه شكرٌ على نعمة العقل والعلم، وهو سبب الزّيادة.

- **الحادي عشر: كثرة الشكر لله ﷻ:**

قال أبو حنيفة ﷺ: إنّما أدركت العلم بالحمد والشكر، فكلـمّا فهمت شيئاً من العلوم ووقفت على فقه وحكمةٍ، قلت: الحمد لله تعالى، فازداد علمي.

وهكذا ينبغي لطالب العلم أن يشتغلَ بالشكر باللسان والجنان والأركان والمال، ويرى الفَهمَ والعلم والتوفيق من الله تعالى، ويطلب الهداية من الله تعالى بالدعاء منه والتضرّع إليه، فإنه تعالى هادٍ مَن استهداه.

- **الثّاني عشر: التّوكل على الله ﷻ:**

فعلى طالب العلم أن لا يعتمد على نفسه وعقله، بل يتوكّل على الله ﷻ ويطلب الحقّ منه، ومَن يتوكّل على الله ﷻ فهو حسبه، ويهديه إلى صراط مستقيم.

- **الثّالثَ عشر: ترك البخل:**

ومَن كان له مال فلا يبخل، وينبغي أن يتعوذ بالله ﷻ من البخل، فعن أنس ﷺ أن رسولَ الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل....»[1]، فعليه أن لا يبخلَ بما عنده من المال، بل ينفق على نفسه وعلى غيره.

---

(١) في صحيح البخاري(٤: ١٧٤١).

- **الرّابعَ عشر: اقتناءُ الكتب:**

وينبغي أن يشتري الكتب ويستكتب، فتكون عوناً على التعلّم والتفقّه، وقد كان لمحمد بن الحسن ﷺ مالٌ كثير، حتى كان له ثلاثمئة من الولاء على ماله، فأنفقه كلّه في العلم والفقه، ولم يبق له ثوبٌ نفيس، فرآه أبو يوسف ﷺ في ثوب خَلَق، فأَرسل ثياباً نفيسة فلم يقبلها، وقال: عُجِّل لكم وأُجِّل لنا.

- **الخامسَ عشر: التكسُّب بنفسه:**

فينبغي لطالب العلم أن يكون ذا همّة عالية لا يطمع في أموال الناس، قال ﷺ: «عليك بالإياس ممّا في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر»(١)، وكانوا في الزمانِ الأوّلِ يتعلّمون الحرفة، ثم يتعلّمون العلم حتى لا يطمعوا في أموالِ الناس، وفي الحكمة: مَن استغنى بمال الناس افتقر.

- **السّادس عشر: عدم الطّمع:**

إنّ العالم إذا كان طماعاً لم تبق له حرمة العلم، ولا يقول بالحقّ، فعن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: «إنّ رسولَ الله ﷺ يأمركم أن تتعوذوا من ثلاث: من طمعٍ حيث لا طمع، ومن طمعٍ يردّ إلى طبع، ومن طمعٍ إلى غيرِ طمع»(٢)، وعن معاذ بن جبل ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله من

---

(١) في المستدرك(٤: ٣٦٢، وصححه، والمعجم الأوسط(٧: ٣٦٩).

(٢) في المعجم الكبير(١٨: ٥٣)، والمعجم الأوسط(٤: ٨)، ومسند الشاميين(٢: ٢٩٦)، ومسند عبد بن حميد(١: ٧٠).

طمع يهدىٰ إلىٰ طبع، ومن طمع يهدىٰ إلىٰ غير مطمع، ومن طمع حيث لا طمع»[١].

- **السّابع عشر: خوف الله ﷻ ورجاؤه:**

وينبغي للمؤمن ألا يرجو إلا من الله ﷻ، ولا يخاف إلا منه ﷻ، ويظهر ذلك بمجاوزة حدّ الشرع وعدمها، فمَن عصىٰ الله ﷻ خوفاً من المخلوق، فقد خاف غير الله ﷻ، فعليه أن لا يعصي الله ﷻ لخوف المخلوق، ويراقب حدود الشرع، فلا يخف غير الله ﷻ، بل يخاف الله ﷻ. وكذا في جانب الرّجاء.

- **الثّامن عشر: تكرار الدّرس:**

ينبغي لطالب العلم أن يعدّ ويقدّر لنفسه تقديراً في التكرار، فإنه لا يستقرّ قلبه حتىٰ يبلغ ذلك المبلغ، فيكرر درس الأمس خمس مرات، ودرس اليوم الذي قبل الأمس أربع مرات، والسبق الذي قبله ثلاث مرّات، والذي قبله اثنتين، والذي قبله مرّة واحدة، فهذا ادعىٰ للحفظ.

وينبغي ألا يعتاد المخافتة في التكرار؛ لأن الدرس والتكرار ينبغي أن يكونا بقوة ونشاط، ولا يجهر جهراً يجهد نفسه كيلا ينقطع عن التكرار، فخير الأمور أوسطها.

---

(١) في مسند أحمد(٢: ٢٣٢).

- **التّاسع عشر: ترك الفتور:**

وينبغي ألا يكون لطالب العلم فترة فإنها آفته، وكان شيخ الإسلام برهان الدين ﵁ يقول: «إنما فقت على شركائي بأني لم تقع لي الفترة في التحصيل».

- **العشرون: حفظ كتاب:**

كان الشّيخ القاضي الإمام فخر الدين قاضي خان ﵁ يقول: «ينبغي للمتفقه أن يحفظ كتاباً واحداً من كتب الفقه دائماً ليتيسّر له بعد ذلك حفظ ما يسمع من الفقه».

طريق التّوكل واستغلال الوقت

أولاً: لا بُدّ لطالب العلم من التوكّل في طلب العلم، ولا يهتمّ لأمر الرزق، ولا يشغل قلبه بذلك، وروى الإمام أبو حنيفة ﷺ عن عبد الله بن الحارث الزبيدي ﷺ، قال ﷺ: «مَن تفقه في دين الله ﷻ كفاه الله ﷻ همّه، ورزقه من حيث لا يحتسب»(١).

فإن مَن اشتغل قلبه بأمر الرزق من القوتِ والكسوة، قَلَّما يَتَفَرَّغَ لتحصيل مكارم الأخلاق، ومعالي الأمور. قيل:

دع المكارم لا ترحل لبُغْيَتها واقعُد فإنَّك أنت الطاعمُ

قال رجل لمنصور الحلاَّج: أوصني، فقال: هي نفسك إن لم تشغلها شَغَلتك(٢).

فينبغي لكلّ أحد أن يشغَلَ نفسه بأعمال الخير حتى لا تشتغل بهواها، ولا يهتمّ العاقل لأمر الدنيا؛ لأن الهَمَّ والحزْنَ لا يردّ المصيبة ولا ينفع بل يضرّ بالقلب والعقل والبدن، ويخُلّ بأعمال الخير، ويهتمَّ لأمر الآخرة؛ لأنه ينفع، وتركُ ما يخُلُّ بعمل الخير ويُشغل القلبَ شُغلاً يُخِلُّ بإحضارِ القلب في الصلاة، فإن ذلك القدر من الهمِّ والقصد من أعمال الآخرة.

---

(١) في تاريخ بغداد(٣: ٣٢).

(٢) ينظر: الإحياء(٤: ٥٧)، وتفسير الثعالبي(٤: ٣٠٦)، وتاريخ بغداد(٨: ١٣١).

ثانياً: إنه لا بُدّ لطالب العلم من تقليل العلائق الدنيوية بقدر الوسع، ولهذا اختاروا الغربة.

ثالثاً: لا بُدّ من تَحَمُّل النصب والمشقّة في سفر التعلّم كما قال موسى عليه السلام في سفر التعلّم، ولم ينقل عنه ذلك في غيره من الأسفار: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]، لِيُعلَم أن سفرَ العلم لا يخلو من التعب؛ لأنّ العلمَ أمرٌ عظيمٌ، وهو أَفضلُ من الجهادِ عند أكثر العلماء، والأجرُ على قدرِ التعب والنَّصب.

فمَن صَبَرَ على ذلك وَجَدَ لذّةً تفوقُ سائر لذّات الدنيا؛ ولذا كان محمّد بنُ الحسن رضي الله عنه إذا سَهِرَ الليالي وانحلَّت له المشكلات، يقول: «أين أَبناء الملوك من هذه اللذّات».

سهري لتنقيح العلوم ألذّ لي ... من وصل غانيةٍ وطيب عناق
وتمايلي طرباً لحلِّ عويصةٍ ... في الذهنِّ أبلغُ من مُدامة ساقي
وصرير أقلامي على صفحاتها ... أشهى من الدُّوكاه والعُشاق
وألذّ من نقر الفتاة لدفها ... نقري لألقي الرمل عن أوراقي

رابعاً: لا بد لطالب العلم ألا يشتغل بشيءٍ آخر غير العلم ولا يعرض عن الفقه، قال محمد بن الحسن رضي الله عنه: صناعتنا هذه من المهد إلى اللحد، فمَن أراد أن يتركَ علمنا هذا ساعة فليتركه الساعة.

ودخل فقيه على أبي يوسف رضي الله عنه يعوده في مرض موته، وهو يَجُود بنفسه، فقال أبو يوسف رضي الله عنه له: «رمي الجمار راكباً أفضل أم راجلاً؟ فلم

يعرف الجواب! فأجاب بنفسه».

وهكذا ينبغي للفقيه أن يشتغل به جميع أوقاته، فحينئذٍ يَجِدُ لذّةً عظيمةً في ذلك.

وقت التّحصيل وطرق الاستفادة

- **وقت التّعلم من المهد إلى اللحد:**

ينبغي لطالب العلم أن يستغرق جميع أوقاته، فإذا ملَّ من علم يشتغل بعلم آخر، وكان ابن عباس ﵄ إذا ملَّ من علم الكلام، يقول: هاتوا ديوان الشّعراء.

وكان محمد بن الحسن لا ينام الليل، وكان يضع عنده الماء، ويزيل نومه بالماء، وكان يقول: إن النوم من الحرارة، وكان يضع عنده الدفاتر، وكان إذا ملَّ من نوع ينظر في نوع آخر.

- **طرق الاستفادة:**

وينبغي أن يكون الطالبُ مُستفيداً في كلِّ وقتٍ حتى يحصلَ له الفضل بما يلي:

١. أن يكون معه في كلّ وقت محبرة حتى يكتب ما يسمع من الفوائد، مَن حفظ فرّ، ومن كتب شيئاً قرَّ.

وقيل: العلم يؤخذ من أفواه الرّجال؛ لأنّهم يحفظون أحسن ما يسمعون، ويقولون أحسن ما يحفظون. وقيل: جالسوا العلماء واستمعوا منهم، فإنهم يقولون أحسن ما يحفظون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويكتبون أحسن ما يقرؤون....

٢. أن يحفظ شيئاً من العلم وإن كان يسيراً، وأوصىٰ الصدر الشهيد حسام الدين ﵁ ابنه شمس الدين أن يحفظَ كلَّ يوم شيئاً يسيراً من العلم والحكمة، فإنه عن قريب يكون كثيراً. وقد اشترىٰ عصام بن يوسف البلخي ﵁ (ت٢١٥هـ) قلماً بدينار ليكتب ما سمعه في الحال، فالعمر قصير، والعلم كثير.

٣. أن لا يضيع الأوقات والساعات ويغتنم الليالي والخلوات، فعن يحيىٰ بن معاذ الرازي ﵁ (ت٢٥٨هـ) أنه قال: الليل طويل، فلا تقصره بمنامك، والنهار مضيءٌ، فلا تكدره بآثامك.

٤. أن يغتنم الشيوخ ويستفيد منهم، وليس كلّ ما فات يدرك، كما قال شيخ الإسلام المرغيناني ﵁: كم من شيخ كبير أدركته المنية وما استجزته.

٥. أن يتحمّل المشقّة والمذلّة في طلب العلم، والتملّق مذموم إلا في طلب العلم، فإنه لا بدّ له من التملّق للأستاذ والشركاء وغيرهم للاستفادة منهم.

قيل: العلم عزٌّ لا ذل فيه، ولا يدرك إلا بذل لا عزَّ فيه. وقال القائل:

أرىٰ لك نفساً تشتهي أن تُعِزَّها فلست تنالُ العِزَّ حتىٰ تُذلَّها

٦. أن يستصحب كتاباً علىٰ كلِّ حال ليطالعه، وقيل: من لم يكن له دفتر في كمِّه لم تثبت الحكمة في قلبه.

- **ورع طالب العلم:**

كلّما كان طالبُ العلم أَورعَ كان علمه أنفع، والتعلُّمُ له أَيسر، وفوائدُه

أَكثر. ومن الورع: أن يَحترزَ عن الشبع وكثرةِ النوم، وكثرةِ الكلام فيما لا ينفع، وأن يَتَحرَّزَ عن أكلِ طعام السوقِ إن أَمْكَن؛ لأن طعام السوق أقرب للنجاسة والخيانة، وأَبعد عن ذكر الله ﷻ، وأَقرب إلى الغفلة؛ ولأنَّ أَبصارَ الفقراء تقع عليه، ولا يقدرون على الشراء منه، فيتأذّون بذلك، فتذهب بركتُه.

ووصى فقيه من زهّاد الفقهاء طالب علم؛ فقال له: عليك أن تتحرَّز عن الغيبةِ وعن مجالسةِ المكثار، وقال: إن مَن يُكثرُ الكلامَ يَسْرِقُ عمرك، ويضيِّع أوقاتَك.

ومن الورع أن يجتنبَ أهل الفساد والمعاصي والتعطيل ويجاور الصالحين، فإن المجاورة مؤثرة لا محالة، وأن يجلس مستقبلاً القبلة، ويكون مستناً بسنة النبي ﷺ، ويغتنم دعاء أهل الخير، ويحترزَ عن دعاء المظلومين.

وينبغي لطالب العلم ألا يتهاون بالآداب والسنن، فإن مَن يتهاون بالآداب يحرم السنن، ومَن تهاون بالسنن حرم الفرائض، ومَن تهاون بالفرائض حرم الآخرة.

وينبغي أن يكثرَ الصلاةَ ويصلِّي صلاة الخاشعين، فإن ذلك عَونٌ له على التحصيل والتعلُّم.

وبعد أن أطلعنا على هذه الدرر الثمينة الملخصة من «تعليم المتعلم» للإمام الزرنوجي، فيحسن بنال الوقوف على الفوائد الجمة التي اختصرت من «التبيان في آداب حامل القرآن» للإمام النووي.

وبالتالي يكون الطالب وقف مع نصائح للمعاصرين، وخلاصة كلام السابقين في آداب طالب العلم، ومع اختصار لأبرز كتب آداب طالب العلم للإمامين الكبيرين الزرنوجي والنووي،

وطالما وصل بنا الكلام إلى هاهنا في التدرج لما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم من الصفات والسلوكيات، وما يجب عليه من الطرق في تحصيل العلوم، مع التنبيه على المعاناة في مدارسنا وجامعتنا؛ لئلا يغترّ بها مغترّ، ويظنّ أن هذا هو العلم، ولا سبيل آخر للحصول عليه.

فتكون الخاتمة في هذه الومضة الأخيرة مع كلام الإمام النووي:

الومضة الرّابعة عشر:

خلاصة آداب لطالب العلم

للإمام النَّوويّ

أولاً: آداب معلم القرآن ومتعلمه:

أوّل ما ينبغي للمقرئ والقارئ أن يقصدا بذلك رضا الله تعالى، قال الله ﷻ: {وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَّ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَة} [البينة:٥]: أي الملة المستقيمة.

وعن عمر رضي الله عنه قال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»(١)، وهذا الحديث من أصول الإسلام.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «إنّما يُعطى الرجل على قدر نيته»، وعن غيره: «إنّما يعطى النّاس على قدر نياتهم».

وروينا عن الأستاذ أبي القاسم القشيري: الإخلاص إفراد الحق في الطّاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التّقرب الى الله تعالى دون شئ آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة أو مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى، قال: ويصح أن يقال: الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

---

(١) في صحيح البخاري١: ٦، وصحيح مسلم٣: ١٥١٥.

وعن حذيفة المرعشي: الإخلاص استواء أفعال العبد في الظاهر والباطن.

وعن ذي النون: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية العمل في الأعمال، واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة.

وعن الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وعن سهل التستري: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غير هذا أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالىٰ وحده، لا يمازجه شيء، لا نفس، ولا هوىٰ، ولا دنيا.

وعن السري: لا تعمل للنّاس شيئاً، ولا تترك لهم شيئاً، ولا تغط لهم شيئاً، ولا تكشف لهم شيئاً.

وعن القشيري: أفضل الصدق استواء الصدق والعلانية.

وعن الحارث المحاسبي: الصادق هو الذي لا يبالي، ولو خرج عن كلِّ قدر له في قلوب الخلائق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع النّاس علىٰ مثاقيل الذّر من حسن عمله، ولا يكره إطلاع الناس علىٰ السيء من عمله، فإن كراهته لذلك دليل علىٰ أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصِّديقين.

وعن غيره: إذا طلبت الله تعالىٰ بالصدق أعطاك الله مرآة تبصر فيها كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة.

وأقاويل السلف في هذا كثيرة أشرنا إلىٰ هذه الأحرف منها تنبيهاً علىٰ المطلوب.

وينبغي أن لا يقصد به توصلاً إلىٰ غرض من أغراض الدُّنيا من مال أو رئاسة أو وجاهة أو ارتفاع علىٰ أقرانه أو ثناء عند النّاس أو صرف وجوه الناس إليه أو نحو ذلك.

ولا يشوب المقرئ إقراءه بطمع في رفق يحصل له من بعض مَن يقرأ عليه سواء كان الرفق مالاً أو خدمة وإن قل، ولو كان علىٰ صورة الهدية التي لولا قراءته عليه لما أهداها إليه، قال ﷻ: {مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيب} [الشورىٰ:٢٠]، وقال ﷻ: {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ} [الإسراء:١٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «من تعلم علماً يبتغي به وجه الله تعالىٰ لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[1].

وعن أنس وحذيفة وكعب بن مالك رضي الله عنهم، قال ﷺ: «مَن طلب العلم

---

(١) في سنن أبي داود٣: ٣٢٣، وقال النووي: إسناده صحيح، والمستدرك١: ١٦٠، وصححه.

ليماري به السفهاء، أو يكاثر به العلماء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله ﷻ النار»[١].

ثانياً: إخلاص المعلم له:

وليحذر كلّ الحذر مَن قصده التكثر بكثرة المشتغلين عليه، والمختلفين إليه.

وليحذر من كراهته قراءة أصحابه على غيره ممن ينتفع به، وهذه مصيبة يُبتلى بها بعض المعلمين الجاهلين، وهي دلالة بيّنة من صاحبها على سوء نيته وفساد طويته، بل هي حجّةٌ قاطعة على عدم إرادته بتعليمه وجه الله تعالى الكريم، فإنه لو أراد الله ﷻ بتعليمه لما كَره ذلك بل قال لنفسه: أنا أردت الطاعة بتعليمه، وقد حصلت، وقد قصد بقراءته على غيري زيادة علم فلا عتب عليه.

فعن عليّ رضي الله عنه قال: يا حملة القرآن أو قال: «يا حملة العلم اعملوا به، فإنّما العلم من عمل بما علم، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف عملهم علمهم، وتخالف سريرتهم علانيتهم، يجلسون حلقاً يُباهي بعضهم بعضاً، حتى أنّ الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه،أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم، تلك إلى الله تعالى»[٢].

---

(١) في سنن الترمذي٥: ٣٢، وسنن ابن ماجة١: ٩٣، وسنن الدارمي١: ٣٧٨.

(٢) في سنن الدارمي١: ٣٨٢.

وقد صحّ عن الإمام الشافعي أنه قال: وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم ـ يعني علمه وكتبه ـ على أن لا ينسب إلي حرف منه.

ثالثاً: مكارم الاخلاق:

وينبغي للمعلم أن يتخلّق بالمحاسن التي ورد الشرع بها، والخصال الحميدة والشيم المرضية التي أرشده الله إليها من الزهادة في الدنيا، والتقلل منها، وعدم المبالاة بها وبأهلها، والسخاء والجود، ومكارم الأخلاق، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة، والحلم والصبر والتنزه عن دنئ المكاسب، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع، واجتناب الضحك، والإكثار من المزاح، وملازمة الوظائف الشرعية كالتنظيف وتقليم بإزالة الأوساخ، والشعور التي ورد الشرع بإزالتها: كقص الشارب وتقليم الظفر وتسريح اللحية وإزالة الروائح الكريهة والملابس المكروهة.

وليحذر كلّ الحذر من الحسد والرياء والعجب واحتقار غيره وإن كان دونه.

وينبغي أن يستعمل الأحاديث الواردة في التسبيح والتهليل ونحوهما من الأذكار والدعوات، وأن يراقب الله تعالى في سره وعلانيته، ويحافظ على ذلك، وأن يكون تعويله في جميع أموره على الله تعالى.

ثالثاً: الإحسان للمتعلم:

وينبغي له أن يرفق بمَن يقرأ عليه، وأن يرحب به، ويحسن إليه بحسب

حاله، فعن أبي هرون العبدي قال: كنا نأتي أبا سعيد الخدري ﵁ فيقول: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، قال ﷺ: «إن الناس لكم تبع، وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»[1].

رابعاً: إخلاص النّصيحة له:

وينبغي أن يبذل لهم النّصيحة، قال ﷺ: «الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[2]، ومن النصيحة لله تعالىٰ ولكتابه إكرام قارئه وطالبه، وإرشاده إلىٰ مصلحته، والرفق به ومساعدته علىٰ طلبه بما أمكن، وتأليف قلب الطالب، وأن يكون سمحاً بتعليمه في رفق متلطفاً به، ومحرضاً له علىٰ التّعلم.

وينبغي أن يذكره فضيلة ذلك ليكون سبباً في نشاطه، وزيادة في رغبته ويزهده في الدنيا، ويصرفه عن الركون إليها، والإغترار بها.

ويذكره فضيلة الإشتغال بالقرآن، وسائر العلوم الشرعية، وهو طريق العارفين، وعباد الله الصالحين، وأن ذلك رتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وينبغي أن يشفق علىٰ الطالب، ويعتني بمصالحه كاعتنائه بمصالح

---

(١) في سنن الترمذي٥: ٣٠، وسنن ابن ماجة١: ٩١.

(٢) في صحيح مسلم١: ٧٤.

ولده، ومصالح نفسه، ويجري المتعلم مجرى ولده في الشفقة عليه، والصبر على جفائه وسوء أدبه، ويعذره في قلّة أدبه في بعض الأحيان، فإن الإنسان معرض للنقائص لا سيما إن كان صغير السن.

وينبغي أن يحبّ له ما يحب لنفسه من الخير، وأن يكره له ما يكره لنفسه من النقص مطلقاً، فعن أنس ﷺ، قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(١)، وعن ابن عبّاس ﷺ قال: «أكرم الناس علي جليسي، الذي يتخطى النّاس حتى يجلس إلي، لو استطعت أن لا يقع الذباب على وجهه لفعلت»(٢)، وفي رواية: «إن الذباب ليقع عليه فيؤذيني»(٣).

وينبغي أن لا يتعاظم على المتعلمين، بل يلين لهم، ويتواضع معهم، فقد جاء في التواضع لآحاد الناس أشياء كثيرة معروفة، فكيف بهؤلاء الذين هم بمنزلة أولاده مع ما هم عليه من الاشتغال بالقرآن، مع ما لهم عليه من حقّ الصحبة، وترددهم إليه، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «لينوا لمن تعلمون، ولمن تتعلمون منه»(٤).

وعن أبي أيوب السِّختيانيّ: ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله ﷻ(٥).

---

(١) في صحيح البخاري١: ١٢.

(٢) في شعب الإيمان١٢: ١١١.

(٣) في المنتقى١: ١٤٩، ومكارم الأخلاق١: ٢٣٥.

(٤) في الفوائد المنتقاة الحسان للخلعي٢: ٢٢٥.

(٥) في مصنف ابن أبي شيبة١٩: ٤٩٥.

خامساً: تأليف المتعلم:

وينبغي أن يؤدب المتعلِّم علىٰ التدريج بالآداب السنية، والشيم المرضية، ورياضة نفسه بالدقائق الخفية، ويعوده الصيانة في جميع أموره الباطنة والجلية، ويحرضه بأقواله وأفعاله المتكررات علىٰ الإخلاص والصدق وحسن النيات، ومراقبة الله تعالىٰ في جميع اللحظات، ويعرفه أن لذلك تتفتح عليه أنوار المعارف، وينشرح صدره، ويتفجر من قلبه ينابيع الحكم واللطائف، ويُبارك له في علمه وحاله، ويوفق في أفعاله وأقواله.

سادساً: حكم التّعليم:

تعليم المتعلمين فرض كفاية، فإن لم يكن مَن يصلح إلا واحد تعين، وإن كان هناك جماعةٌ يحصل التَّعليم ببعضهم، فإن امتنعوا كلّهم أثموا، وإن قام به بعضُهم سقط الحرج عن الباقين، وإن طلب من أحدهم وامتنع فأظهر الوجهين أنه لا يأثم، لكن يكره له ذلك إن لم يكن عذر.

سابعاً: إخلاص المعلم:

يستحب للمعلم أن يكون حريصاً علىٰ تعليمهم مؤثراً ذلك علىٰ مصالح نفسه الدنيوية التي ليست بضرورية، وأن يفرغ قلبه في حال جلوسه لإقرائهم من الأسباب الشّاغلة كلّها، وهي كثيرةٌ معروفةٌ.

وأن يكون حريصاً علىٰ تفهيمهم، وأن يعطي كلّ إنسان منهم ما يليق به، فلا يكثر علىٰ من لا يحتمل الإكثار، ولا يُقصر لمن يحتمل الزيادة،

ويأخذهم بإعادة محفوظاتهم، ويثني علىٰ مَن ظهرت نجابته ما لم يخش عليه فتنة بإعجاب أو غيره.

ومَن قصَّر عنَّفه تعنيفاً لطيفاً في ما لم يخش عليه تنفيره، ولا يحسد أحداً منه لبراعة تظهر منه، ولا يستكثر فيه ما أنعم الله به عليه، فإن الحسد للأجانب حرام شديد التحريم، فكيف للمتعلم الذي هو بمنزلة الولد، ويعود من فضيلته إلىٰ معلمه في الآخرة الثواب الجزيل، وفي الدنيا الثناء الجميل.

ويُقدِّم في تعليمهم إذا ازدحموا الأول فالأول، فإن رضي الأول بتقديم غيره قدَّمه، وينبغي أن يظهر لهم البشر وطلاقة الوجه، ويتفقد أحوالهم، ويسأل عمَن غاب منهم.

قال العلماء: ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية، فقد قال سفيان وغيره: طلبهم للعلم نية، وقالوا: طلبنا العلم لغير الله فأبىٰ أن يكون إلا لله ﷻ، معناه كانت غايته أن صار لله تعالىٰ.

ثامناً: أدب المعلّم:

ومن آدابه المتأكدة وما يعتنى به:

أن يصون يديه في حال الإقراء عن العبث، وعينيه عن تفريق نظرهما من غير حاجة، ويقعد علىٰ طهارة مستقبل القبلة، ويجلس بوقار، وتكون ثيابه بيضاً نظيفة، وإذا وصل إلىٰ موضع جلوسه، صلىٰ ركعتين قبل الجلوس، سواء كان الموضع مسجداً أو غيره، ويجلس متربعاً إن شاء أو غير متربع،

وروىٰ ابن أبي داود عن ابن مسعود ﷺ: كان يقرئ الناس في المسجد جاثيا علىٰ ركبتيه.

وأن لا يذل العلم، فيذهب إلىٰ مكان ينسب إلىٰ مَن يتعلم منه؛ ليتعلم منه فيه وإن كان المتعلم خليفة، فمن دونه، بل يصون العلم عن ذلك، كما صانه عنه السلف ﷺ وحكاياتهم في هذا كثيرة مشهورة.

وينبغي أن يكون مجلسه واسعاً؛ ليتمكن جلساؤه فيه، فعن أبي سعيد ﷺ، قال ﷺ: «خير المجالس أوسعها»(١).

تاسعاً: آداب المتعلم:

وجميع ما ذكرناه من آداب المعلم في نفسه آداب للمتعلم.

ومن آدابه: أن يجتنب الأسباب الشاغلة عن التحصيل إلا سببا لا بد منه للحاجة.

وينبغي أن يطهر قلبه من الأدناس؛ ليصلح لقبول القرآن وحفظه واستثماره فقد صحَّ عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: أنه قال: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(٢).

---

(١) في سنن أبي داود٤: ٢٥٧، وقال النووي: إسناده صحيح.

(٢) في صحيح البخاري١: ٢٠، وصحيح مسلم٣: ١٢١٩.

وقد أحسن القائل بقوله: يطيب القلب للعلم كما تطيب الأرض للزراعة.

وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويتأدب معه وإن كان أصغر منه سناً وأقل شهرة ونسباً وصلاحاً وغير ذلك.

ويتواضع للعلم فبتواضعه يدركه، وقد قالوا نظماً:

العلم حرب للفتى المتعالي .... كالسيل حرب للمكان العالي

وينبغي أن ينقاد لمعلمه ويشاوره في أموره، ويقبل قوله، كالمريض العاقل يقبل قول الطبيب الناصح الحاذق وهذا أولى.

ولا يتعلم إلا ممن كملت أهليته، وظهرت ديانته، وتحقَّقت معرفتُه، واشتهرت صيانته، فقد قال محمد بن سيرين ومالك بن أنس وغيرهما من السلف: هذا العلم دينٌ، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

وعليه أن ينظر معلمه بعين الاحترام، ويعتقد كمال أهليته، ورجحانه على طبقته، فإنه أقرب إلى انتفاعه به، وكان بعضُ المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدَّق بشيء، وقال: اللهم استر عيب معلمي عني، ولا تذهب بركة علمه مني، وقال الربيع صاحب الشافعي: ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له.

وعن عليّ رضي الله عنه: من حقّ المعلم عليك أن تُسلِّم على الناس عامة، وتخصّه دونهم بتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرن عنده بيدك، ولا تغمزن بعينيك، ولا تقولن: قال فلان خلاف ما تقول، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تشاور

جليسك في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه إذا قام، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تعرض أي تشبع من طول صحبته.

وينبغي أن يتأدب بهذه الخصال التي أرشد إليها علي ﷺ، وأن يرد غيبة شيخه إن قدر، فإن تعذَّر عليه ردّها فارق ذلك المجلس.

ويدخل على الشيخ كامل الخصال متصفاً بما ذكرناه في المعلم متطهراً مستعملاً للسواك، فارغ القلب من الأمور الشاغلة.

وأن لا يدخل بغير استئذان إذا كان الشيخ في مكان يحتاج فيه إلى استئذان، وأن يسلم على الحاضرين إذا دخل ويخصه دونهم بالتحية.

وأن يسلم عليه وعليهم إذا انصرف، فعن أبي هريرة ﷺ، قال ﷺ: «إذا أتى أحدكم المجلس فليسلم، فإذا قام فليسلم، فليست الأولى بأحق من الثانية»[1].

ولا يتخطى رقاب الناس، بل يجلس حيث ينتهي به المجلس، إلا أن يأذن له الشيخ في التَّقدُّم أو يعلم من حالهم إيثار ذلك.

ولا يقيم أحداً من موضعه، فإن آثره غيره لم يقبل اقتداء بابن عمر ﷺ إلا أن يكون في تقديمه مصلحة للحاضرين أو أمره الشيخ بذلك.

ولا يجلس في وسط الحلقة إلا لضرورة.

ولا يجلس بين صاحبين بغير إذنهما وإن فسحا له قعد وضم نفسه.

---

(١) في المعجم الصغير ١: ٢٣٠، وشعب الإيمان ١١: ٢٣١.

عاشراً: أدبه مع رفاقه:

وينبغي أن يتأدب مع رفقته، وحاضري مجلس الشيخ، فإن ذلك تأدب مع الشّيخ، وصيانة لمجلسه، ويقعد بين يدي الشَّيخ قعدة المتعلمين لا قعدة المعلمين، ولا يرفع صوته رفعاً بليغاً من غير حاجة، ولا يضحك، ولا يكثر الكلام من غير حاجة، ولا يعبث بيده ولا بغيرها، ولا يلتفت يميناً، ولا شمالا من غير حاجة، بل يكون متوجهاً إلى الشيخ، مصغياً إلى كلامه أدبه، مع شيخه.

ومما يتأكد الاعتناء به أن لا يقرأ على الشيخ في حال شغل قلب الشيخ، وملله واستيفازه سنة وروعه وغمه وفرحه وعطشه ونعاسه وقلقه ونحو ذلك مما يشقّ عليه أو يمنعه من كمال حضور القلب والنشاط، وأن يغتنم أوقات نشاطه.

ومن آدابه أن يتحمّل جفوةَ الشَّيخ وسوء خلقه، ولا يصده ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله، ويتأول لأفعاله وأقواله التي ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة، فما يعجز عن ذلك إلا قليل التَّوفيق أو عديمه، وأنّ جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار إلى الشيخ، وأظهر أنّ الذَّنب له والعتب عليه، فذلك أنفع له في الدُّنيا والآخرة، وأنقى لقلب الشَّيخ.

وقد قالوا: مَن لم يصبر على ذلّ التعليم بقي عمره في عماية الجهالة، ومَن صبر عليه آل أمره إلى عزِّ الآخرة والدنيا، ومنه الأثر المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما: «ذللت طالباً، فعززت مطلوباً»(١).

---

(١) في المجالسة وجواهر العلم ٤: ٤٣٩.

وقد أحسن من قال:

مَن لم يذق طعم المذلة ساعة .... قطع الزمان بأسره مذلولاً

الحادي عشر: حرصه على العلم:

ومن آدابه المتأكدة: أن يكون حريصاً على التَّعلم، مواظباً عليه في جميع الأوقات التي يتمكن منه فيها، ولا يقنع بالقليل مع تمكنه من الكثير، ولا يحمل نفسه ما لا يطيق مخافة من الملل، وضياع ما حصل، وهذا يختلف باختلاف الناس والأحوال.

وإذا جاء إلى مجلس الشيخ فلم يجده انتظر، ولازم بابه، ولا يفوت وظيفته، إلا أن يخاف كراهة الشيخ لذلك، بأن يعلم من حاله الإقراء في وقت بعينه، وأنّه لا يُقرئ في غيره.

وإذا وجد الشيخ نائماً أو مشتغلاً بمهم لم يستأذن عليه، بل يصبر إلى استيقاظه، أو فراغه، أو ينصرف والصبر أولى كما كان ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما وغيره يفعلون، وينبغي أن يأخذ نفسه بالاجتهاد في التَّحصيل في وقت الفراغ، والنشاط، وقوة البدن، ونباهة الخاطر، وقلَّة الشَّاغلات قبل عوارض البطالة، وارتفاع المنزلة، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تفقهوا قبل أن تسودوا»[1].

معناه اجتهدوا في كمال أهليتكم قبل وأنتم أتباع قبل أن تصيروا سادة،

---

(١) في صحيح البخاري ١: ٢٥.

فإنكم إذا صرتم سادة متبوعين امتنعتم من التعلم لارتفاع منزلتكم، وكثرة شغلكم، وهذا معنى قول الإمام الشَّافعيّ: «تفقه قبل أن ترأس، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه»(١).

وينبغي أن يبكر بقراءته على الشّيخ أول النّهار؛ لحديث النبي ﷺ: «اللهم بارك لأمتي في بكورها»(٢).

وينبغي أن يحافظَ على قراءة محفوظه.

وينبغي أن لا يؤثر بنوبته غيره، فإن الإيثار مكروهٌ في القرب، بخلاف الإيثار بحظوظ النَّفس، فإنّه محبوبٌ، فإن رأى الشَّيخ المصلحة في الإيثار في بعض الأوقات لمعنى شرعي، فأشار عليه بذلك امتثل أمره، ومما يجب عليه ويتأكد الوصية به، ألا يحسد أحداً من رفقته أو غيرهم على فضيلة رزقه الله إياها، وأن لا يعجب بنفسه بما خصَّه الله، وقد قدمنا إيضاح هذا في آداب الشيخ وطريقه في نفي العُجب أن يذكر نفسه أنه لم يحصل ما حصله بحوله وقوته، وإنما هو فضل من الله.

ولا ينبغي أن يعجب بشيء لم يخترعه، بل أودعه الله تعالى فيه، وطريقه في نفي الحسد: أن يعلم أن حكمةَ الله تعالى اقتضت جعل هذه الفضيلة في هذا.

---

(١) في المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي١: ٢٦٦.

(٢) في سنن أبي داود٣: ٣٥، وسنن الترمذي٣: ٥٠٩، وسنن النسائي الكبرى٨: ١٢٠، وصحيح ابن حبان١١: ٦٢.

فينبغي أن لا يعترض عليها، ولا يكره حكمة أرادها الله تعالى ولم يكرهها.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

المراجع:

١. أبو حنيفة النعمان إمام الأئمة الفقهاء لـوهبي سـليمان غـاوجي. دار القلـم. دمشـق. ط٤. ١٤٠٧هـ.
٢. أبو حنيفة طبقته توثيقه للكنوي، جمع وترتيب وتعليق الدكتور صلاح أبو الحاج، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية،إصدار(١).
٣. إحياء علوم الدين لابن حامد الغزالي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٤. الآداب الشرعية والمنح المرعية لمحمد بن مفلـح المقدسـي الحنـبلي (ت٦٧٣هــ). مؤسسـة قرطبة.
٥. أدب الدنيا والدين، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٦. أسنى المطالب شرح روض الطالب لإسماعيل بن المقري اليمني، دار الكتاب الإسلامي.
٧. الأشباه والنظائر لابن نجيم (ت٩٧١هـ)، دار الكتب العلمية.
٨. الأعلام لخير الدين الزِّركلي. بدون دار طبع. وتاريخ طبع.
٩. الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للحافظ السخاوي. الرتقي دمشق. ١٣٤٩هـ.
١٠. الإمداد شرح منظومة الإسناد للدكتور أكرم عبد الوهاب، الموصل.
١١. إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني،موسوعة المكتبـات الشـاملة الالكترونيـة، صدار(١).
١٢. الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء ليوسف بـن عبـد الـبر (ت٤٦٢هــ). ت. عبـد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب. ط١. ١٤١٧هـ.
١٣. بداية الهداية لأبي حامد الغزالي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
١٤. بدائع الفوائد لابن القيم، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

١٥. بريقة محمودية في شرح طريقة محمودية لأبي سعيد الخادمي. موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
١٦. بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
١٧. بلوغ الأماني في سيرة الإمام محمد بن الحسن الشيباني لمحمد زاهد بن الحسن الكوثري (ت١٣٧١هـ) . المكتبة الأزهرية للتراث. ١٩٩٨مـ.
١٨. بهجة النفوس في شرح رسالة العروس في علم أصول الفقه للدكتور صلاح عواد جمعة، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
١٩. تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضىٰ الزُّبَيْدِيّ (ت١٢٠٥هـ). موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٢٠. تاريخ الإسلام للذهبي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٢١. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٢٢. تاريخ دمشق لعلي بن الحسن ابن عساكر (ت٥٧١هـ)، ت: علي شيري، دار الفكر.
٢٣. تبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(ت٩١١هـ) . دار إحياء العلوم .
٢٤. تخريج أحاديث الإحياء للحافظ العراقي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٢٥. تذكرة الحفاظ للذهبي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٢٦. تذكرة الموضوعات للفتني، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٢٧. ترتيب العلوم لمحمد بن أبي بكر المرعشي- ساجقلي زاده(ت١١٤٥هـ). ت: محمد بن اسماعيل السيد أحمد. دار البشائر الإسلامية. ط١. ١٤٠٨هـ.

٢٨. تعليم المتعلم طريق التعلم لبرهان الإسلام الزرنوجي، ت: عبد الجليل عطا، دار النعمان، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٩. تفسير التستري، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٣٠. تفسير الطبري لمحمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ). دار الفكر. بيروت. ١٤٠٥هـ.

٣١. تفسير القرطبي لمحمد بن أحمد القرطبي (ت٦٧١هـ). ت: أحمد البردوني. دار الشعب. القاهرة.ط٢. ١٣٧٢هـ.

٣٢. تفسير حقي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٣٣. تكوين الملكة الفقهية للدكتور محمد عثمان شبير، كتاب الأمة، ع٧١، ١٤٢٠هـ.

٣٤. تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرَّافِعِي الكبير لأحمد بن علي ابن حجر العَسْقَلاني (٧٧٣-٨٥٢هـ). ت: السيد عبد الله هاشم. ١٣٨٤هـ. المدينة المنورة.

٣٥. تهذيب التهذيب لأحمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ). دار الفكر. بيروت. ط١. ١٤٠٤هـ.

٣٦. جامع الترمذي لمحمد بن عيسى (٢٧٩هـ). ت: أحمد شاكر. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٣٧. جامع بيان العلم ليوسف بن عبد البر (ت٤٦٣هـ). دار الكتب العلمية. بيروت.١٣٩٨هـ.

٣٨. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٣٩. جواب الحافظ أبي محمد عبد الله العظيم المنذري المصري على أسئلة في الجرح والتعديل، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ط١، ١٤١١هـ.

٤٠. الجواهر الحسان في تفسير القرآن لعبد الرحمن بن محمد الثعالبي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٤١. حاشية الدرر على الغرر لمحمد بن مصطفى الخادمي. مطبعة عثمانية.در سعادت. ١٣١٠هـ.

٤٢. الحثّ على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٤٣. حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (ت٤٣٠هـ). دار الكتاب العربي. بيروت. ط٤. ١٤٠٥هـ.

٤٤. خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٤٥. الخطة البراقة لذي النفس التواقة للدكتور صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، ط٥، ٢٠٠٤م.

٤٦. الدر المختار شرح تنوير الأبصار لمحمد بن علي بن محمد الحصكفي الحنفي (ت١٠٨٨هـ). دار الكتب العلمية.

٤٧. دفع الغواية لعبد الحي اللكنوي (ت١٣٠٤هـ). باكستان. ١٩٧٦م.

٤٨. ذخر المتأهلين شرح منهل الواردين لابن عابدين (١٢٥٢هـ). دمشق. ط١. ١٩٩٠م.

٤٩. ذم الغيبة والنميمة لابن أبي الدنيا، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٥٠. ردّ المحتار على الدر المختار لمحمد أمين بن عمر ابن عابدين (ت١٢٥٢هـ). دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٥١. الرسالة اللدنية للغزالي، ضمن مجموعة رسائل،ط٤، دار الكتب العلمية، ١٤٢٧هـ.

٥٢. الرفع والتكميل في الجرح والتعديل لعبد الحي الكنوي (ت١٣٠٤هـ). ت: عبد الفتاح أبو غدة. مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب. ط٣. ١٤٠٧هـ.

٥٣. روضة الطالبين وعمدة السالكين للغزالي، ضمن مجموعة رسائل،ط٤، دار الكتب العلمية، ١٤٢٧هـ.

٥٤. زاد المسير في علم التفسير لعبد الرحمن بن علي ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ). المكتب الإسلامي. بيروت. ط٣. ١٤٠٤هـ.
٥٥. الزواجر عن اقتراف الكبائر لأحمد بن علي بن حجر المكي الهيتمي (ت٩٧٤هـ). دار الفكر.
٥٦. سر العالَمين وكشف ما في الدراين للغزالي، ضمن مجموعة رسائل،ط٤، دار الكتب العلمية، ١٤٢٧هـ.
٥٧. سراج الظلمات في شرح أيها الولد، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٥٨. السعاية في كشف ما في شرح الوقاية للكنوي، طبع في المطبع المصطفائي سنة (١٣٠٧هـ) .
٥٩. سنن ابن ماجه لمحمد بن يزيد بن ماجه القزويني (ت٢٧٣هـ). ت: محمد فؤاد عبد الباقي. دار الفكر. بيروت.
٦٠. سنن أبي داود لسليمان بن أشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ) .ت: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الفكر. بيروت.
٦١. سنن الدارمي لعبد الله بن عبد الرحمن أبي محمد الدارمي (ت٢٥٥هـ). ت: فواز أحمد وخالد العلمي. ط١. ١٤٠٧هـ. دار التراث العربي . بيروت.
٦٢. سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي(ت٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من العلماء، مؤسسة الرسالة، ط١١، ١٤٢٢هـ.
٦٣. شرح الوقاية لمحمد بن عبد اللطيف ابن ملك الكِرْمَانِيّ (ت بعد: ٨٠٦هـ). من مخطوطات وزارة الأوقاف العراقية برقم (٩٦٢).
٦٤. شرح شرعة الإسلام لسيد علي زاده الحنفي، دار الكتب العلمية.
٦٥. شعب الإيمان: لأبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي (٣٨٤-٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٦٦. صحيح ابن حبَّان بترتيب ابن بلبان لمحمد بن حِبَّان التميمي(٣٥٤هـ). ت: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط.٢. ١٤١٤هـ.

٦٧. صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل الجعفي البُخَارِيّ (ت٢٥٦هـ). ت: د.مصطفى البغا. ط٣. ١٤٠٧هـ. دار ابن كثير واليمامة . بيروت.

٦٨. صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج القُشَيْرِيّ النَّيسَابوريّ (ت٢٦١هـ). ت: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٦٩. صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل لاعبد الفتاح أبو غدة (ت١٤١٧هـ)، بعناية: سلمان أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط٨، ٢٠٠٥م.

٧٠. الصمت لابن أبي الدينا، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٧١. صيد الخاطر لابن الجوزي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٧٢. الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد بن منيع (ت٢٣٠هـ)، تحقيق: زياد محمود منصور، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٢، ١٤٠٨هـ.

٧٣. طريق الهجرتين، لابن القيم، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٧٤. الغرر البهية في شرح البهجة الوردية ليحيى بن زكريا الأنصاري(ت٩٢٦هـ). المطبعة اليمنية..

٧٥. غمز عيون البصائر على الأشباه والنظائر لأحمد بن محمد الحموي (ت١٠٩٨هـ)، دار الكتب العلمية.

٧٦. غيث الغمام على حواشي إمام الكلام لعبد الحي اللكنوي (ت١٣٠٤هـ). المطبع العلوي. لكنو. ١٣٠٤هـ.

٧٧. فتح باب العناية لعلي القاري الحنفي (ت١٠١٤هـ). موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٧٨. الفروع لمحمد بن مفلح المقدسي (ت٧٦٣هـ). عالم الكتب.

٧٩. فضل علم مَن سلف على علم الخلف لعبد الرحمن بن أحمد الشهير، بابن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ). الطبعة المنيرية، ١٣٤٧هـ.

٨٠. الفقيه والمتفقه لأحمد بن علي الخطيب (ت٤٦٣هـ). دار الكتب العلمية. بيروت. ١٣٩٥هـ.

٨١. الفوائد المكية فيما يحتاج طلبة الشافعية من المسائل والضوابط والقواعد الكلية للسيد علوي بن محمد السقاف. طبعة مصطفى الحلبي.

٨٢. الفوائد المنتقاة الحسان الصحاح والغرائب (الخلعيات): لعلي بن الحسن بن الحسين الخِلَعي الشافعيّ (ت٤٩٢هـ)، مخطوط، المكتبة الشاملة.

٨٣. الفوائد لابن القيم، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٨٤. فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي. موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٨٥. القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ). طبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٧١هـ.

٨٦. قرى الضيف لابن أبي الدنيا، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٨٧. قيمة الزمن عند العلماء لاعبد الفتاح أبو غدة (ت١٤١٧هـ)، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط١٠، ٢٠٠٢م.

٨٨. الكسب لمحمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ)، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

٨٩. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث لإسماعيل بن محمد العجلوني (ت١١٦٢هـ). ت: أحمد القلاش. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط.٤. ١٤٠٥هـ.

٩٠. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني الحنفي (١٠١٧-١٠٦٧). دار الفكر.

٩١. اللآلـئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٩٢. لطائف المعارف، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٩٣. المبسوط لمحمد بن أبي سهل السرخسي. المتوفَّى بحدود (٥٠٠هـ). ١٤٠٦هـ. دار المعرفة. بيروت.
٩٤. المجالسة وجواهر العلم: لأبي بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٢م، ط١.
٩٥. مجلة دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث/ الإمارات.
٩٦. مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٩٧. المجموع شرح المهذب ليحيىٰ بن شرف النووي(ت٦٧٦هـ).ت: محمود مطرحي. بيروت. دار الفكر.ط١. ١٤١٧هـ.
٩٨. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
٩٩. مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي. (ت٦٦٦). ت: حمزة فتح الله. مؤسسة الرسالة. ١٤١٧هـ.
١٠٠. مختصر تاريخ دمشق لابن منظور، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
١٠١. مدارج السالكين لابن القيم، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
١٠٢. المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ للبيهقي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
١٠٣. المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ: لأحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت٤٥٨هـ)، ت: د.محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي.

١٠٤. المدخل إلى دراسة الفقه الإسلامي للدكتور صلاح محمد أبو الحاج. دار الجنان. عمان. ط١. ٢٠٠٤م.

١٠٥. مرآة الجنان وعبر اليقظان في ما يعتبر من حوادث الزمان لعبد الله بن أسعد اليافعي (ت٧٦٨هـ). مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. ط.١. ١٩٧٠م.

١٠٦. مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح ونجاة الأرواح لحسن بن عمّار الشرنبلالي (١٠٦٩هـ). ت: عبد الجليل عطا. دار النعمان للعلوم. بيروت. ط.١. ١٤١١هـ.

١٠٧. المزهر في علوم اللغة وأنواعها لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ). ت: فؤاد علي منصور. دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٩٩٨مـ.

١٠٨. المستدرك على الصحيحين لمحمد بن عبد الله الحاكم (ت٤٠٥هـ). ت: مصطفى عبد القادر. دار الكتب العلمية . بيروت. ط١. ١٤١١هـ.

١٠٩. المستقصى في أمثال العرب للزمخشري، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

١١٠. مسند أبي يعلى لأحمد بن علي أبي يعلى الموصلي (ت٣٠٧هـ). ت: حسين سليم أسد. دار المأمون للتراث. دمشق. ط.١. ١٤٠٤هـ.

١١١. مسند أحمد بن حنبل لأحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ). تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة.

١١٢. مسند البَزَّار لأبي بكر أحمد بن عمرو البَزَّار(ت٢٩٢هـ).ت: د.محفوظ الرحمن. ط١. ١٤٠٩هـ. مؤسسة علوم القرآن. مكتبة العلوم والحكم. بيروت . المدينة.

١١٣. مسند الشاميين لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطَّبَرَاني (ت٣٦٠هـ).ت: حمدي السلفي. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط١. ١٤٠٥هـ.

١١٤. مسند الشهاب لأبي عبد الله محمد بن سلامة القُضَاعي(ت٤٥٤هـ). ت: حمدي السلفي. ط٢. ١٤٠٧هـ. مؤسسة الرسالة. بيروت.

١١٥. مسند عبد بن حميد لعبد بن حميد بن نصر الكسي (ت٢٤٩هـ). ت: صبحي السامرائي. مكتبة السنة. القاهرة. ١٤٠٨هـ. ط١.

١١٦. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن علي الفيومي (ت٧٧٠هـ). المطبعة الأميرية. ط.٢. ١٩٠٩م.

١١٧. المصنف في الأحاديث والآثار لعبد الله بن محمد بن أبي شَيْبَةَ (١٥٩-٢٣٥هـ) ت: كمال الحوت. ط.١. مكتبة الرشد. الرياض. ١٤٠٩هـ.

١١٨. معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف لعبد الحي بن فخر الدين الحسني (ت١٣٤١هـ). راجعه: أبو الحسن الندوي. من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق. ١٩٨٣. وهو مطبوع باسم الثقافة الإسلامية في الهند.

١١٩. معالم التنزيل لحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ.

١٢٠. معجم الأدباء لياقوت الحموي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).

١٢١. معجم الإسماعيلي لأحمد بن إبراهيم الإسماعيلي (ت٣٧١هـ). ت: زياد محمود. مكتبة العلوم والحكم. المدينة المنورة. ط١. ١٤١٠هـ.

١٢٢. المعجم الأوسط لسليمان بن أحمد الطبراني(ت٣٦٠هـ). ت: طارق بن عوض الله. دار الحرمين. القاهرة. ١٤١٥هـ.

١٢٣. المعجم الصغير لسليمان بن أحمد الطَّبَرَانِي (ت٣٦٠هـ).ت: عمر شكور محمود. ط١. ١٤٠٥هـ المكتب الإسلامي. دار عمار. بيروت. عمان.

١٢٤. المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطَّبَرَاني (ت٣٦٠هـ).ت: حمدي السلفي.ط٢. ١٤٠٤هـ مكتبة العلوم والحكم .الموصل.

١٢٥. معجم لغة الفقهاء للدكتور محمد رواس قلعه جي، والدكتور حامد صادق. موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
١٢٦. المغرب في ترتيب المعرب لناصر بن عبد السيد المُطَرِّزِيّ (٦١٦هـ). دار الكتاب العربي.
١٢٧. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) لفخر الدين محمد بن عمر الرازي (٥٤٤-٦٠٦هـ). موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
١٢٨. مفتاح السعادة ومصباح السيادة لأحمد بن مصطفى طاشكبرى زاده (ت٩٦٨هـ). دار الكتب العلمية. بيروت. ط١. ١٤٠٥.
١٢٩. مقالات الكوثري لمحمد زاهد الكوثري(ت١٣٧٨هـ). المكتبة الأزهرية للتراث. مصر. ١٤١٤هـ.
١٣٠. مقدمة ابن خلدون، دار ابن خلدون.
١٣١. مقدمة التعليق الممجد على موطأ محمد لعبد الحي اللكنوي (ت١٣٠٤هـ) . ت: الدكتور تقي الدين الندوي. دار السنة والسيرة بومباي ودار القلم دمشق. ط١. ١٩٩١م.
١٣٢. مكارم الأخلاق: لعبد الله بن محمد القرشي (٢٠٨-٢٨١هـ)، تحقيق: مجدي السيد، مكتبة دار القرآن، القاهرة، ١٤١١هـ.
١٣٣. مناقب أبي حنيفة وصاحبيه لمحمد بن أحمد الذهبي. (ت٧٤٨هـ). ت: محمد زاهد الكوثري. المكتبة الأزهرية للتراث. مصر. ١٤١٦هـ.
١٣٤. المنتقى من السنن المسندة: لعبد الله بن علي بن الجارود (ت٣٠٧هـ)، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.
١٣٥. مواهب الجليل شرح مختصر خليل لمحمد بن محمد بن عبد الرحمن المعروف بالحطاب (ت٩٥٤هـ). دار الفكر. بيروت. ط٢. ١٣٩٨هـ.
١٣٦. نصيحة الطلاب في فضل العلم وآداب الطلب لمحمد بن علي بن محسن المفتي الحبيشي-الشافعي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ودار ابن حزم، بيروت،ط١، ٢٠٠٦م.

١٣٧. نماذج من رسائل الأئمة السلف وأدبهم العلمي لعبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ط١، ١٩٩٦م.
١٣٨. هدية الصعلوك شرح تحفة الملوك لمحرم بن محمد الزيلي، ايدنمشدر، ١٢٩٥هـ.
١٣٩. الوافي في الوفيات للصفدي، موسوعة المكتبات الشاملة الالكترونية، إصدار(١).
١٤٠. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأحمد بن محمد ابن خَلكان (ت٦٨١هـ). ت: د.إحسان عباس. دار الثقافة . بيروت.

فهرس الموضوعات: